تاريخ الأمة القبطية

"يعقوب نخلة روفيله"

الطبعة الثانية

تقديم

دكتور جودت جبره

يعقوب نخلة روفيله

+ مؤرخ مصرى، ولد فى القاهرة عام ١٨٤٧ وتوفى عام ١٩٠٨.
+ تلقى التعليم فى كلية الأقباط الكبرى أثناء حبرية البطريرك الأنبا كيرلس الرابع الملقب عن جدارة بأبى الإصلاح.
+ أتقن روفيله اللغتين الانجليزية والايطالية وتعمق فى اللغة القبطية.
+ قام بالتدريس فى المدرسة القبطية بحارة السقايين.
+ عمل محررا فى مطبعة بولاق الأميرية ثم أسس مطبعة جريدة الوطن ومطبعة جمعية التوفيق.
+ تقلب فى الوظائف الحكومية التى كان آخرها إدارة سكك حديد مصر فى الفيوم.
+ أسس عدة مؤسسات خيرية ومدرستين فى الفيوم، احدهما للبنين وأخرى للبنات.
+ له عدة مؤلفات فى تعليم اللغة الانجليزية للمصريين وتعليم اللغة العربية لمتحدثى اللغة الانجليزية.
+ أهم مؤلفاته "تاريخ الأمة القبطية".
+ من مشاهير الأقباط فى القرن التاسع عشر.





كتاب

﴿ تاريخ الأمة القبطية ﴾

جمعه الفقير إليه تعالى
« يعقوب نخلة روفيله »

****

****

﴿ الطبعة الأولى ﴾
(بمطبعة التوفيق بشارع كلوت بك بمصر سنة ١٨٩٨)

****

﴿ الطبعة الثانية ﴾
(طبعت بمطبعة متروبول سنة ٢٠٠٠)

راعت مؤسسة مارمرقس لدراسات التاريخ القبطي في إخراج هذه الطبعة الثانية الحفاظ على شكل الكتاب من الداخل تمامًا كما كانت الطبعة الأولى (من حيث شكل الخط وحجمه وبداية ونهاية كل صفحة) حتى يصلح كمرجع بنفس محتويات الصفحات مثل الطبعة الأولى التي نفذت في أوائل القرن السابق.

إسـم الكـتـــاب : تاريخ الأمة القبطية

المـــؤلـــف : يعقوب نخلة روفليه

الطبـعـة الأولي : ١٨٩٨ م

الطبعة الـثانية : أغسطس ٢٠٠٠ م

المـطبـــعـــة : متروبول

رقـــم الإيـــداع : ١٤٣١٦ / ٢٠٠٠

الترقـيم الدولى : .I.S.B.N



قداسة البابا المعظم

الأنبا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية



﴿ محتويات الكتاب ﴾

صفحة

مقدمة الطبعة الثانية

يبدأ تاريخ الأقباط في القرن الأول الميلادي، إلاَّ أن حضارتهم تمتد جذورها في تربة مصر الفرعونية، فلغتهم القبطية هي المرحلة الأخيرة من مراحل اللغة المصرية القديمة التي بدأ المصري يكتبها منذ خمسة آلاف عام، وإستمرت اللغة القبطية لغة كل المصريين لقرون عديدة بعد دخول العرب مصر، ومازالت مستخدمة حتى الآن في طقوس الكنيسة القبطية العريقة وفي صلواتها، ومازال الفلاح المصري يستخدم التقويم القبطي في تنظيم زراعاته حتى اليوم، كما تأثرت فنون الأقباط وآدابهم بتراث مصر القديمة.

والأقباط جزء لا يتجزأ من نسيج المجتمع المصري خلال عصوره المختلفة، إذ مرَّ عليهم كل مامرَّ على جميع المصريين، فتاريخ مصر هو تاريخهم، إلاَّ أن إختلاف عقيدتهم أو ديانتهم عن عقيدة أو ديانة الحكام قد أدى إلى ضغوط إقتصادية وإجتماعية ألمت بهم في فترات غير قليلة، وتتراوح درجات هذه الضغوط بإختلاف طبيعة العصر وأسلوب الحكم وشخصية الحاكم، وفي حالات ليست نادرة أصابهم مزاج الحاكم أو إختلال قواه العقلية بأضرار تفوق كثيرًا الأضرار التي لحقت بمواطنيهم من غير الأقباط، فمن الطبيعى أن يكون للأقباط تاريخهم الخاص في إطار تاريخ مصر العام.

وتاريخ الأقباط تراث وطني هام ولكنه يكاد أن يكون غير معروف للغالبية العظمى من المثقفين، ناهيك عن المتعلمين غير المثقفين وغير المتعلمين، ولا يختلف في هذا الأمر القبطي عن المسلم، فكلاهما لا يجد المعلومة الصحيحة التي تعبر عن الحقيقة وتخاطب المثقف العام غير المتخصص، إلاّ فيما ندر، وإن وجد القارئ المعلومة المتعلقة بتاريخ الأقباط فإنه يجدها في أغلب الأحيان مغلفة في أسلوب يبعدها قليلاً أو كثيرًا عن الحقيقة، وأسباب ذلك عديدة، أهمها أن كتابة التاريخ في مصر مازالت في معظم صورها تهتم بالأحداث السياسية والعسكرية وتاريخ الحكام بصفة عامة أكثر من إهتمامها بالأحوال الإقتصادية والإجتماعية للناس ودقائق حياتهم اليومية، كما أن هناك حساسية بالغة لدى معظم الكتاب عند تناول الموضوعات التي تتعلق بتاريخ الأقباط ولا سيما بالنسبة لسياسة الحكام تجاههم، إذ يتم التركيز على إظهار الجوانب الإيجابية والمرور سريعًا على السلبيات أو تجاهلها، بالإضافة إلى أن الكثير من المؤرخين ينظرون إلى التاريخ الحضاري للأقباط على أنه تاريخ ديني وليس تاريخًا وطنيًا بالدرجة الأولى.

وخلال النصف الثاني من القرن العشرين إزداد الإهتمام العالمي بالقبطيات إثر الكشف عن المخطوطات القبطية الغنوسية المعروفة ببرديات نجع حمادي وكذلك إثر عرض المئات من روائع الفن القبطي في معارض جالت بعديد من

المدن الأوربية والأمريكية التي واكبها إصدار كتالوجات قيمة أنيقة أبرزت أهمية التراث القبطي ، كما حظيت الدراسات القبطية بمكانة لائقة في عدد من جامعات أوروبا وأمريكا ، وإنعقدت ستة مؤتمرات دولية للقبطيات ، وأخيرًا صدرت الموسوعة القبطية في ثماني مجلدات ضخمة ، إلاَّ أنه للأسف الشديد لم يحدث في مصر موطن الحضارة القبطية صدى ملائم لهذه التطورات الهامة ، فما زال التاريخ القبطي مهملاً في مناهج التعليم بمراحله المختلفة ، و لا يوجد قسم للحضارة القبطية في أية جامعة مصرية ، كما تعزف وسائل الإعلام المختلفة عن تخصيص مساحة للتراث القبطي بالقدر الذي يتناسب مع حجمه وأهميته .

ومن جهة أخرى ، منذ خواتيم القرن التاسع عشر بدأ عدد من العلماء الأقباط نشر كتب تتناول التاريخ القبطي وتعتمد في معظم مادتها على المخطوطات المحفوظة في الأديرة والكنائس القديمة ، وهي مجهودات كبيرة إلاَّ أنها متناثرة وغالبيتها تفيد المتخصص المهتم بتفاصيل هذا التاريخ ، والقليل منها تم تأليفه خصيصًا لعموم المثقفين الذين يرغبون في الإطلاع على تاريخ الأقباط الممتد قرابة ألفي عام من خلال كتاب واحد ، ومعظم هذه المؤلفات نفذت طبعاتها ، وبعضها لا يوجد إلاَّ في المكتبات المتخصصة ، وهي قليلة للغاية .

وأول عمل هام يتناول تاريخ الأقباط في مؤلف واحد هوكتاب (تاريخ الأمة

القبطية) للعلامة يعقوب نخلة روفيله والذي صدر منذ أكثر من مائة عام وتمت طباعته (بمطبعة التوفيق القبطية الأرثوذكسية) عام١٨٩٩ حسب ما جاء في نهاية خاتمة مؤلف الكتاب، وبالرغم من مرور قرن كامل على ظهور هذا العمل الرائد إلاَّ أنه لا يزال مصدرًا موثوقًا به للمشتغلين بالتاريخ القبطي، كما أنه في نفس الوقت كتاب نافع لكل مثقف يرغب في الوقوف على التاريخ الحقيقي لأجداده، ويذكر روفيله في مقدمة كتابه أن تاريخ الأقباط مجهول إذ لم يفرد له أحد المؤرخين كتابًا خاصًا به، وأن غيرته الوطنية دفعته إلى الإقدام على وضع هذا الكتاب غير مبالٍ بما سيلاقيه من صعوبات في إعداده، وفي الحقيقة حالف التوفيق روفيله في إصدار أول كتاب باللغة العربية يتناول تاريخ الأقباط متعرضًا لأحداث تكشف النقاب عن وضعهم في المجتمع المصري ومعاملة الحكام لهم على مر العصور، مستخلصًا نتائج هامة تدل على قدرته على النظرة الشاملة والفاحصة في نفس الوقت لتاريخ الأقباط، ومن ذلك على سبيل المثال ما جاء في ص ١٠٨: (وبالجملة فإن المصريين عمومًا لم يروا من بعد عمرو بن العاص أيامًا أحسن من أيام إبن طولون والدولتين الفاطمية والأيوبية بصرف النظر عما أصابهم على يد الحاكم بأمر الله أحد الخلفاء الفاطميين)، وما جاء في ص ١٥٨ عن حروب الفرنجة المعروفة في الغرب بالحروب الصليبية من أن الأقباط (لم ينجوا من يد الإفرنج ولم يسلموا من

شرهم حينما حلوا بمصر ولما وصلوا إليها في أول مرة نزلوا بمدينة تسمى الفرما وقتلوا جميع من بها دون تمييز بين مسلم أو نصراني) .

وقد إتبع روفيله نهجًا علميًا في تقييمه للمادة التاريخية المتاحة له آن ذاك ، من ذلك ما جاء في ص ٢٨ عن إضطهاد الرومان للأقباط: (. . . جاء في بعض التواريخ أنه قُتل في يوم واحد من الأقباط بمدينة الإسكندرية مائتا الف نفس وإن كان هذا لا يخلو من المبالغة في القول والمغالاة في النقل إلاّ أنه يدل على شدة إضطرام نار الفتنة والضغينة بين القبط والروم وربما كان هذا عدد جميع الذين قتلوا من الأقباط في كل أنحاء مصر بسبب ما كان بينهم وبين الروم من خلاف وهو عدد ليس بقليل) ، وفي مناقشته لموضوع فرض العرب الجزية حتى على الرهبان أبدى روفيله رأياً وجيهًا في ص ٦٩ ، هامش(١) : (. . .ولما رأى بعض ولاة العرب أنه يوجد في ديارات برية شيهات وحدها عدد عظيم من الرهبان كهذا خشي حدوث ما يخل بالنظام فعمد إلى ربط الجزية عليهم وشدد في تحصيلها لفائدة الخزينة من جهة ونقص عددهم من جهة أخرى) .

وعند تقييم كتاب روفيله علينا أن نضع في الإعتبار أنه قد مضت مائة عام على طباعته ظهرت فيها موسوعات ومعاجم عديدة ومؤلفات لا حصر لها لم تكن في متناول المؤلف ، ومن ثم يجب أن نتجاوز عن الأخطاء التي تتعلق .

بالأصول المصرية القديمة أو القبطية لأسماء المواقع والمدن المذكورة في الكتاب، ومن ناحية أخرى يشتمل كتاب روفيله على فهرس رُتب ترتيبًا أبجديًا جمع فيه أسماء الأعلام من شخصيات ومواقع جغرافية وأدمج فيه عددًا كبيرًا من الموضوعات التي مثلت بالنسبة له أهمية خاصة مثل (بناء جامع إبن طولون) أو (ضرائب الأقباط) أو (قوانين إبن العسال) مما يزيد من قيمة الكتاب.

ينتمي المؤرخ يعقوب نخلة روفيله إلى مجموعة من مشاهير الأقباط في القرن التاسع عشر الذين تأثروا بإصلاحات البطريرك الأنبا كيرلس الرابع (١٨٥٤-١٨٦١) الملقب عن جدارة بأبي الإصلاح، وقد تلقى روفيله التعليم في كلية الأقباط الكبرى أثناء حبرية هذا المصلح العظيم، وعشق روفيله تاريخ الأقباط وحضارتهم وكان تواقًا إلى الحفاظ على تراثهم الفني والأدبي كما تشهد على ذلك فقرة في خاتمة كتابه: (... يا حبذا لو إنتهز بعض فضلائنا هذه الفرصة الثمينة ووجهوا إلتفاتهم إلى ما بقي عندنا من الآثار القديمة العديمة المثال وكتب خط اليد المشتتة الموجودة تحت يد من لا يعرف لها قيمة ويرفعون لغبطة البطريرك مشروعًا بجمع شتاتها في محل واحد مع المحافظة عليها كما أشرنا إلى ذلك في ما تقدم)، وربما كانت أمنية روفيله هذه مصدر إلهام رجلين عظيمين هما مرقس سميكه باشا ويسى عبد المسيح في تكريس حياتهما من أجل تحقيق هذه الأمنية بتأسيس المتحف القبطي وبالعناية

بمخطوطات الكنائس والأديرة القديمة.

لقد سبق المؤرخ العلامة يعقوب نخلة روفيله عصره، ولإحياء ذكراه ليس هناك شيء أوقع من إعادة طبع كتابه (تاريخ الأمة القبطية) بمناسبة مرور مائة عام على صدوره.

د. جودت جبره

مقدمة

لما كانت أخبار السلف تذكرة للخلف ومشكاة يُهتدى بها ونبراسًا يُقتدى بمثالها وكان تاريخ الأمة القبطية مجهولاً إذ لم يُفرد له أحد المؤرخين كتابًا خاصًا به يجمع فيه أشهر الحوادث الغابرة وأهم الأخبار الماضية بل أن كل مؤرخ كتب بحسب ما يلوح له ويروق في عينيه فضلاً عن إختلاف مشربه وعدم توفيقه إلى نقطة أساسية يدور عليها محور بحثه . لذلك رأيت أنه من الوجوبي تدوين أخبار هذه الأمة عن أصدق الموارد وجمع شتات تاريخها في كتاب واحد . وقد دفعتني المحبة الجنسية والغيرة الوطنية إلى الإقدام على هذا العمل المأثور غير مبال بما ألاقيه من الصعوبة ووعورة المسلك ولله الحمد فقد وفقني الله إلى إنجازه على أحسن أسلوب حتى جاء كتابًا وافيًا بالغرض كافياً لكل مطلع مع صغر حجمه .

وإذا بدا لا تستقلوا بحجمه   وحياتكم فيه الكثير الطيب

وها أنا أقدمه هدية مرضية وخدمة جنسية لإبناء أُمتي لا أبغي منهم جزاءً ولا شكورًا . غير أني أرجو لطفهم وأستميح سماح كرم أخلاقهم إقالة عثاري وقبول هديتي والإغضاء عما به من السقطات فالعصمة لله وحده .

يعقوب نخلة روفيله

أصل الأقباط

الأقباط هم بقايا تلك الأمة المصرية العريقة في الحضارة التي أجمع الكل على أنها أقدم الأمم في المدنية وأسبقها إلى التمدن وقد شهدت التواريخ على أنها هي السبب الوحيد والعامل الأكيد على إيجاد التمدن في العالم و إنتشاره على وجه البسيطة .

ومصر إسم لتلك البلاد التي كانت إستوطنها هذه الأمة وهي كلمة عبرانية الأصل مشتقة من مصرايم [١] بن حام بن نوح الذي أتى بعشيرته إلى وادى النيل وإتخذه مقرًا له ولأولاده من بعده وذلك عقب تبلبل الألسنة ببابل وتفرق أولاد نوح على وجه الأرض كم جاء في التوراة .

ويسمى الإفرنج مصر Egypte (إيچيپت) نقلاً عن اليونان الذين لما فتحوا مصر على يد الإسكندر المقدوني الشهير بالأكبر أطلقوا عليها إسم (إيچپتوس) وقال بعض الباحثين في تاريخ

---

[١] قيل أن مصر عند العبرانيين مشتق من (صر) أي الشدة ويعنون بذلك ما لاقوه من الشدة والعنف في الإستعباد . والبعض من المؤرخين يدعون مينا أول ملوك مصر (مصرايم) ولكن لا دليل على ذلك.

مصر أن لفظة إيچپتوس مركبة من كلمتين (إى) بمعنى أرض أو دار و (چپتوس) أي قفط أو (جفط) كما ينطقها أهل الصعيد للآن فيكوّن معنى الكلمتين معًا أرض القبط أو دار القبط.[1]

وقيل أن قبط من قفطايم أحد أولاد مصرايم وهو الذي إبتنى مدينة قفط بالصعيد الأعلى فسُميت بإسمه وكانت مدينة عامرة إشتهرت قديمًا وخصوصًا في عهد دولة البطالسة بكونها محط رحال التجار الذين كانوا يقصدون مصر من بلاد العرب والهند لبيع بضائعهم وكان بها قلعة حصينة وجنود للمحافظة أما الآن فهي قرية حقيرة تسمى دفادف قفط وقلعة قفط أيضًا .

وجاء أيضًا أن إيچپت من (هيكپتاه) وهى كلمة مصرية مركبة من (هيكي) بمعنى أرض و (بتاه ⲠⲦⲈ) إسم المعبود الأكبر الذي كان يعبده قدماء المصريين ومعناه الخالق أو المبدع.

﴿ تنبيه ﴾ إن ضبط نطق هيكپتاه هو (كاهي پتاه) لأن (كاهي ⲔⲀϨⲒ) في اللغة القبطية معناه أرض ، والإفرنج تصرَّفوا فيها وحرَّفوها عن أصلها كتحريفهم الأسماء المنقولة إلى لغتهم.

أما إسم مصر في اللغة القبطية فهو (ⲬⲎⲘⲒ) كيمي أو

[1] وهو القول الذي يعتمد عليه أكثر الباحثين.

خيمى نسبةً إلى حام أبي مصرايم وقيل بل هي لفظة مشتقة من (كيم) بمعنى أسود نسبة إلى سواد طينتها .[1]

قال المقريزي في خططه أن مصرايم بن حام بن نوح أتى بأولاده وسكن مصر وسُميت بإسمه ولما كثرت أولاده قطع لكل واحد منهم قطيعة يحوزها لنفسه ولولده وكان قفطايم من كبار أولاده فقطعه قفط وما فوقها إلى أصوان وما دونها إلى الأشمونين (بمديرية أسيوط) وبه سُميت (قفط) قفطًا (اهـ) .

وقد أجمع المؤرخون المتأخرون على أن سكان وادي النيل كانوا قبل إنضمامهم إلى أمّة واحدة عبارة عن جملة قبائل أشبه بقبائل العرب وعليه فليس ببعيد من أنه كانت توجد بين تلك القبائل قبيلة تسمى قفط نسبة إلى قفطايم بن مصرايم وربما كانت هذه القبيلة أكبر القبائل وأشهرها كما يؤخذ مما نقله المقريزي وجميع هذه القبائل تجمعها كلمة (مصريين) نسبة إلى مصرايم الذي هو أبو جميع أولاده المسماة القبائل بأسمائهم وهذا هو الرأي الموافق لما جاء في السفر الأول من التوراه فعلى هذا يكون كل قبطي مصريًا وكل مصري قبطيًا إلا في حالة التمييز بين

---

[1] وهو القول الذي يرجع إليه .

المسيحي والمسلم من المصريين فيُقال حينئذ قبطي أي مصري مسيحي.

وكما يسمي اليونان أهل مصر (إيچپتن) والإفرنج (إيچپشن) و(إيچپسيان) كذلك العرب يسمونهم أقباطًا والأصل الذي أشتقت منه هذه الأسماء واحد ولا إختلاف إلا في النطق فقط.

المصريون قبل الدولة الفرعونية ودياناتهم

يظهر أن المصريين إستمرُّوا منقسمين في مبدأ أمرهم إلى جملة قبائل مستقلة لكل قبيلة رئيس يدير أمورها بدون منازع ولا معارض وإذا تعدَّت قبيلة على أخرى أو نازعتها شيئًا مما هو لها أو حصل بينهما خلاف رفع المتحاكمان أمرهما إلى الكهنة ليفصلوا بينهما فكان حكمهم باتًا لا يقبل أية معارضة وإستمروا على هذه العيشة الهنيئة مدة من الزمن ولذا زعم قدماء المصريين أن أجدادهم مكثوا زمانًا تحت أحكام الآلهة إشاره إلى المدة التي إختص فيها الكهنة بالأحكام والفصل بين القبائل في دعاويهم وقضاياهم بالعدل والإنصاف وردع الجائر

وكبح جماح المعتدي بلا مراعاة خواطر . وبالجملة فكان للكهنة الصوت الأول والنفوذ التام وتخضع لهم جميع القبائل ورؤسائها وترضخ لأوامرهم ولذا كانت حكومه المصريين في ذاك الزمن دينية ولهذا السبب زعم قدماؤهم أن الآلهة حكمتهم مدة .

ومازال الكهنة على هذا التسلط والنفوذ حتى ظهر بين القوم رجل يسمى مينا أومينيس بقرية في الصعيد يقال لها طان بمديرية جرجا كان في الغالب رئيس قبيلة مسموع الكلمة عند قومه وطمع في السيادة فجمع رجالاً وجنَّدهم وإتخذهم أعوانًا له وضم إليه بعض القبائل ونازع الكهنة وإختلس بعض حقوقهم وإمتيازاتهم وألزمهم أن يقتصروا فقط على الإشتغال بالعبادة وإقامة الشعائر الدينية ومن ثمَّ قل نفوذهم ونزع من يدهم الحكم المدني .

ولم يخالط الكهنة الناس في السكنى بل إنفردوا في مدينة مخصوصة تسمى طيبة[1] وموضعها الآن الأقصر بمديرية قنا

---

[1] طيبة (Thébes ويسميها اليونان ديوسپوليس الكبرى) ودعاها هوميروس اليوناني أبو الشعراء بذات المائة باب، وبقاياها الآن: لُقصر والقُرنة ومدينة آبو والكرنك والميت عامود .

وكانت مدينة عظيمة وبها هيكل المعبود (هور) أي الشمس ويغلب على الظن أن أصل طيبة (ⲦⲠⲈ) وهي كلمة قبطية معناها السماء أو العلاء وسُميت بهذا الإسم رمزًا إلى رفعه مقامها وعلو مكانتها نظرًا لوجود مقام هذا المعبود بها . وكان الناس يحجون إليها في أيام معلومه من السنه ويؤدون فيها الفرائض الدينية ويقدمون للكهنة المنوطين بخدمة الهيكل العطايا والنذور والرواتب المقرَّرة عليهم وكانوا يدعونهم (هورشسّو) أي خدمة المعبود (هور) .

أما ديانة المصريين القدماء فلم تكن في الأصل وثنية بحتة فإن مصرايم وعشيرته لما أتوا إلى وادي النيل وتوطنوا فيه كانوا يعبدون الإله الحق وإستمرُّوا على ذلك مدة قصد في أثنائها كهنتهم التعريف عن صفات الإله غير المنظور بطريقة يسهل على البسطاء إدراكها فأقاموا تماثيل تمثل صفات وأعمال الإله الحقيقى مثل الحياة والأزلية والملك والتصرف في العباد بما يشاء بأشكال وأشباه شتَّى ولكنهم مع تمادى الزمن ضلوا عن سواء السبيل ونسوا تلك الحقيقة وتمسكوا بالتقاليد والخرافات فأصبحوا لايعرفون من معبوداتهم إلا تلك الحجارة الصماء التي صنعوها

بأيديهم إلا أنه رغمًا عن عدم إتصال الوحي بهم قد أدركوا وجود إله خالق سرمدي متكفل بالإنسان في الحياة الدنيا يناقشه الحساب عن أعماله في الآخرة وديانتهم هذه تقرب من الديانة الصحيحة الموحى بها لو إستمرَّت على حالها وعمل الكهنة على إذاعتها بين الشعب بغير الطريقة التي إستعملوها . على أن تلك الحقيقة لم تخفَ عن حكمائهم وكهنتهم إلا أن ما حسبوه خيرًا كان سببًا في وقوع الناس في الضلال ولم يردُّوهم عما وقعوا فيه أو ينصحوهم لما وجدوا في ذلك من الفائدة الشخصيه وجرّ المنفعة الذاتية بإستيلائهم على عقولهم وأفكارهم وجعلهم طوع إشارتهم يُطوّحون بهم كيفما شاؤوا وأرادوا فأمسكوا عن التعرض لهم في معتقدهم وكأنهم كفُّوا عن هذا التساهل بأن أخذوا على عاتقهم بذل النصيحة للناس بإطاعة ملوكهم وأولياء إمورهم وحث الملوك على إجراء العدل والإنصاف والرفق بالرعية ووجوب إكرام الشبان للشيوخ ومن هم أكبر منهم سنًا وغير ذلك من الآداب والأمور التي لا تخلو من الفائدة العمومية وهذا ليس بكاف لإخلائهم من المسئولية عن إخفائهم الحقيقة عن الناس وعدم إرشادهم إلى معرفة الإله الحقيقي والدين الحق .

وكان من أكبر وأقدم معبوداتهم المعبود (بتاه ΠΤα) وله المقام الأول ومعناه المبدع أو الأصل أو علة الوجود والمعبود (را pH أو pH) أي الشمس وهو الثاني في الربوبية ويرسمون الأول على صورة إنسان محنط يحرك يديه كيف يشاءُ وهو قابض بهما على ثلاث علامات تشير إلى الحياة والأزلية والمُلك ويعتقدون أنه هو الذي أعطى المعبود (را) عناصر الخلقة ومنحه حق التسلط على العالم بأسره. أما المعبود (را) أي الشمس فإعتقادهم فيه أنه علة الحياة وكانوا يُصوّرونه على أشكال شتَّى ويسمونه بأسماءٍ مختلفة بحسب إختلاف أدوار الشمس من وقت بزوغها إلى ساعة غروبها ثم عودتها بعد إنقضاءِ الليل وزوال الظلام من على وجه الأرض. وكان لهم غير هذين المعبودين معبودات كثيرة أخرى يسندون أعمال ووظائف كل منها على أقوال وخرافات لا حاجة لذكرها هنا حبًا في الإختصار.

تأسيس المملكة الفرعونية
وما كانت عليه مصر في زمن ملوك الفراعنة

لما تغلَّب مينا على الكهنة ونزع من يدهم السلطة المدنية وألزمهم الإقتصار على الخدمة الدينية وإقامة شعائرها كما تقدم القول ضعفت شوكتهم وقلت منفعتهم فنقموا عليه وأخذوا يدسون الدسائس ويثيرون الفتن ضده ويحرضون الناس على مخالفته والتمرد عليه بقولهم أن الآلهه ساخطة وناقمة عليه لتعديه على كرامة خدامها . أما هو فلم يعبأ بهذه التمويهات بل تركهم وشأنهم وأتى إلى جهة الجيزة وإبتنى هناك مدينة سمَّاها منف أو منفيس[1] وقد إندثرت الآن ولم يبق لها أثر بعد عين وشيَّد بها هيكلاً عظيمًا يحاكي في العظمة والرونق هيكل طيبة وخصصه للمعبود (پتاه) وجعلها عاصمة مملكته الجديدة التي أسسها فهاجر إليها كثير من مصر العلياء وإتخذوها موطنًا ومن ثمَّ أخذ في إصلاح أراضي الوجه البحري التي يظهر أنها كانت

[1] في محل جزء منها ميت رهينة تبعد عن القاهرة ١٢ كيلومترًا للجنوب و٨ عن الأهرام الكبيرة وإسمها بالقبطي الصعيدي **ⲘⲀⲀⲠⲈ** وبالقبطي البحيري **ⲘⲈϤⲎ** وبعضهم قال **ⲘⲒⲎⲪⲎ** ومعناه دار القبلة .

صفصفًا خاليًا وبلقعًا خاويًا ومن ذاك الحين أخذت مدينة طيبة في التقهقر والإنحطاط وقد قل نجم إسمها وغربت شمس طلعتها ويقال أن هذا الملك العظيم هو الذي حول مجرى النيل إلى الوجه البحري بعد أن كان يخترق الصحاري وتذهب مياهه سدى بلا فائدة ولذلك كان حظ مصر السفلى عظيمًا لتشعب فروع النيل فيها وإحياء أرضها بعد أن كانت بلقعًا .

ومينا هو أول ملوك مصر الوطنيين الذين كانوا يلقبون بالفراعنة (واحده فرعون) وقيل أن معنى فرعون (إبن الشمس) وفسرها بعضهم بصاحب الحضرة ومن عهده أخذت مصر تظهر في عالم الوجود بمظهر يخالف ما كانت عليه قبلاً وبعد أن كان العمران مقتصرًا على الوجه القبلي صار يمتد شيئًا فشيئًا حتى عم الوجه البحري بأكمله وشيدت به المدن العظيمة والمباني الفاخرة فكانت توجد بمصر تارة مملكتان مستقلتان إحداهما في الوجه البحري والثانية في الوجة القبلي وطورًا تجتمعان وتصيران مملكة واحدة ذات ملك واحد .

ولما فرغ مينا من تشييد منف فتح ليبيا[1] فإتسعت مملكته

---

(١) ليبيا ΛIBH بلاد المغرب ويقصد بها مؤرخو اليونان أفريقيا .

وقويت شوكته وغير بعض عوائد المصريين وإستبدلها بغيرها وإستمر ساهرًا على راحة رعاياه عاملاً على إصلاح مملكته التي أسسها وأنشأها حتى مات . وحذا حذوه الملوك الذين أخلفوه فنسجوا على منواله وغزوا البلاد وضموا القبائل المتفرقة بالتدابير السياسية وتوسيع نطاق المملكة والمحافظة على البلاد وأرواح العباد وأعراض الرعايا وأموالها وتأسيس المدن وتشييد العمارات وإقامة المسلات وإنشاء الخزانات النيلية وشق الترع ومد الجسور وغير ذلك من الأعمال المفيدة التي تعود على البلاد وأهلها بالنفع العميم وكان الكهنة يشتغلون بالعلوم والمعارف وسن الشرائع العادلة وبعضهم يهتم بتربية أولاد الملوك والأمراء ليكونوا أهلاً لخدمة بلادهم وأوطانهم كما يجد الراغب في معرفة تاريخ بلاده كل ذلك مفصّلاً في الكتب التي وضعها أهل الفضل باللغة العربية نقلاً من المؤلفات الأجنبية والآثار المصرية أو يكفي نفسه مؤنة تعب البحث بمشاهدة الآثار النفيسة التي يقول لسان حالها .

تلك آثار تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

أما الأهالي فكانوا يمارسون الصنائع ويشتغلون بالزراعة

وما يتعلق بها ولذلك توفرت أسباب العمران والثروة في البلاد قاطبة ومما يمدحون عليه أنهم مع كثرة معبوداتهم وتعددها وإختلاف عقائدهم لم يكن للتعصب الديني نصيبًا بينهم بل كانوا عاقدي الخناصر على تقدم بلادهم وإستقلالها مؤازرين لبعضهم البعض على إيرادها موارد العز والترقي عاملين كإخوان تجمعهم الجامعة الوطنية وعرف كل منهم واجباته نحو وطنه فقام بها أحسن قيام فإتسع في أيام هؤلاء الملوك والفراعنة الوطنيين نطاق المملكة المصرية وتأيدت دعائمها وإرتفعت كلمتها فخضعت لها أفريقيا وآسيا وإمتدت سلطتها إلى أوروبا ولبثت على هذه الحال مدة أجيال طويلة وهي ترتقي إلى معارج التقدم وتسود على الأمم والأمصار حتى أتى دور إنحطاطها وهاجمها جيش التأخر فلم تلبث أمامه ثابتة بل خارت قواها ونزعت إلى الخضوع رغمًا عن الأنفة لأن دوام الحال من المحال فأخذت الأحوال تتغير والنظام يختل وإنفصمت عري الإتحاد والألفة لإستيلاء حب الذات على أولي الأمر الذين فضّلوا جر المنافع الذاتية إليهم على الفائدة العمومية فسقطت الرعايا في وهدة الفشل ومما زاد الطين بلة أن بعض الملوك إتخذ جنودًا وأعوانًا من الأجانب الذين

لايهمهم أمر إنتظام الملك أو إختلاله فأغاظ بفعله هذا عساكره الوطنيين فتركوه إلى نوبيا وغيرها فإستوطنوها .

إستيلاء الفرس على مصر

وإنقراض الدولة الفرعونية الوطنية

وفي خلال تلك المدة ظهرت بآسيا مملكة تسمى مملكة الفرس أو العجم فأخذت تتقوى وتمتد شيئًا فشيئًا حتى خضعت لها بلاد كثيرة وقد قادها طمعها وحسدها إلى الإستيلاء على مصر نظرًا لوفرة خيراتها وثروتها فإنتهز أحد ملوكها المسمى قمبيز هذا الفشل فرصة مناسبة لشن الغارة عليها فحشد جيشًا جرارًا وحمل عليها في سنة ٥٢٧ ق م فأخضعها لحكمه ولم تقم لمصر قائمة بعد ذلك بل إستمرت تحت نير الأجانب ومن ثم فقدت إستقلالها رغمًا عن إهتمام بعض أمرائها بنزعها من يد الفرس وتخليصها من قبضتهم مرتين ولكن لم يمض زمن حتى أعاد الفرس الكره وإستولوا عليها ثانية وأذاقوا أهلها مر العذاب فقهروهم وأذلوهم وخربوا المدن وهدموا المعابد وسبوا

النساء وقتلوا الرجال وسلبوا الأموال وطالت مدة حكمهم المشوب بالظلم نحوًا من مائة سنة أحرقوا فيها الحرث والنسل ومن ذاك الحين إنقرضت الدولة الفرعونية الوطنية ولم يبق لها أثر إلى يومنا هذا فسبحان من له الدوام ولله درّ من قال :

ما طار طير وإرتفع   إلا كما طار وقع

ظهور إسكندر الأكبر
وتخليصه مصر من يد الفرس

وفي غضون ذلك ظهر إسكندر المقدوني الشهير بالأكبر فقصد محاربة الفرس سنة ٣٣٢ ق.م وفيما هو سائر إليهم عرج على مصر ونزعها من يدهم فقابله المصريون بالترحيب والإكرام لما لاقوه من سوء معاملة الفرس الذين لم يتركوا إلا أوابدهم [١] تتأوه منها المصريون . ولما إستولى عليها أحسن معاملة أهلها ومنحهم الحرية الدينية ولم يتعرض لهم في شيء من عوائدهم .

---

[١] الداهية التي يبقى ذكرها .

مصر في عهد الدولة اليونانية

لما إستولى الإسكندر الأكبر على مصر لم يرد البقاء بها لأنه كان يقصد بلاد الفرس لمحاربة ملكها كما تقدم القول إلا أنه لم يبارحها حتى جعل له فيها أثرًا لايزال باقيًا وسيبقى إلى ماشاء الله وذلك أنه إختط بها مدينة جديدة على البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم) سماها بإسمه وهي مدينة الإسكندرية الموجودة. وكان بمحل هذه المدينة قرية قديمة تسمى راكودي وبالقبطية (ⲣⲁⲕⲟϯ) ومعناه على مايقال الحصن أو الوقاية أو الجسر. فلما رآها إسكندر أعجبه موقعها ليس بالنسبة لجودة هوائها بل لتوسطها بين بلاد المشرق والمغرب فإبتنى بها مدينة وأدخل بها قرية راكودي القديمة وأحاطها بسور منيع ولذا كان القبط يسمون الإسكندرية (راكودي) وإستمروا محافظين على هذا الإسم إلى مابعد الميلاد بأجيال ولا يزال هذا إسمها في لغتهم القبطية وكثيرًا ما تذكر في كتبهم القديمة به.

وقد تحقق رجاء الإسكندر في أمر هذه المدينة التي أراد بإنشائها أن تكون مركزًا للتجارة بين المشرق والمغرب فأصبحت

مركزًا مهمًا للتجارة بين أوروبا وآسيا وأفريقيا في جميع الأزمان فكان يؤمها التجار من أقصى بلاد المشرق والمغرب لبيع بضائعهم بها وإستبدالها بغيرها من حاصلات البلاد المصرية فنمت نموًا عظيمًا في مدة قليلة وبلغت الدرجة القصوى من السعادة بسبب موقعها الجغرافي وعلائقها التجارية مع أوروبا والشام وجزيرة العرب والهند فكانت تعد من أعظم بلاد الدنيا لغنى أهلها وكثرتهم إذ قد بلغوا في أيام بهجتها أكثر من تسعمائة ألف نفس أكثرهم من الأقباط.

ولما فتح إسكندر المقدوني اليوناني مصر ونزعها من يد الفرس وأجلاهم عنها كانت العاصمة هي مدينة منف التي أسسها مينا أول ملوك الفراعنة بجهة الجيزة فلما أُنشئت مدينة الإسكندرية إتخذها الملوك البطالسة اليونانيون مقرًا لهم وجعلوها تحت المملكة المصرية وتغالوا في تحسينها وتزيينها فأصبحت غاية في البهجة والرونق ومن ثم تدرجت مدينة منف في أدوار الإنحطاط حتى أنه لم يبق الآن إلا إسمها .

والذي زاد أهمية الإسكندرية أنها كانت محط رجال العلم والعلماء فإشتهر علماؤها وذاع صيتهم في كل أقطار الدنيا

وكانت بها مكتبة تشتمل على سبعمائة ألف مجلد معظمها عن علوم المصريين القدماء وكان لعلمائها أروقة مختصة بهم يجتمعون فيها ويتناظرون ويتناقشون في الفنون العقلية السامية حتى أنه كان يقصدها الكثير من الجهات ليتلقوا العلوم في مدارسها .

ولما مات الإسكندر الأكبر إقتسم قواد جيوشه البلاد التي إفتتحها في حياته فوقعت مصر في يد أحد هؤلاء القواد المسمى بطليموس سوتير وهو أول العائلة المعروفة في التاريخ بالعائلة البطليموسية أو عائلة البطالسة وثاني ملوك الدولة اليونانية بعد إسكندر الأكبر الفاتح . وبقيت مصر في يد هذه العائلة مدة مائتين وثلاث وتسعين سنة لم ير المصريون الأقباط من عهد إنقراض ملوك الفراعنة الوطنيين مدة أهنأ منها عيشاً وأنعم بالاً بالنسبة لمعاملة معظم ملوكها لهم بالرفق والقسط بدون أن يتعرضوا لهم في شيء من عوائدهم أو عباداتهم بل أطلقوا لهم عنان الحرية وتدينوا بدياناتهم وعبدوا معبوداتهم وحكموا بينهم بالإنصاف والمساواة وأصلحوا مادمرته أيدي الفرس من الهياكل والمعابد التى أفرغ المصريون جهدهم في إقامتها وبذلوا في ترتيبها وتزيينها النفس والنفيس فزينوا ضفاف النيل بما شاق وراق من المباني

الباسقة والقصور الشاهقة حتى أصبحت مصر في عهدهم جنّةً ورياضاً . وبالجملة فإن اليونانيين عاشوا مع القبط مدة طويلة على أحسن حال بدون أن يحصل من أي من الفريقين ما يكدر خاطر الآخر بل إختلطوا ببعض إختلاطاً تامًا فكانوا كأمة واحدة وكذلك الأقباط مع شدة حرصهم ومحافظتهم على كل قديم إستعملوا الخط اليوناني ونقلوا إلى أبجديتهم جملة حروف يونانية لما وجدوا فيها من السهولة بدل الخط الهيروغليفي الذي صار من ثم خاصًا بالكهنة لا يستعمل إلا في الكتابات الدينية لا سيما في النقوش على جدران الهياكل والبرابي وأدخلوا أيضاً بغير إجبار ولا إكراه كلمات كثيرة يونانية إلى لغتهم القبطية حتى كادت تكون اللغتان واحدة .

وفي سنة ٣٠ قبل الميلاد هجم أغسطس قيصر الرومانيين على مصر ونزعها من يد الملكة كليوباترا آخر العائلة البطليموسية وهي المشهورة في التاريخ بالجمال والدهاء ولما لم تقو على مقاومته ولم تنجح في إنعطاف قلبه إليها لجمالها أو يغتر بمكرها ودهائها عمدت إلى قتل نفسها فأخذت أفعى ووضعتها بين ثدييها فلدغتها وماتت وبموتها إنقرضت الدولة اليونانية .

ومن محاسن الدولة اليونانية أن عدد سكان مصر زاد في أيام ملوكها زيادة تذكر وما هذا إلا نتيجة عدل الحكومة وإهتمامها براحة الرعايا . وقد جاء في بعض التواريخ أنه لما إستولى عليها أغسطس قيصر كان بها من اليهود نحو مليون وكان لهم هيكل يحاكي في العظمة والرونق هيكل أورشليم بناه وشيده أونياس إبن رئيس كهنة اليهود الذي إلتجأ إلى مصر في أيام بطليموس فيلوميتور وأذن له ببنائه فبناه في جهة عين شمس (المطرية) وسماه بهيكل أونيون وبجدهم وكدهم وإقتصادهم المعروف إستغنوا فصار يُضرب بهم المثل في الغنى والثروة وإشتغلوا بطلب العلم فنبغ منهم علماء أفاضل خلدوا لهم ذكرًا حسنًا في بطون التواريخ جيلا بعد جيل فحسدهم على ذلك القبط واليونان وجرت بينهم وقائع عظيمة في أيام الدولة الرومانية سُفك فيها دماء كثيرين . أما في أيام الدولة اليونانية فلم يُصبهم ما يكدر صفاءهم لأن ملوكها لم يميزوا بين الوطني والأجنبي بل كان الكل بمساواة واحدة ولذا وصلت في أيامهم إلى أرقى درجات الكمال في العلوم وتوفرت فيها أسباب المعيشة فقصدها الناس من كل جهة ورحلوا إليها من كل وادٍ للإرتزاق فلم تضق بهم ذرعًا .

ومن إشتهر في ذلك الزمن بالعلم وذاع صيته في كل الآفاق الفيلسوف العلامة (فيلو) اليهودى الإسكندري فكان له شهرة عظيمة في العلوم العقلية والنقلية وعُدَّ من أعظم علماء الإسكندرية فضلا عما كان عليه من الغنى والثروة. وقد تمتع المصريون في هذه المدة بحريتهم الدينية بعد أن كانوا قد فقدوها في مدة حكم الفرس وإرتاحت أفئدتهم من قبلها ولذلك كانت معيشتهم في هذه الفترة هنيئة وكان الملوك لايفتُرون عن النظر في مصالح الأمة والبحث عن الوسائل التي تزيد في رفاهيتها.

وما يدل على ذلك أن أحد ملوك البطالسة المدعو (بطليموس فيلادلف) قد أمر بترجمة التوراة من العبرانية وقد تم ذلك وتعرف الآن بالترجمة السبعينية وهي أقدم التراجم ترجمها إلى اليونانية إثنان وسبعون عالما من علماء الإسرائيليين.

الأقباط تحت حكم الرومانيين

وبانقضاء مدة الدولة اليونانية أو بالأحرى العائلة البطليموسية التي أشرنا إليها قبلاً أي في سنة ٣٠ قبل الميلاد دخلت مصر في حكم الرومان وبعد أن كانت مملكة مستقلة أصبحت إيالة تابعه للمملكة الرومانية. أما سكان مصر في ذاك الزمن فكانوا يتألفون من ثلاثة عناصر مختلفة الأول الأقباط وهم العنصر الأصلي وأهل البلاد وذووها والثاني اليونانيون والثالث اليهود وهذان الأخيران أقل عددًا من الأول بكثير. ولما تم لأوغسطس قيصر الإستيلاء على البلاد ولّى عليها واليًا من قبله وأمره أن يحكم بمقتضى شرائع وقوانين الدولة المتغلبه فكان هذا موجبًا لنفور الأقباط لعدم ملائمه هذه الشرائع للبلاد وأهلها والذي زادهم نفورًا أن الرومانيين خصّوا اليونان واليهود بإمتيازات فكان منهم قضاة ولهم محاكم مخصوصة أشبه بالمحاكم المختلطة في زماننا هذا يتقاضون ويحاكمون فيها بمقتضى قوانين مخصوصة ولذا كانوا في نوع من الحرية والإستقلال بخلاف الوطنيين الذين عملت الحكومة الرومانية على هضم جانبهم فكانت الأحكام

تُجرى عليهم كيف شاء الوالى وأراد بغير معارضة ولا محاجة على أن هذه الإمتيازات لم تكن بكافية لمصالحة أفكار اليونانيين ورضائهم عن الحكومة الرومانية الجديدة لأمرين أحدهما تحقيرهم الرومانيين وإعتبارهم أنهم دونهم في المنزلة وثانيهما مساواتهم بأمة مهضومة الجانب مثل اليهود ولذا لم يجعلوا الحكومة في راحة بال بمعاكستهم اليهود تارة ومجاهرتهم بالعصيان تارة أخرى طمعًا في الإستقلال وإلقاء نير الحكومة الرومانية عن عاتقهم. أما الأقباط الذين ألفوا الحكومة اليونانية وإرتاحوا لها لم يرضوا بالرضوخ لغيرها طوعًا فإتفقوا مع اليونان وحاربوهم على مقاومة الرومانيين الذين لم يحسنوا معاملتهم وأساءوا التصرف معهم ومع ذلك فقد ظلت مصر تابعه للدولة الرومانية إلى سنة ٦٤٠ بعد الميلاد عبارة عن ستمائة وسبعين سنة ولم يحدث في كل هذه المدة الطويلة ما يستحق الذكر سوى ظهور الديانة المسيحية في أثنائها ودخولها مصر في منتصف القرن الأول للميلاد على يد البار مارمرقس الإنجيلى ودخول الناس أفواجًا فيها نظرًا للإستعداد الذي عند المصريين لقبول الديانة الحقيقية إذ كان علماؤها يعرفون الله ويخفون الدين الحقيقي عن عامة الناس وما

لاقاه نصراؤها من الإضطهادات والشدائد ولاسيما الإضطهاد الذي أثاره دقلديانوس قيصر رومية ضد المسيحيين عمومًا والمصريين خصوصًا أقباطًا كانوا أو رومانيين حينما جاء إلى مصر. وسبب مجيء هذا الملك العاتي إليها هو أن أخيلاوس الذي كان واليًا عليها من قبل الحكومة الرومانية سولت له نفسه الأمارة بالسوء أن يخل بالنظام ويستقل بالأحكام طمعًا في أن يكون ملكًا مستقلاً كما كان ملوك العائلة البطليموسية فشق عصا الطاعة وجاهر بالعصيان والإستقلال وإنحاز إليه الأقباط نظرًا لسوء معاملة الرومان لهم فلم ير دقلديانوس بُدًا من الإسراع بالحضور إلى مصر ليقتص منه على هذه المخالفة والجراءة ويستخلص البلاد من يده ويعيدها إلى ما كانت عليه من الطاعة لحكومة رومية ولدى وصوله حاصر الإسكندرية وبعد ثمانية أشهر فتحها عنوة وإستولى عليها وحرق المدينة وفتك بأهلها فتكًا ذريعًا وإقتفي أثر أخيلاوس العاصي الذي هرب إلى داخل البلاد فكان أينما حل (دقلديانوس) يوقع بالنصارى ويقتلهم ويهدم كنائسهم ويخرب معابدهم ويعذب رؤساءهم ويسبي نساءهم وأولادهم. ولما رآه الأقباط من آيات الظلم وقساوة

الإضطهادات التي كان يتفنن فيها المضطهدون أرَّخوا باوَّل مُلك هذا الإمبراطور العاتي ليكون تذكارًا لأولادهم يعرفون منه أنهم لم يشتروا حريتهم الدينية إلا بدم زكي ثمين وممن قتل في هذا الإضطهاد البابا بطرس بطريرك الإسكندرية الذي دعي خاتم الشهداء وقيل كان له إمرأة وإبنتان قتُلن معه ويبتدىء تاريخ دقلديانوس وهو المعروف بتاريخ الشهداء المعول عليه عند الأمة القبطية للآن في سنة ٢٨٤م.

ولم يرتفع الإضطهاد عن المسيحيين بعد دقلديانوس بل إستمر ثائرًا في كل أنحاء المملكة الرومانية حتى تولى القيصر ثيؤدوسيوس وإذ كان هذا قد إعتنق الدين المسيحي أصدر أمرًا ملوكيًا بالنهي عن عبادة الأصنام فنودي بالدين المسيحي في مصر وإحتفل النصارى بأداء طقوسه علنًا وبادروا بهدم هياكل الأصنام ومن ثم عم الدين المسيحي كل القطر بعد أن قاسى المسيحيون بسببه ما قاسوه من الأحوال وتحملوا إضطهادات تشيب لهولها الأطفال.

وإستراح المسيحيون عمومًا والأقباط خصوصًا من هذه الإضطهادات بسبب هذا التغيير العظيم غير أن الزمان لم يساعدهم

على الإستمرار فيها والأيام لم تسالمهم ذلك شأن الدنيا إن أقبلت بلت وإن أبسطت سطت وإن أبهجت هجت و إن أركبت ركبت .

إذا تم أمر بدا نقصه   إذاً قيل تم

فلم تدم هذه الراحة والسعادة إلا قليلا حتى ظهر بين المسيحيين أنفسهم ما أدى إلى النفور والبغضاء والإيقاع ببعضهم البعض وذلك أن بعض أئمة الدين داخلهم الطمع في الإستقلال بالرئاسة فكثر ظهور البدع والشيع بين النصارى فإنقسموا على ذاتهم وإنشقوا إلى فئات متعددة كل فئة تلعن الأخرى وتحرمها وتزيف معتقدها ومذهبها .

كل يؤيد دينه   ياليت شعري ما الصحيح

وإنتهى هذا الجدال والشقاق في مصر بوجود حزبين مضادين لبعضهما وهما القبط والروم والفرق بينهما أن القبط يعتقدون أن في المسيح طبيعة من طبيعتين ومشيئة من مشيئتين والروم يقولون أن في المسيح طبيعتين ومشيئتين[١] متحدين ولست أدري ما الفرق بين القولين غير العناد[٢] وإن يكن الفرق في الألفاظ دون الجوهر إلا أن كلاً من الحزبين لايود التنازل عن رأيه وهذا من

---

[١]هذا هو رأى الكاتب . أما عقيدتنا الأرثوذكسية القويمة أن للمسيح إلهنا طبيعة واحدة هي طبيعة الكلمة المتجسد (Incarnated Logos) ، وكذا مشيئة واحدة .

[٢]الفرق بين القولين فرق لاهوتي ولم يكن مجرد عناد كما يقول الكاتب . ونشكر الله أنه تم الإتفاق حاليًا بين اللاهوتيين الأقباط والروم حول طبيعة المسيح في دير الأنبا بيشوي عام ١٩٩٠م .

الغرابة بمكان . ومما زاد الحال أوحالاً تداخل ولاة الأمور والحكام في هذه المناقشات والمنازعات في مواضيع ليست من جوهريات الدين ولايتوقف عليها ولكن أبت محبة الرئاسة والجنوح إلى الإفراد بالسلطة والسيادة ألا يقوى الشقاق ويزداد النفور وتدب في عروق الفريقين دماء الشحناء والبغضاء مما أدى بهم ولاسيما الأقباط إلى الإضمحلال والدمار[1] . ومن الغريب أن الأئمة الذين من واجبهم حث الناس على المواخاة والموالاة هم الذين كانوا يوغرون صدور الملوك ويحرضون الحكام على إيقاع الأذى والتنكيل بالفريق الآخر المخالف لرأيهم حتى جاء في بعض التواريخ أنه قتل في يوم واحد من الأقباط بمدينة الإسكندرية مائتا ألف نفس وإن كان هذا لايخلو من المبالغة في القول والمغالاة في النقل إلا أنه يدل على شدة إضطرام نار الفتنة والضغينة بين القبط والروم وربما كان هذا عدد جميع الذين قتلوا من الأقباط في كل أنحاء مصر بسبب ما كان بينهم وبين الروم من الخلاف وهو عدد ليس بقليل . كل هذا وزعماء الدين واقفون موقف المتفرج المتشفي معتقدون أنهم خدموا الدين خدمة يمدحون أو يثابون عليها وما دروا أنهم خلدوا لأنفسهم في التاريخ ذكرًا رديئًا

---

[1] لعل الكاتب يقصد ما عاناه الأقباط من إضطهاد الروم بسبب الخلاف حول طبيعة المسيح (خاصة أن هذا الخلاف نشأ خلال فترة حكم الرومان لمصر) . إلا أن الأمر لم يصل إلى ما ذكره الكاتب أنه إضمحلال ودمار ، بل مجرد إضطهاد .

مقرونًا بعار لاتمحوه مرور الأيام والدهور فكم من نساء ترملت وأطفال تيتمت وأموال سُلبت ومعالم دُرست بسبب مطامعهم فلا حول ولا قوة.

وفي غضون هذه المشاحنات والإنقسامات الدينية قضت الأحوال السياسية بتقسيم المملكة الرومانية إلى مملكتين شرقية وعاصمتها القسطنطينية وغربية وقاعدتها رومية. أما مصر فكانت تابعة للمملكة الشرقية ولكن لم يغير هذا التقسيم في حالتها شيئًا بل ما زاد في الطنبور نغمةً أن ملوك القسطنطينية كانوا يحاولون توحيد العقائد وإزالة الخلاف بإلزام جميع الرعايا التابعين لهم بالتمسك بمذهب واحد وهو مذهب الروم أو بالحري التمسك بمذهب القوة الحاكمة ولذا كان الروم يسمون ملكيين ولكن لم يجد هذا نفعًا ولا فائدة بل كان سببًا للنفور منهم أكثر فأكثر ليس في مصر فقط بل وفي غيرها من الولايات التابعه للمملكة الشرقية المذكورة. ولهذا السبب كثرت القلاقل والفتن في داخلية البلاد وصغرت الحكومة الرومانية في عيون المصريين فإستعمل الحكام والولاة العسف والقوة في تنفيذ أوامرهم وأغراضهم فكان هذا داعيًا إلى إنقلاب الأهالى على الحكام

وتعديهم عليهم وإخراجهم من بلادهم .

ومما حدث أن حاكم قسم سمنود (وبالقبطية ϪⲈⲘⲚⲞⲨ) ألقى القبض على رجلين قبطيين من ذوي الوجاهة والإعتبار أحداهما يسمى قسمًا بن صموئيل والآخر بانون بن آموني ربما لحاجة في النفس وزجهما في السجن وكان في بلد هذين الرجلين ثلاثة أخوة يسمى أخداهم أبسخيرون والثاني مينا والثالث ياكوبوس (أي يعقوب) فتوسطوا لدى الحاكم أن يطلقها فلم يرد وقابلهم بالوقاحة والتهديد فخرجوا من عنده على نية إضمار الشر له وأخذوا يحرضون الناس ويثيرون خواطرهم على الحكومة لسوء معاملتها لهم فإنضم إليهم عدد عظيم من الأهالي وساروا بمن إلتف حولهم إلى المدينة التي يسكنها الحاكم الذي لما رأى كثرتهم وقلة عدد الجنود الذين معه هرب ملتجئًا إلى القسطنطينية ناسبًا كل هذا الإضطراب إلى تهاون يوحنا حاكم الإسكندرية ونائب الحكومة الرومانية بمصر فغضب الملك وأمر بعزل يوحنا وتعيين آخر مكانة يسمى بولس .

أما الثائرون فإستفحل أمرهم وكثر عدد المنضمين إليهم وكان بالقرب من سمنود مدينتان عظيمتان يسكنهما كثير من

الروم أهل اليسار تسمى إحداهما بانا (وبالقبطية ⲡⲁⲛⲁⲩ)والثانية بوصير (وبالقبطية Ⲃⲟⲩⲥⲓⲣⲓ) فهجموا عليهما ونهبوهما وقتلوا كثيرًا من سكانهما وهكذا أخذوا يستولون على البلاد حتى سادوا على معظم الوجه البحري ومنعوا الناس من دفع الأموال للحكومة وإستولوا عليها لأنفسهم ومنعوا أيضًا الغلال عن الإسكندرية وحجزوا المراكب التي كانت تقصدها ووضعوا اليد على مافيها فتعطلت الأشغال وإشتد الجوع بها فرحل عنها كثير من سكانها . وكان لأحد رؤساء الثائرين الثلاثة المتقدم ذكرهم ولد يسمى إيساك (إسحق) أدته جسارته وما رآه من الفوز بمعاكسة الرومانيين بحرًا فأعد أسطولاً وسار به في بحر الروم يناوش سفن الدولة ويقاتل من بها حتى لايتمكنوا من الوصول إلى الإسكندرية وهكذا منعت المسير وإنقطع المدد عن هذه المدينة من كل جهة . فلما وصل الخبر إلى مسامع الملك بالقسطنطينية جزع له جزعًا شديدًا خوفًا من إمتداد الثورة إلى كل أنحاء البلاد المصرية فتنتهي بخروجها من يده فعمد إلى التظاهر بتغيير خطته وإتباع سياسة الرفق والملاطفة فبعث بطريرك القسطنطينية لينوب عنه في إظهار ممنونيته من الأمة المصرية وإستعداده لإجابة ملتمسها إلى ما يكون فيه خير

بلادها وراحتها والعفو عن الثائرين لو ألقوا السلاح ولزموا الهدوء والسكينة .

وكان هذا البطريرك معروفًا عند الأمة المصرية ومحبوبًا منها لأنه كان أنطاكيًا أي ليس من رومية ولا من القسطنطينية فلما وصل إلى مصر إجتمع برؤساء الثائرين وبلغ إليهم رسالة الملك فأعلموه بأنهم لايزالون خاضعين لملكهم ما دام أنه يكون عاملاً على راحتهم وأنه لايسعهم في هذا المقام سوى تقديم الشكر له على ميله إلى العفو عنهم . أما طلباتهم فأهمها لا بل كلها تنحصر في أمر واحد وهو إعادة يوحنا حاكم الإسكندرية الذي عزله إلى مركزه الأصلي وأنهم لايقبلون حاكمًا غيره قائلين (أنه عدو للظلم ولايعاملنا إلا كما نريد أن نُعامل) فلما علم الملك بالأمر لم يرى بدًا من إجابة طلبهم وأعاد إليهم يوحنا إلا أنه أرسل معه رجلاً آخر يسمى ثيؤدور ليكون قائدًا للعساكر الرومانية وزوده بتعليمات سرية تقضي بأن يقتفي أثر رؤساء الثائرين ولا يدع أحدًا منهم يفلت من يده .

فلما وصل ثيؤدور إلى الإسكندرية وعلم بأن من ضمن أسباب الثورة سجن ذلك الرجلين وهما قسما ويانون أخرجهما

من السجن وذهب بهما مع عساكره إلى حيث كان الثائرون مجتمعين ونزل في مقابلتهم بالبر الآخر من النيل وأنزل الرجلين في مركب وسط النهر وطلب منهما إما بالتهديد وإما بالتحايل أن ينا ديا على إخوانهم وينصحاهم بالعودة إلى بلادهم ويبالغا في ما لدى الحكومة من القوة والمدد الذي وصل لها أخيرًا وأنه ليس في إمكانهم مقاومتها . والأولى بهم أن يكفوا عن معاداتها حقنًا لدمائهم ودماء أولادهم ونسائهم وإذا كان سجنهما ساءهما فهما كما يروا مطلوقي السراح ولكنهما محجوزين كرهينة عند الحكومة حتى يعودوا إلى بلادهم . فأثر كلامهم في أفكار الكثير منهم وإنصرفوا عائدين إلى أوطانهم ولما لم يبق مع الثلاثة أخوة الأعدد قليل من الرجال داهمهم ثيؤدور برجاله وقاتلهم حتى إنهزموا وقبل أن يتمكن الثلاثة أخوة من الفرار قبض عليهم وعلى إسحق ولد أحدهم وذهب بهم إلى الإسكندرية وأركبهم على جمال وطاف بهم في شوارع المدينة وكان يريد قتلهم لولا أن يوحنا الحاكم تصدى له ومنعه من ذلك وبقوا مسجونين إلى أن أُبدل يوحنا بغيره فقتلهم بأمر الملك خلافًا لعهده فأوجب هذا عدم ثقة المصريين بملوك القسطنطينية .

وأعقب هذه الثورة ثورات أخرى في خربتا وصان وبسطة وسنهور وإخميم وغيرها إنتهت جميعها بمذابح وحشية من الوطنيين .

فمن جراء هذه المنازعات التي دامت زمنًا طويلاً وأهرقت بسببها دماء ألوف ومئات من الأبرياء وغير ذلك من نتائج سوء تدبير الملوك والولاة أصبحت المملكة الرومانية الشرقية في تقهقر وإنحطاط فإنتهزت بعض الممالك المعادية لها هذه فرصة مناسبة لتجريدها من أعظم وأهم ولاتها ففاجأها ملك الفرس بالحرب وإستولى على سوريا ومصر وغيرهما . وبقيت مصر في يد الفرس نحو عشر سنوات ساموا فيها المصريين الخسف والعذاب أشكالاً وإستمروا على ذلك إلى أن قام هرقل ملك الروم وقاتلهم وهزمهم وإسترجع البلاد من يدهم ولكن لم ينل أقباط مصر مع الأسف من هذا التغيير خيرًا بخلاف ماكانوا يتوقعونه من أن الحوادث علمته والتجارب ربته بل كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار فإن هرقل بعد ماخلص البلاد من يد الفرس حول نظره إلى تنفيذ الغرض الأصلي الذي كان يسعى وراءه الملوك سلفاؤه وهو توحيد العقيدة النصرانية وجعلها واحدة في كل المملكة ولما لم

يجد منهم إلا الرفض والإباء إلتجأ في تنفيذ غرضه هذا إلى القوة والشدة وحد السيف فقتل كثيرًا من السوريين والمصريين وإستباح دماءهم وسلب أموالهم وعزل البابا بنيامين بطريرك الأقباط وعين بدله ممن على مذهبه ثم طلبه (بنيامين) ليقتله فهرب وإختفي من وجهه في دير صغير بالصعيد وبقي مختفيًا فيه إلى مجيء العرب وإستيلائهم على مصر . ولما لم يعثر عليه قبض على أخيه المدعو مينا وألقاه في اليم لأنه أصر على عدم الإرشاد إلى محل أخيه وأنكر معرفة محل وجوده . ومن الغريب أن الذي كان شديد الإهتمام بالبحث عن بنيامين هو البطريرك الذي عينه الملك مكانه فلما يئس من وجوده قبض على أخيه وسلمه إلى الملك فقتله شر قتلة إنتقامًا منه على إصراره .

ومن جراء هذه الإضطهادات والقلاقل والفتن الداخلية المسببة عن إنقياد ولاة الأمور لأئمة الدين إنقيادًا أعمى وإذعانهم لمشوراتهم الفاسدة وإنصياعهم لتمويهاتهم التي كانوا يتخذونها ذريعة للتوصل إلى أغراضهم الذاتية وكذلك سوء سياسة وتدبير الملوك بإهتمامهم بجعل جميع الرعايا على دين ومذهب واحد

وإشتغالهم بالأخذ بناصر الرؤساء الذين كانوا على شاكلتهم ومعتقدهم والإنتقام للواحد من الآخر بسفك دماء محازبيه بغير تبصر في عواقب الأمور وما ينجم عن ذلك من الخراب والدمار أصبحت المملكة الرومانية الشرقية في إنحطاط زائد وأصيبت بداء عضال تعذر البرء منه وهذه عاقبة كل مملكة تكثر فيها التعصبات الدينية والإختلافات المذهبية.

ولم يقتصر الملك هرقل فقط على إضطهاد النصارى الذين كانوا على غير مذهبه ومعتقده بل إشتد على اليهود أيضًا وذلك لأنه لما إنتصر الفرس أغراه بعض أئمة النصارى على الإيقاع بهم بعلة أنهم كانوا يعاونون ويحرضون الفرس على قتل المسيحيين وأنهم كانوا يشترون منهم الأسرى النصارى بمبالغ طائلة ويقتلونهم فإحتدم عليهم الملك غيظًا وأباح للنصارى قتلهم وسلب أموالهم وسبي نسائهم فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا ولاسيما في مدينة القدس فكانت كل هذه الأحوال سببًا في نفور الناس ولاسيما أقباط مصر من الروم وجورهم خصوصًا وأن الملك الذي كان قبل هرقل أنفذ أمرًا إلى نائبه بمصر بطرد جميع الأقباط من خدمة الحكومة ودواوينها وعدم قبول أحد منهم في مصالحها قصدًا

منه في إذلالهم فكان ذلك من أقوى البواعث على قنوط الأقباط وإعتزالهم الروم بالكلية وقطع كل العلاقات معهم فتأصلت الكراهية بينهم بعد أن عاشوا معًا زمانًا طويلاً على أحسن حال قبل وجود هذه الإنشقاقات والإنقسامات المذهبية والإختلافات الدينية مع أن الفرق واه جدًا لايوجب كل هذه المصائب والرزايا التي حلت بالبلاد وأهلها وتسبب عنها دمار المملكة الرومانية الشرقية بأسرها . وكان كل ما إشتّد الضيق بالأقباط يزدادون تمسكًا برأيهم والطمع في نوال الإستقلال الديني الذي إشتروه بسفك دماء الألوف المؤلفة منهم .

وبينما كان الملك هرقل مهتمًا بتأييد مذهبه وإضطهاد مخالفيه في سوريا ومصر متشاغلاً بذلك عن إجراء ما فيه حفظ البلاد وصونها وراحة العباد وتنظيم أحوال مملكته ولم شعثها ظهرت الدولة العربية الإسلامية في شبه جزيرة العرب في أوائل الجيل السابع للميلاد وكان ظهورها قاضيًا على مملكة الروم الشرقية بالوبل والخراب لأن الإختلال كان ضاربًا أطنابه في كل أنحائها آخذًا منها كل ما أخذ للأسباب التي ذكرناها ولما قصد العرب فتح سوريا وغيرها من البلاد التابعة لها لم يلاقوا صعوبات

كثيرة بسبب ما كان مستوليًا عليها من الفشل والإنقسام وميل الأهالي إلى من يحكمهم غير الروم مهما كانت عقيدتهم ودياناتهم .
ولما رأى هرقل ماكان من إستيلاء العرب على سوريا خاف على مصر التي لم يبق له في الشرق سواها لئلا يلحقها ما لحق غيرها وأراد أن يستبقيها له وإذ لم يكن في إستطاعته ذلك بالقوة بادر بعقد معاهدة مع الخليفة عمر بن الخطاب مؤداها أن هرقل يدفع إلى خزينة المسلمين جزية سنوية معلومة نظير تغاضيهم عن فتح مصر ولكنه لم يقم بدفع الكمية المتفق عليها ولذلك إعتبر الخليفة هذه المعاهدة لاغية لاعمل لها .

وكان بين قواد جنود العرب رجل يسمى عمرو بن العاص إشتهر بالشجاعة والبسالة وإصابة الرأي وحسن التدبير وجاء في بعض الروايات أنه كان قبل الإسلام يتعاطى التجارة فجاء إلى مصر غير مرة ورأى بالعيان ماكانت عليه البلاد من سوء الحال وميل الأقباط للتخلص من نير الروم الثقيل فأشار على الخليفة بفتح مصر . وذكر أيضًا أن محمدًا صاحب الشريعة الإسلامية أرسل في السنة السادسة للهجرة كتابًا إلى المقوقس

الذي كان واليًا على مصر من قبل الملك هرقل يدعوه فيه إلى الإسلام فأكرم المقوقس رسله وأرسل معهم هدية من ضمنها جارية قبطية تسمى مارية إتخذها سرية فرزق منها بولد سماه إبراهيم ولكنه لم يعش ولم ترزق منه بغيره وقد إستنتج بعضهم أن من ذاك الحين كان بين المقوقس وزعماء العرب صلات وعلاقات سرية . ومقوقس على ما رواه بعضهم كلمة يونانية معناها (حاكم) والعرب يسمونه (عظيم القبط) أما إسمه فكان چورچ بن مينا وهو يوناني الأصل إلا أنه كان يميل للقبط ويرثي لحالهم وبعضهم ينسب للمقوقس مقاصد سياسية والله أعلم بما في القلوب .

وإتخذ عمرو بن العاص إلغاء عمر بن الخطاب المعاهدة التي كان أبرمها مع هرقل سببًا مناسبًا للإلحاح عليه بفتح مصر وسهل له ذلك بقوله أن أهلها أعجز الناس عن القتال وأن في فتحها عونًا عظيمًا للمسلمين فهي أكثر الأرض أموالاً وأجزلها خيرًا ومازال يهون عليه أمر فتحها حتى أجاب طلبه فأنفذه إليها في أربعة آلاف فارس من نخبة الجند وأبطالهم وكان عدد جنود عمرو يتزايد كل يوم بإنضمام القبائل البدوية التي كان يلتقي بها في طريقه .

وصار عمرو يخترق الهضاب والبطاح ويجوب الفيافي والبلاد

حتى وصل إلى حدود مصر فدخل مدينة العريش وذلك في سنة ٦٣٩ للميلاد أي سنة ١٨ للهجرة ومنها وصل إلى بلبيس[١] وفتحها بعد قتال طال أمده نحو شهر ولما إستولى عليها وجد بها أرمانوسة بنت المقوقس فلم يمسسها بأذى ولم يتعرض لها بشر بل أرسلها إلى أبيها في مدينة منف مكرمة الجانب معززة الخاطر فعد المقوقس هذه الفعلة جميلاً ومكرمة من عمرو وحسبها منه له.

وصار عمرو يتقدم إلى داخل البلد حتى وصل إلى بابلون[٢] بالجهة المعروفة الآن بمصر القديمة وكانت بها قلعة عظيمة جدًا وحصن منيع.

فلما وصل عمرو إلى بابلون وجد الحصن عاصًا بأعظم أبطال الروم وأجنادهم فنزل أمامه بعسكره وحاصره وضيّق على من فيه وإستمر محاصرًا له مدة سبعة أشهر مواليًا الهجوم من وقت إلى آخر والمقوقس يتظاهر بمقاومة جنود العرب وصد هجماتهم فلم يشك أحد من رؤساء جنود الروم في إخلاصه

---

[١] ⲪⲀⲖⲂⲒⲤ كانت مدينة عظيمة ورأس قسم ولكن أحنى عليها الزمان فنابها ما ناب غيرها حتى خربت بالمرة بعد سنة ٨٠٦ هـ على يد دولة المماليك.

[٢] ⲂⲀⲂⲎⲖⲰⲚ ⲚⲬⲎⲘⲒ أي بابل مصر.

لدولته. ولما طال الحصار وأبطأ الفتح طلب عمرو من الخليفة أن يمده بالرجال فأنفذ إليه أربعة آلاف مقاتل وقيل إثنى عشر ألفًا فتقوى بهم وشدد الحصار وجعل يتخابر مع الروم في أمر التسليم بالتي هي أحسن فأبوا كل الإباء غير أن المقوقس كان يميل إلى ذلك تخلصًا من الروم إلا أنه لم يستطع أن يكشف عن غامض رغبته ويجاهر بمكنون سريرته لأن رجاله ولاسيما الروم منهم لم يكونوا كلهم من حزبه ولما رأى تشديد الحصار وتجلد العرب على القتال عمد هو ومن معه من الذين كان يعتمد عليهم ويركن إليهم إلى الإنسحاب من الحصن فإنسحب منه وعبر نهر النيل وذهب إلى الجزيرة المعروفة الآن بالروضة وتحصن فيها وحصن مدينة منف أيضًا وترك الحصن في يد نفر قليل وكانت قيادة الجند موكولة لعهدة رجل من الروم يسمى الأعرج وهذا لما رأى أن المقوقس قد إنسحب من الحصن تبعه برجاله وبقي الحصن في عهدة عدد قليل من القبط لم يقووا على مقاومة العرب فعمدوا إلى الهرب قاصدين منف وكان بين الحصن ومنف جسران مصنوعان من مراكب مصطفة بعضها بجانب بعض ومن فوقها أخشاب ممتدة على عرض ثلاث قصبات وكان أحد

هذين الجسرين يوصل من الحصن إلى الجزيرة والثاني من الجزيرة إلى منف بالبر الغربي . فلما هرب القبط إلى الجزيرة إقتفي أثرهم العرب فتركوها وساروا إلى منف ورفعوا الجسرين فبقيت العرب بالجزيرة محاطون بالماء من كل الجهات . أما المقوقس فأمسك عن قتال العرب ومطاردتهم وبادر بإرسال كتاب إلى أميرهم عمرو بن العاص ظاهره التهديد بأنهم أصبحوا أسرى في أيد الروم محصورين بين ماء النيل من كل الجهات وأن الأولى به أن يرسل إليهم رجالاً من جماعته ليتداولوا في الأمر عسى أن يتمكنوا من الإتفاق على شيء يوافق الطرفين وينقطع عنهم القتال قبل أن تغشاهم جموع الروم . فكتب عمرو إلى المقوقس بأن ليس له ولجماعته مآرب سوى أمر من ثلاثة : (الجزية أو الإسلام أو إستمرار القتال حتى يقضي الله بما يريد) .

فلما وصل الخبر إلى المقوقس جمع رجال حكومته وما زال بهم حتى تغلب على فكرهم فوافقوه على طلب الصلح على شروط تقرر برضى وإتفاق الفريقين فكتب المقوقس إلى عمرو بأن يرسل إليه رسلاً من عنده ليتداول معهم فيما عساه أن يكون

فيه صلاح له ولهم فبعث إليه بعشرة رجال أحدهم يسمى عبادة بن الصامت وأوصى أن يكون هو المتكلم عن القوم وألا يجيب المقوقس وجماعته إلى شيء إلا إحدى الثلاث خصال التي ذكرناها قبلاً . وكان عبادة هذا هائل المنظر أسود اللون طويل القامة . فلما وصلوا إلى منف ودخلوا على المقوقس تقدم عبادة إليه ليكلمه فلم يعبأ به وطلب أن يتقدم غير هذا الأسود فلم يرضوا قائلين بأنه أفضلهم وإن يكن أسود فإنهم مصرون على أن يكون هو المتكلم عنهم دون سواه فلم ير المقوقس بُدًّا من إجابة طلبهم وسمح لعبادة بالكلام وبعد مداولات طويلة ومحاجات كثيرة لم يتحول فيها عبادة عن أحد الثلاثة أمور كما أوصاه سيده إلتفت المقوقس إلى أصحابه الحاضرين معهم وكلمهم قائلاً (أطيعونى وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث فوالله مالكم بهم طاقة ولئن لم نجبهم إليها طائعين لنجيبنهم إلى ماهو أعظم كارهين) . فقالوا وأية خصلة نجيبهم إليها قال (أما دخلوكم في غير دينكم فلا يسلم أحدكم به وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تصبروا صبرهم ولابد من الثالثة (قالوا سنكون لهم عبيدًا) قال (نعم تكونون عبيدًا مسلطين في بلادكم آمنين

على أنفسكم وأموالكم وذراريكم فأطيعوني من قبل أن تندموا) ومازال يحاجهم ويناقشهم ويقنعهم حتى أذعنوا للجزية ورضوا بها على صلح يكون بينهم يعرفونه وحينئذ قال المقوقس لعبادة إذهب الآن أنت وأصحابك وأعلِم أميرك بأني مجيب له إلى واحدة من الخصال الثلاث التي أرسل إلى بها فليضرب موعدًا لأجتمع أنا به في نفر من أصحابي وهو في نفر من أصحابه ليستقيم الأمر بيننا وإلا عدنا إلى ماكنا عليه . ولما إجتمعا تقرر الصلح بينهما بوثيقة أن يعطي الأمان للأقباط ومن أراد البقاء بمصر من الروم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وفي نظير ذلك يدفع كل قبطي دينارين ما عدا الشيخ والولد والمرأة وأحصى من دفع الجزية في هذه السنة من القبط فكان عددهم ستة ملايين وقيل ثمانية . ولما تم الصلح بين العرب والقبط على هذه الكيفية أرسل المقوقس إلى هرقل ملك الروم يخبره بما جرى ويعتذر عن عدم إمكانه الإتيان بغيرماأتاه فغضب الملك غضبًا شديدًا وقبح فعله ورأيه وأرسل له كتابًا يشف عن معلومية هرقل بكراهة القبط للروم وحكومتهم حيث قال فيه : (إن ما أتاك من العرب إثنى عشر ألفًا وبمصر من كثر عدد القبط ما لا يحصى فإن كان

القبط كرهوا وأحبوا أداء الجزية إلى العرب وإختاروهم علينا فإن عندك بمصر من الروم وبالإسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف فارس معهم العدة والقوة. والعرب وضعفهم على ما رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم في حال القبط أذلاء فقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم فإن فيكم على قدر قوتكم وكثرتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة ناهضهم القتال ولا يكن لكم رأى غير ذلك).

وكتب بمثل ذلك إلى جماعة الروم في مصر ولكن قد سبق السيف العزل فلم يكن في طاقة المقوقس ولا جماعته نقض المعاهدة ولو تنبه هرقل من قبل وأفاق من غفلته وأحسن معاملة الأقباط لكانوا أعظم مدافع عن البلاد والحكومة الرومانية ولكن الجزاء من جنس العمل. وجاء في بعض التواريخ أن جماعة المقوقس كانوا يمدون العرب سرًا في أثناء الحصار بالمؤنة والعلف. ولما وصل كتاب الملك أقبل المقوقس إلى عمرو بن العاص وأطلعه على مافيه وقال له: (إن هرقل قد كره ما فعلت وعجزني وكتب إلى وإلى جماعة الروم ألا نرضى بمصالحتك وأمرهم بقتالك

حتى يظفروا بك أو تظفر بهم ولم أكن بناكث عهدك وإنما سلطاني على نفسي ومن أطاعني. وقد تم الصلح بينك وبينهم ولم يأت من قبلهم نقض وأنا متم لك على نفسى والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه. وما الروم فإن منهم برىء وأطلب إليك أن تجيب ملتمسي في ثلاثة أمور. الأول ألا تنقض عهد القبط وأدخلني معهم ألزمنى مالزمهم وقد إجتمعت كلمتي وكلمتهم على ماعاهدتك عليه فهم متمون لك على ماتحب. وأما الثانى فإن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئاً وعبيدًا فإنهم أهل لذلك لأنى نصحتهم فإستغشوني ونظرت إليهم فإتهموني. وأما الثالث فإني أطلب إليك أني إذا مت تأمرهم أن يدفنوني بجسرالإكسندرية فأجابه إلى ما طلب على أن يكون القبط أعوانًا له.

وفي قوله (إني نصحتهم فإستغشوني ونظرت إليهم فإتهموني) دليل على أن المقوقس بصفة كونه حاكمًا مسئولاً وأمين الدولة الرومانية لم يتأخر عن تمحيص النصيحة لدولته بأن الإستمرار على سوء معاملة الأقباط وهضم جانبهم ربما يجرهم إلى ما لا تحمد عواقبه فلم يلتفتوا إلى نصيحته ورموه بالغش والبهتان

وسوء النية وخبث الطوية وكأن الله أصم آذان الروم ليقضي أمرًا محتومًا . وأبي المقوقس وجماعته أن ينقضوا العهد أما الروم فهاجروا إلى الإسكندرية وحصّنوها وإستعدوا لمقاتلة العرب . ولما إستولى عمرو على منف وساد على مايليها من البلاد قصد فتح الإسكندرية فجمع رجاله وسار بهم حتى وصل إليها ونزل أمام أسوارها وحاصرها من كل جهة ماعدا جهة البحر فإنها كانت مفتوحة بين الروم وبين القسطنطينية فكانت تأتيهم منها المؤن والذخائر ولذلك طالت مدة الحصار وأخيرًا جمع عمرو كل رجاله وقواته وهجم على أبواب السور وفتحه وإذ كان عمرو في مقدمة الهاجمين دخل المدينة من هذا النقب وتبعه إثنان من رجاله أحدهما يسمّى مسلمة بن مخلد والآخر وردان ولم يتمكن غير هؤلاء الثلاثة من الدخول حتى قفل باب السور فقبض عليهم وأتى بهم إلى حاكم المدينة فلما صاروا بين يديه قال لهم هوذا أنتم أسرى في أيدينا فأخبرونا ما الذي جاء بكم إلينا ومالذي حملكم على قتالنا فأجابه عمرو بغير خوف ولا رعب (قد أتيناكم ندعوكم إلى الإسلام فيكون لكم مالنا أو أن تدفعوا الجزية وأنتم صاغرون وإلا فلا نكف عن قتالكم فإن الله يأمرنا به إلا إذا أجبتمونا إلى إحدى الخصلتين)

فتعجب الحاكم من جواب عمرو وجراءته على حين أن من كان على حاله لاينتظر منه إلا التذلل والإستعطاف ثم إلتفت إلى من حوله من الروم وكلمهم بما معناه أن هذا الرجل لابد أن يكون من وجوه العرب وكبار قوادهم فلا ينبغي أن نتخلى عن قتله وكان وردان عارفًا باللغة اليونانية ففهم ماقاله الحاكم ولكي يُعلم عمرًا بما هو فى نية الحاكم لكمه مستهزئًا وخاطبه بما ظاهره التوبيخ على هذا الفضول والجراءة قائلاً ما هذا الهذيان يارجل ومن أنت حتى تنطق بما نطقت أو أن تنسب إلى أسيادك ما قد نسبت من أقامك متكلمًا عنهم أو ما أدراك بمقاصدهم وما أنت إلا أحد صعاليكهم فاصمت ولا تعد للتدخل في مالا يعنيك) فإنطلت الحيلة على الحاكم وعرف أنه ليس كما كان يظن فأمسك عن قتله إلا أنه تعجب لجسارته وزاد تعجبه لما علم مما قاله وردان أنه أحد صعاليك العرب فقال في نفسه إذا كان صعاليكهم بهذه الحالة فماذا يا ترى يكون كبراؤهم. ثم تقدم مسلّمة وقال بلسان الإعتدال (إعلم أيها الحاكم المعتبر أن أميرنا أقرب الناس إلى المسالمة لكونه يرغب قبل الإنسحاب أن يعقد مجلسًا مؤلفًا من كبار الجيشين فيتفقون على شروط الإنسحاب وإذا أذنتَ

بعودتنا إليه نخبره بما لاقيناه من حسن المعاملة وكرم الأخلاق) فأعجب هذا الرأي الحاكم وأجابهم إلى ماطلبوا فإنصرفوا وهم لا يصدقون أنهم نجوا من الموت حتى وصلوا إلى المعسكر وهم على نية تشديد الحصار إلى أن يقضى الله بما يشاء . أما هرقل الملك فإنه لما وصله كتاب المقوقس المنبىء بعقد الصلح حزن حزنًا شديدًا على ضياع مصر التي لم يكن باقيًا لمملكة الروم في الشرق غيرها وعرف أن هذا نتيجة الجور والعسف فندم ولكن ماذا ينفع الندم وقد نفذ السهم فسخط عليه أهل دولته لِما رأوا فيه من الخمول وكيف أنه بعد ما رأى من إستيلاء العرب على بلاده لم يبد حراكا فمات محزونًا مرذولاً غير مأسوف عليه وعقب موته إنقسامات داخلية وحروب أهلية بسبب إدعاء الملك ممن هم ليسوا من العائلة الملوكية فتشاغل الروم بذلك ولاسيما أهل الحل والعقد ومَن بيدهم زمام الأمور عن صالح المملكة وسلامتها وإنقاذها من الأخطار التي كانت تحف بها من كل جانب وزيادة على ذلك أنه وجد في القسطنطينية ثلاثة ملوك في وقت واحد فكان كل هذا موجبًا لضعف همة الروم الإسكندريين الذين كانوا يقاومون العرب ولم يعرفوا لأي من

هؤلاء الملوك الثلاثة هم تابعون فهاجر بعضهم بحرًا ولما لم يقو مَن بقي منهم على الدفاع تغلب عليهم عمرو ودخل المدينة منتصرًا وكان دخوله في يوم الجمعة غرة شهر محرم سنة ٢٠ للهجرة الموافق ٢٢ ديسمبر سنة ٦٤٠ للميلاد وبإستيلائه على مدينة الإسكندرية تم له فتح مصر .

الأقباط في صدر الإسلام

إمارة عمرو بن العاص

لما فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية بعد أن حاصرها مدة أراد أن يجعلها عاصمة الدين كما كانت في الأيام الماضية منذ عهد البطليموسية إلا أن الخليفة لم يسمح له بذلك لبعد مسافتها عن دار الخلافة فعين المقوقس حاكمًا عليها وعلى جميع الوجه البحري وترك فيها حامية من العرب وعاد بمن معه من الجند إلى حصن بابليون ولم يرد أيضًا أن يقيم في مدينة منف بالبر الغربي لأن الخليفة لم يرغب أن يكون المسلمون في موضع يحول بينه وبينهم ماء فإختار له محلا بين جبل المقطم وحصن بابليون وأقام فيه هو ورجاله ومن ثَمَّ أخذ هذا المحل

يعمر شيئًا فشيئًا حتى صار مدينة واسعة سُميت بالفسطاط أو فسطاط مصر وبعد ذلك بمصر القديمة وفسطاط بالعربية معناها الخيمة وسبب تسميتها بهذا الإسم أن عمرًا لما عزم على فتح الإسكندرية قصد رجاله أن يحلوا الخيام ليتأهبوا للرحيل فوجدوا أن خيمته قد أوكر في قمتها زوج من الحمام تحته صغاره فلما رأى عمرو هذا أمر أن تترك خيمته منصوبة قائلاً (معاذ الله أن نأبي حماية ذي حياة إستجار بنا فإتركوا خيمتي منصوبة حتى نعود إن شاء الله) ولما عاد وجدها كما تركها والطيور بها فبنى في مكانها جامعًا وبنى العرب حوله منازل فأصبحت مدينة وسماها بالفسطاط ومن ثم صارت عاصمة الديار المصرية ومركز الإمارة العربية إلى زمن الفاطميين الذين إبتنوا القاهرة الموجودة للآن وجعلوها مقر خلافاتهم كما سيأتي.

وكما عين عمرو بن العاص المقوقس حاكمًا على الإسكندرية والوجه البحري عين أيضًا أحد رجاله المسمى عبد الله بن سعد بن أبي سرح حاكمًا على الوجه القبلي أما هو فتولى إمارة مصر جميعها . ولما شرع عمرو في بناء مدينة الفسطاط كان القبط من أهم العاملين عل عمارتها ولاسيما

رجال الحكومة الذين كان معظمهم إن لم نقل كلهم من الأقباط فشيدوا بها القصور العالية والدور الرحبة والكنائس والديارات الواسعة والمنتزهات والبساتين النضرة وكان العرب يشجعونهم على ذلك لما فيه من العمران وهكذا أصبحت الفسطاط بهمة الأقباط الذين بذلوا النفس والنفيس في تشييدها مدينة زاهية زاهرة تحاكي في البهجة والرونق مدينة منف القديمة التي شيدتها أيدى الملوك الفراعنة وفي هذا دليل على إحكام الوفاق وتمكين العلاقات بين القبط والعرب في ذلك الزمن حتى أباحوا لهم بناء كنائس ومعابد متعددة في وسط الفسطاط التي هي مقر جيش الإسلام على حين أن المسلمين كانوا يُصلّون ويخطبون في الخلاء أو أنه لم يكن لهم غير جامع واحد الذي بناه عمرو بن العاص. أما منف فأخذت من ذاك الحين تنحط شيئًا فشيئًا لإرتحال سكانها عنها وتوطنهم بمدينة فسطاط الجديدة حتى تلاشت بالكلية وأصبحت أثرًا بعد عين ومحلها الآن قرية حقيرة تسمى ميت رهينة ببر الجيزة [1] فسبحان من يرث الأرض ومن عليها.

---

[1] الجيزه بالقبطية ϯⲡⲉⲣⲉⲓⲥ ⲡⲉⲣⲉⲓⲱⲓ ولا نعلم ما سبب تسميتها في العربية بالجيزة.

وكان للمقوقس نسيب يسمى الهاموك كان حاكمًا على دمياط[٢] وما يليها فلم يُسَلِّمْ وأبي إلا المقاومة فأرسل إليه عمرو بن العاص فرقة من العرب فحاربوه وقتلوا أحد أولاده فجمع كبراء البلد ووجهاء القوم ليشاورهم في الأمر فقام من بينهم رجل وطني وقال (إعلم أيها الأمير أن العقل لا قيمة له وما إستغنى به أحد إلا وهداه إلى سبل الفوز والنجاة من المعاطب وقد رأينا أن هؤلاء العرب لم تنخفض لهم راية ولم ينكس لهم علم ولسنا نحن بأشد قوة من جيوش الشام . فالرأي عندي أن نعقد الصلح معهم لننال الأمن ونفوز بصون حرمنا ونأمن من سفك الدماء كما فعل المقوقس وماأنت بأكثر منه رجالاً ولا أمضى منه عزيمة) فإستقبح الهاموك رأيه ولم يتم الرجل كلامه حتى إنقض عليه كالأسد الضارى وقتله بيده شر قتلة جزاء نصيحته وكان له ولد قد شق عليه هذا الأمر فقصد الإنتقام لأبيه. وكان له دار ملاصقة لسور المدينة فلما جن الليل تسلق السور وخرج إلى العرب ودلهم على عورات البلد وكيف يتمكنوا منها فدخولها وإستولوا عليها ولما لم يستطع الهاموك المدافعة إستأمن ونجا ثم

---

[٢] بالقبطية ⲦⲀⲘⲒⲀⲐⲎ .

خرج ولده وكان قد أسلم أيضًا وحشد جيشًا من أقباط أهل البرلس [١] والدميرة [٢] وغيرهما من البلاد المجاورة وأمد به المسلمين وحاربوا أهل تانيس [٣] وقتل إبن الهاموك في هذه المعركة وإنتهى الأمر بأن تغلب المسلمون عليها وفتحوها عنوة. وكانت تانيس هذه من أعظم مدن الوجه البحري وأفخرها إشتهرت إلى ما بعد الفتح الاسلامي بزمن بصناعات المنسوجات الحريرية على أنواع مختلفة وكانت قائمة في وسط بحيرة المنزلة وقد إندثرت الآن ولم يبق منها أثر.

ولما ثبت قدم العرب في مصر شرع عمرو بن العاص في تطمين خواطر الأهلين وإستمالة قلوبهم إليه وإكتساب ثقتهم به وتقرب سراة القوم وعقلائهم منه وإجابة طلباتهم وأول شيء فعله من هذا القبيل إستدعاء بنيامين البطريرك الذي سبق القول أنه إختفي من أمام هرقل ملك الروم وذلك أنه كان بين رؤساء الأقباط المتقربين من عمرو واحد يسمى شنوتي (شنوده) فتقدم إليه وأعلمه بخبر البطريرك وما كان من أمر هروبه وإختفائه

---

(١) ⲡⲁⲣⲉⲗⲗⲟⲩ (٢) ϯⲙⲁϩⲓ (٣) ⲑⲉⲛⲏⲥⲓ

وطلب منه أن يأمر بعودته فلبى طلبه وكتب أماناً وأرسله إلى جميع الجهات يدعو فيه البطريرك للحضور ولا خوف عليه ولاتثريب. ولما حضر وذهب لمقابلته ليشكره على هذا الصنيع أكرمه وأظهر له الولاء وأقسم له بالأمان على نفسه وعلى رعيته وعزل البطريرك الذي كان أقامه هرقل ورد بنيامين إلى مركزه الأصلي معززاً مكرمًا وهكذا عادت له المياه إلى مجاريها وبعد إختفائه مدة طويلة قاسى فيها ما قاسه من الشدائد وكان بنيامين هذا موصوفًا بالعقل والمعرفة والحكمة حتى سماه بعضهم (بالحكيم) وقيل أن عمرًا لما تحقق ذلك منه قربه إليه وصار يدعوه في بعض الأوقات ويستشيره في الأحوال المهمة المتعلقة بالبلاد وخيرها وقد حسب الأقباط هذا الإلتفات مْنة عظيمة وفضلاً جزيلاً لعمرو. وأمر عمرو بأن من لايرغب من الروم البقاء في مصر فليخرج منها بأمان ومن يفضل البقاء تضرب عليه الجزية ويكون له ما للأقباط وعليه ما عليهم. وكان عدد الروم بمصر ينوف عن ثلثمائة ألف نفس فهاجر أغلبهم ولم يبق منهم إلا من كانت له علاقات ومصالح لا تسمح له بالخروج منها والإبتعاد عنها . وإنتهز القبط خروج الروم فرصة مناسبة فوضعوا

يدهم على كثير من كنائسهم وأديرتهم وملحقاتها بدعوى أنها كانت في الأصل مِلكًا لهم والروم نزعوها من يدهم قوةً وإقتدارًا بسبب ما كان بينهم من الشقاق ومن ذلك الحين عاش الروم بالحسنى وإنتهت من بينهم المنازعات والمخاصمات التي كانت تقضي إلى قتل الألوف المؤلفة لزوال أسبابها .

ثم أخذ عمرو في تنظيم البلاد وإذ كان يعلم أن صاحب الدار أدرى بما فيها إستعان بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة الأهالي والوالي معًا فقسم البلاد إلى أقسام يرأس كلاً منها حاكم قبطي له إختصاصات وحدود معينة ينظر في قضايا الناس ويحكم بينهم ورتب مجالس إبتدائية وإستئنافية مؤلفة من أعضاء ذوي نزاهة وإستقامة وعين نوابًا مخصوصين من القبط ومنحهم حق التداخل في القضايا المختصة بالأقباط والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية فكانوا بذلك في نوع ما من الحرية والإستقلال المدني وهي ميزة كانوا قد جُرِدّوا منها في أيام الدولة الرومانية ولذا لم يجعلوا الحكومة في راحة بال كما تقدم القول . وضرب الخراج على البلاد بطريقة عادلة وولى عليه متولياً من ذويه يقبضه على أقساط في آجالٍ

معينة حتى لا يتضايق أهل البلاد . ورتب الدواوين فإختص الأقباط بمسك الدفاتر وسائر الأعمال الكتابية والحسابية وكانت كلها تجرى باللغة القبطية وبلغ ماجباه عمرو من الخراج في السنة إثنتي عشر مليونًا من الدنانير مع أن الذي كان يجبيه المقوقس في أيام الروم لم يكن أقل من ثمانية عشر مليونًا . وبالجملة فإن القبط نالوا في أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها منذ أزمان .

ولما مات الخليفة عمر بن الخطاب وتولى عثمان بن عفان الخلافة بعده فصل عمرو بن العاص عن مصر وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخاه من الرضاعة وهو الذي كان حاكمًا على الوجه القبلي في إمارة عمرو بن العاص كما مر . ولما تولى الإمارة جبا في أول سنة أربعة عشر مليونًا من الدنانير أي بزيادة مليونين عما كان يجبوه عمرو بن العاص فُسرَّ الخليفة بهذه الزيادة وقال لعمرو يومًا مفتخرًا بذلك (يا أبا عبد الله درت اللقحة بأكثر من درها الأول) أي قد زاد الإيراد عما كان في أيام إمارتك . فقال له عمرو على الفور (قد أضررتم بولدها) أي أن هذه الزيادة لابد أن تضر بأهل البلد لأنهم لم يزيدوا في العدد عما كان قبلاً وماهي إلا نتيجة ضرائب جديدة قد أوجدها عبد الله

بن أبي سرح ليظهر الفرق بينه وبين سلفه حتى يكون مقبولاً عند أمير المؤمنين.

وفي خلال ذلك كان الروم في القسطنطينية يفكرون في إسترجاع مصر فلما إستقرت أحوالهم وزالت الإرتباكات الحاصلة بسبب الطامعين في الملك جردوا حملة لإنقاذها من يد العرب فساروا بمراكبهم حتى دخلوا الإسكندرية وحاولوا النزول بها فمنعهم المقوقس من ذلك فنزلوا بساحلها وإنضم إليها من كان بها من الروم الذين نقضوا العهد أما المقوقس والقبط فتمسكوا بعهدهم مع المسلمين ودافعوا عن المدينة ما إستطاعوا فخرج الروم منها وصاروا يعيثون فساداً في القرى وينهبون ما بها ويقتلون سكانها فخاف أهل مصر سوء العاقبة وإجتمعت كلمة القبط والعرب على أن يطلبوا من الخليفة أن يأذن لعمرو بن العاص في العودة إلى مصر لمقاتلة الروم لتدربه على الحرب وهيبته في عين العدو فأجاب طلبهم وأرسله فصار يحاربهم ويقاتلهم حتى أبعدهم عن المدينة فركبوا سفنهم وعادوا إلى بلادهم بالخيبة ولم يرجعوا وكان القبط يحاربون في هذه الواقعة مع العرب ويقاتلون الروم خوفاً من أن يتمكنوا من البلاد ويأخذونها

فيقع الأقباط في يدهم مرة أخرى وبذلك ينتقمون منهم لتفضيلهم العرب عليهم فتكون الواقعة الثانية شرًا من الأولى .

ولما إنتهى عمرو من قتال الروم أراد الخليفة أن يكافئه على أتعابه الكثيرة في هذه الحرب الأخيرة بأن يوليه رئيسًا على جند مصر وعبد الله بن سعد على خراجها فلم يرض عمرو بذلك وإنصرف عنها ولم يعد إليها إلا في سنة ٣٨ للهجرة .

أما عبد الله فبقي واليًا على مصر ولكنه لم يحسن التدبير لمعاملته الناس بالجور والعسف فكرهه المسلمون والنصارى وفي أيامه تفشى بالبلاد وباء شديد وقحط تسبب بهما موت خلق كثير من المصريين فإزدادت كراهتهم له وتشاءموا منه وهموا إلى خلعه فذهب إلى الخليفة وفد من العرب مؤلف من ألف رجل وكاشفوا الخليفة بحالهم وجور عبد الله بن سعد وطلبوا منه عزله بالتي هي أحسن ملحين عليه فلم ير بُدًا من إجابة طلبهم رغمًا عن ميله له وولى مكانه محمد بن أبي بكر الصديق أول الخلفاء بعد الرسول لكنه لم يصل إليها إلا في خلافة الإمام علي بن أبي طالب .

وفي أثناء ذلك قتل عثمان وتولى الخلافة بعده الإمام علي

بن أبي طالب فعزل جميع الولاة وولى غيرهم من المتقربين إليه فكرهه بعض كبار المسلمين وتشيعوا لعثمان بن عفان المقتول وكان من ضمن المتشيعين معاوية بن أبي سفيان الذي كان واليًا على الشام فصار يخطب في الناس ويبث في أذهانهم أن علي بن أبي طالب هو القاتل لعثمان ويحرضهم على الأخذ بثأره وساعده على ذلك عمرو بن العاص فإشتدت الفتنة وإضطرمت نارها في كل الولايات حتى في المدينة التي هي مقر الخلافة.

وأرسل الخليفة واليًا على الشام بدل معاوية فطرده أهلها وبايعوا معاوية على أن يكون خليفة فإستفحل أمره وقويت شوكته وهكذا كان للمسلمين خليفان: علي بن أبي طالب في المدينة ومعاوية في الشام ولذلك إنقسموا إلى شطرين.

ورأى بعض كبار المسلمين أن أحسن واسطة للهدوء والسكينة هو قتل زعماء المتشيعين وهم على ومعاوية وعمرو بن العاص فإختاروا لتنفيذ هذا الغرض ثلاث رجال ولكن لم تدر الدائرة إلا على على بن أبي طالب فإنه قتل بيد أحد هؤلاء الثلاثة والآخران نجيا. وبموت على خلا الجو لمعاوية وقويت شوكته وإعترف له الكل بالخلافة فقتل جميع أقرباء علي حتى

لايكون له منازع ولا مخاصم وجعل مقر الخلافة في دمشق الشام. أما ماكان من أمر مصر فإن معاوية لما بايعه أهل الشام بالخلافة طلب من عمرو بن العاص أن يفتحها بإسمه (بإسم معاوية) ويكون والياً عليها مادام حيًا. فقبل عمرو بهذا الشرط وسار إليها في ستة آلاف فارس ولما وصلها أرسل ينصح محمد بن أبي بكر الذي كان واليًا من قبل الإمام على (كما مر) أن يخرج منها بأمان فأبي إعتمادًا على أن الخليفة يرسل إليه مددًا فقاتله عمرو وظفر به وقبض عليه وقتله بأن وضعه في جلد حمار وأحرقه بالنار وهكذا تم فتح مصر بإسم معاوية على يد عمرو بن العاص الذي فتحها في الأول في أيام عمر بن الخطاب وبقي واليًا عليها كعهده مع معاوية إلى أن توفي بها في سنة ٤٣ للهجرة. وبموت الإمام على بن أبي طالب إنتهت مدة الخلفاء الراشدين الذين تولوا الخلافة بعد الرسول وعددهم أربعة وهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن إبي طالب ثم إنتقلت الخلافة إلى الدولة الأموية التي أول خلفائها معاوية بن أبي سفيان المار ذكره وكانت الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين إنتخابية فجعلها وراثية وإنحصرت في ذريته تنفيذاً

لمآربه وبقيت في يدهم نحو تسعين سنة .

القبط في عهد الدولة الأموية

بينما كان الخلل مستوليًا والفشل سائدًا في كل أنحاء المملكة العربية بسبب هذه المنازعات كان الأقباط في مصر ملازمين الهدوء والسكينة والحيادة فلم يخطر على بالهم قط شق عصا الطاعة أو التخلص من نير العرب ولو أرادوا ذلك لأمكنهم بالنسبة لما كانت عليه البلاد من حالة الفوضى وإنقسام العرب إلى أحزاب لكنهم آثروا الإستمرار على التمسك بالمعاهدة التي أبرمت معهم على يد عمرو بن العاص حينما فتح مصر في المرة الأولى ولم يدر في خلدهم أبدًا نقضها ولا الإنحياز لفريق دون آخر بل كانوا مسالمين للجميع والكل راضون عنهم ولما عاد إليهم عمرو بن العاص في أيام معاوية (كما مر) فرحوا به ولما مات حزنوا عليه وكان لهم الحق في ذاك الحزن لأنه لم يتول على مصر أميرًا أحسن التدبير مثله كما سنرى. وبعد موته بأيام قلائل مات أيضًا بنيامين البطريرك بعد أن قام في الرئاسة تسع وثلاثين سنة جدد في أثنائها بعد عودته من الهرب ديارات

الرهبان ببرية شيهات[1] بوادى النطرون التي كان هدمها الفرس مدة إستيلائهم على مصر في أيام الملك هرقل وبعد موته تولى البطريركية الأنبا أغاثون فبنى بالإسكندرية دارًا واسعة وكنيسة على إسم مار مرقس بدل التي كان هدمها العرب عند ما فتحوا الإسكندرية عنوة.

ومما حبب الأقباط في عمرو وجعلهم يميلون إليه كل الميل أنه كان مراعيًا في كل تصرفاته مصلحتهم وراحتهم فلم يجب منهم في مدة إمارته من الأموال أكثر مما صولحوا عليه بغير زيادة أو نقص ولا في غير آجالها المضروبة لجمعها وتحصيلها رغمًا عن إلحاح الخليفة عليه في إمداده بالخراج ومازال عمرو يدافع عن أهل البلاد حتى أقنع الخليفة أن إلحاحه هذا يضطر الناس إلى بيع ما لاغنى لهم عنه وفي ذلك خرق للعهود ولكن لم يخل الحال من وجود مناظر لعمرو على ولاية مصر وحمل الخليفة على تونيبه ولكن كل هذا لم يؤثر في عمرو أو يجعله يضيق على

(١) كلمة قبطية معناها ميزان القلوب وهي مركبة من ϣⲓ ميزان او كيل ϩⲏⲧ قلب. وتسمي أيضاً إسقيط وبالقبطية ⲡⲓⲁⲥⲭⲏⲧⲏⲥ ومعناه دار الناسك.

الناس ليرضي أمره كما فعل عبد الله بن سعد وكانت نتيجته العزل والفصل. ومن حسن حظ عمرو بن العاص أنه لم يحصل في أيامه جدب ولا نقص في النيل ولو حصل لرفع عنهم الخراج بقدر النقص.

قلنا فيما تقدم أن المقوقس لما رأى تغلب العرب على حصن بابليون جمع رجال حكومته وكبار الأقباط وأشار عليهم بالتسليم وأداء الجزية فأبوا أولاً لأن قبولهم دفع الجزية يجعلهم عبيدًا فقال لهم (إنكم وإن تكونوا بدفع الجزية عبيدًا إلا أنكم تكونوا مسلطين في بلادكم آمنين على أنفسكم وأحوالكم وذراريكم) فأذعنوا . وفي الواقع أن القبط كانوا هم المسلطين في بلادهم وبيدهم كل شيء وعاشوا آمنين على أنفسهم ومالهم ولم يكن للعرب سلطة عليهم إلا في تحصيل الخراج وجمع الجزية التي قاموا بدفعها عن طيب خاطر راضين بما قسم الله لهم وإستمروا على هذه الراحة إلى سنة ٦٥ هـ الموافقة ٦٨٣ م حتى أخذت الأحوال تتغير نوعًا وذلك أن مروان الخليفة ولىّ إبنه المسمى عبد العزيز أميرًا على مصر فأعلى الضرائب والعوائد ليس على الأقباط فقط بل على جميع المصريين سواءً كانوا من

أهل البلاد أو من المستوطنين فيها ولكنه خص الأقباط بزيادة الجزية التي فرضها أيضًا على طائفة الإكليروس مع أنهم كانوا إلى هذا التاريخ معافين منها فألزم كل واحد منهم بدفع دينار في السنة والبطريرك بثلاثة آلاف دينار. وجاء في بعض التواريخ أن عبد العزيز هذا كان جوادًا حليمًا بشوشًا. وأنه في سنة ٧٠هـ تفشى الطاعون بمصر فخرج من الفسطاط وأتى حلوان فأعجبه موقعها فإتخذها دارًا له ونقل إليها بيت المال[١] وكان الأمين عليه رجل قبطي يسمى أنيتاس. وإبتنى بها القصور الشاهقة وزينها بالبساتين الناضرة وإذ كان القبط في ذاك الحين هم أهل البلاد وذوي الثروة والإقتدار على الأعمال وعليهم مدار العمران بخلاف العرب الذين كان معظمهم من الجند المحافظين على الأمن وسلامة البلد كلف عبد العزيز أهل اليسار من القبط أن يبني كل منهم له دارًا بحلوان التي كان يريد أن يجعلها مدينة تحاكي الفسطاط لتكون مقر الحكومة وعاصمة الديار المصرية وكلف أيضًا البطريرك الموجود حينذاك وكان إسمه إيساك أن يبنى له فيها دارًا وكنيسة حتى يرغب باقي الأقباط في التوطن بها

(١) أشبه بالمالية الآن.

فتصبح مدينة عامرة وكذلك عبد العزيز إهتم ببناء الدور الواسعة والمساجد العظيمة بها وإذ كان هذا يحتاج إلى نفقات جسيمة لا يبعد أن يكون قد زاد على الأقباط شيئًا يدفعونه مع الجزية ليتساعد به على تنفيذ مشروعه وبذلك تحصل على مبالغ كافية والقليل كما يقال في الكثير كثير.

وجاء في كتاب سيرة البطريرك إيساك الموجودة نسخته بمتحف لوندره مانصه «أنه (أي البطريرك) كان يكثر التردد على حلوان لزيارة الأمير عبد العزيز الذي أمر أراخنة الصعيد وكل القرى أن يبني كل واحد لنفسه مسكنًا بحلوان المدينة» وجاء في موضع آخر من الكتاب المذكور ما نصه «وبعد ثلاث سنوات أطلق الأساقفة إلى كراسيهم ليستعدوا لبناء بيعتين في حلوان وكان الأساقفة ينفقون من عندهم على عمارتها ووكل الوالي بعمارتها اغريغوريوس أسقف القيس»[1] ومما ذكر يعلم أن كان بين البطريرك وعبد العزيز ود وإئتلاف ولم يكن جافيًا

---

(١) ⲬⲀⲂⲒⲤ ⲔⲀⲎⲤ بمديرية المنيا. كانت مدينة عظيمة جدًا إشتهرت بصناعة المنسوجات الصوفية ولا سيما التي كانت تسمى بالمرعز وقد تخربت الآن ولم تبق إلا أطلالها.

على النصارى وربما تكون هذه النسبة لأنه كلف الأساقفة ببناء كنيستين على نفقتهم وتكليفه أهل اليسار من الأقباط ببناء مساكن لهم بحلوان التي كان كلفًا بعمارتها وتشييدها لشدة غرامه بها وجودة هوائها وحسن مواقعها . وورد في بعض تواريخ القبط أن عبد العزيز كان له ولد يسمى الأصمع كان أبوه قد ولاه على خراج مصرفًا على الضرائب والعوائد وشدد في تحصيلها وكان بالصعيد رجل مشهور يسمى بطرس أسلم هو وأخوه تاودورا بسبب المغارم التي ألزمها الأصمع بدفعها وأسلم أيضًا شخصًا آخر يسمى تاوفانوس بن عمدة مريوط [1] فتبعهم كثيرون آخرون . ولما مات عبد العزيز في سنة ٨٦ هـ، بعد أن حكم أكثر من عشرين سنة تولى إمارة مصر عبد الله بن عبد الملك أخيه وكان كريهًا للنصارى فإشتد عليهم وعمل على نزع الكتابة في الدواوين من أيديهم ونقلها إلى اللغة العربية بعد أن كانت إلى ذلك الوقت بالقبطية والقائم بها وبسائر الأعمال الإدارية والحسابية هم الأقباط تحت مباشرة رئيس منهم يسمى أنيتاس أو أثناس (وهو الذي كان أمينًا على بيت المال كما تقدم) فعزله وولى

---

(١) ⲙⲁⲣⲓⲱⲧⲏⲥ .

مكانه شخصًا يسمى إبن يربوع الفزاري من حمص . ولما رأى القبط أن هذا التغيير يعود عليهم بالضرر العظيم ولكي لا يفقدوا مركزًا مهمًا كهذا في الحكومة عولوا بإجتهاد على تعلم اللغة العربية فنالوا مبتغاهم وأتقنوا فن الكتبة والحساب بها وتفننوا فيهما وجعلوا لحساباتهم قواعد وروابط مخصوصة . ونقلت أيضًا أسماء البلاد إلى العربية فتحرفت عن أصلها كما ترى .

وحينئذ كثر العرب في مصر وإنبثوا في أنحائها وإتخذوا الزراعة كسبًا ومعاشًا لهم وعاشروا الأقباط وإختلطوا بهم فكان لهم ما لهم وعليهم ما عليهم . ولما رأى الأقباط أن المسلمين معافون من دفع الجزية التي قد أصبحت وقرًا ثقيلاً على عاتقهم بسبب الزيادات التى كان يضيفها عليهم بعض الولاة خلافًا للعهد وما كان يصيبهم من متولى الخراج من الجور والعسف في تحصيلها آثر بعضهم الإسلام تخلصًا منها ورغبة في التمتع بالمزايا التي كان يتمتع بها المسلمون فتسبب عن ذلك نقص الإيراد فعمل بعض الولاة على مداركة بعضه بربط الجزية على الرهبان فسار بجنده إلى الديارات بوادي هبيب (برية شيهات) في الوجه

البحري وهجم عليها فوجدها غاصة بالرهبان فأحصاهم وقيل بلغ عددهم أكثر من ستة آلاف راهب [1] فألزم كل واحد منهم بدفع دينار سنويًا وتجاوز الحد في ذلك بأن أمر أن يلبس كل راهب خاتمًا من حديد في أصبعه مكتوبًا عليه إسمه وإسم

---

(١) هذا ما رواه بعضهم وقد لا يكون خاليًا من المبالغة والذي نراه أن نقص الإيراد بسبب إعتناق الكثير من الأقباط الديانة الاسلامية ليس هو السبب الوحيد في تشديد الولاة على الرهبان وربط الجزية عليهم بل يمكن أن يقال وهو قول قريب الإحتمال أن العرب في ذاك الحين ما كانوا يجهلون القلاقل والإضطرابات التي كانت تحصل في أيام الدولة الرومانية وما كان يعانيه الحكام من تجمهر الرهبان بسبب الشقاقات الدينية والإختلافات المذهبية ولما رأى بعض ولاة العرب أنه يوجد في ديارات برية شيهات وحدها عدد عظيم من الرهبان كهذا خشي حدوث ما يخل بالنظام فعمد إلى ربط الجزية عليهم وشدد في تحصيلها لفائدة الخزينة من جهة ونقص عددهم من جهة أخرى. ويؤيد هذا الفكر ما قرأته في بعض التواريخ الإفرنجية من أنه حصل مرة في أيام العرب أن بعض أهالي الوجه البحري من الأقباط والروم ثاروا على الحكومة وكان بطريرك الأقباط في مقدمة الثائرين منهم وكذلك رئيس الروم الديني فحاربهم الحاكم وقهرهم وقبض على الإثنين فضرب عنق الرئيس الرومي بسيفه بغير توان. أما بطريرك الأقباط فأبقاه ولم يطلق سبيله إلا بدفع مبلغ طائل جدًا قام بدفعه هو وكبار الأقباط فداء حياته.

ديره يسلمه إليه جابي الخراج عندما يدفع له ما هو مقرر عليه من الجزية وإذا وجد واحد منهم غير لابس له تقطع يده وإذا أصر على المخالفة يقتل وتكرر الهجوم على الديارات وهدمها وقتل من بها من الرهبان الغير حاملين هذا الوشم ولم يكتف بذلك الولاة الذين عملوا على الإتيان لهذا الأمر المنكر بل كانوا يلزمون البطاركة والأساقفة من وقت لآخر بدفع مبالغ طائلة كغرامة وألزموهم أيضاً بدفع جزية سنوية ليست بمثابة الجزية التي كانت تفرض على أفراد الناس بل بمقادير وافرة جداً ومن تأخر منهم عن دفع الغرامة أو الجزية أهانوه حتى قيل أن بعضهم أُلزم عشرة آلاف دينار مرة واحدة وإذ لم يقدر على دفعها توسط بعض كبار الأقباط المتوظفين لدى الوالي في تخفيضها إذا لم يرد معافاته منها فأجيب طلبهم بأن جعلها نصف ذلك المبلغ وإذ لم يكن لدى البطريرك المحكوم عليه بهذه الغرامة ما يفي وزعها كبار الأقباط على أنفسهم وقاموا بدفعها من عندهم حفظاً لكرامة رئيسهم فكان هذا الظلم الفاضح من أكبر الدواعي العاملة على تبديد شملهم وأقبل عدد كثير من جمهورهم على إعتناق الدين الإسلامي تخلصاً مما لحقهم من الظلم.

ولما رأى بعض الولاة أن إقبال النصارى على الإسلام يضر بالجزية لم يعفِ من أسلم منها وإستمر على تحصيلها منهم فبلغ ذلك الخليفة فكتب إليه يقبح عمله فجاوبه معتذرًا عما أتاه بأن الإسلام قد أضر بالخزينة ضررًا إضطره إلى إقتراض عشرين ألف دينار ليُتم بها رواتب أهل الديوان فكتب إليه الخليفة يعذره ويأمره أن يضعها عمن أسلم وأمر رسوله أن يضربه عشرين سوطًا على رأسه جزاء ما أتاه من المخالف. ورفعت الجزية عمن أسلم من النصارى ووزعت على إخوانهم الباقين على دينهم وكذلك كانت توزع جزية من يمت منهم على الأحياء ويلزمون بأدائها طوعًا أو كرهًا.

ومن إشتهر بالجور والعسوف من عمال الخراج في عهد دولة الأمويين رجل يسمى أسامة بن يزيد فإنه فرض على كل مصري بغير تمييز ضريبة مقدارها عشرة دنانير يدفعها المار في النيل صاعدًا أو نازلاً فلم يستطع أحد المرور إلا إذا كان بيد أمر مؤذن له بذلك قد تحصل عليه بعد أداء المبلغ المفروض. ومما يحكى أن أرملة سافرت في النيل مع إبن لها فحدث أن إبنها كان يستقي من الماء فإختطفه تمساح وإبتلعه بثيابه على مشهد من

الناس الذين كانوا معه في المركب وكانت تذكرة المرور في جيبه فلما وصلت أمه المسكينة إلى المكان المقصود طالبها أصحاب التذاكر أعوان أسامة بتذكرة المرور فأخبرتهم بما كان من أمر ولدها وأن التذكرة ضاعت معه فلم يقبلوها منها عذرًا ولم يفرجوا عنها حتى باعت ما بين يديها أو أنها جمعت ما كان مطلوبًا منها من أهل البر والإحسان وهذا بعض ما فرضه على أهل البلاد من الضرائب الفادحة حتى أجمع مؤرخو المسلمين والنصارى على جوره وإستبداده.

ولما تولى هشام بن الملك الخلافة في سنة ١٠٥ هـ، شكا إليه الأقباط من ظلم عمال الخراج فأصدر أمره للوالي بوجوب معاملتهم بمقتضى العهد الذي بيدهم ولكن لم يجد هذا نفعًا ولا فائدة بل كان سببًا في مشاركة الوالي مع عمال الخراج على التضييق والتشديد عليهم ولما لم ير القبط منهم إلا الإصرار على عدم تغيير خطتهم نزعوا إلى التوقف والمقاومة ولما كانت سنة ١٠٧هـ إعتصب أهل تنوديمي وقربيط وعامة الحوف الشرقي بالوجة البحري وتوقفوا عن دفع الأموال فأرسل إليهم الوالي جندًا فحاربوهم وقتل في هذه الواقعة من الفريقين خلق كثير.

ولما بلغ الخليفة خبر هذه الحادثة وعرف سببها خشى
سوء العاقبة بإنتقاض جميع الأقباط في الوجهين القبلي والبحري
فعزل الوالي وولى آخر مكانه وأمره أن يحصي أهل البلاد ويوزع
عليهم الخراج بطريقة عادلة وألا يخرج في ربط الجزية عن حد ما
صولحوا عليه مع عمرو بن العاص وبمقتضى العهد الذي بيدهم
ففعل كما أمر وبلغ عدد القبط في هذا الإحصاء أكثر من خمسة
ملايين من الذين يدفعون الجزية عدا النساء والشيوخ والصبيان
فإرتاحوا نوعًا مدة ولاية هذا الوالي التي دامت تسع سنوات
ولما مات أخلفهُ رجل يسمَّى حنظلة بن صفوان وهذه ثاني مرَّة
توَّلى فيها إمارة مصر وكان عاتيًا غشومًا رغمًا عن رغبة الخليفة
في معاملة أهل البلاد بالرفق والمعروف فلم يكتف بالضرائب
المفروضة على الأطيان وعوائد الأملاك والجزية المفروضة على
الناس بل فرضها على الحيوانات أيضاً وأساء معاملة الجميع ولا
سيما المسيحيين منهم فكان أقل جزاء عنده قطع يد من لا يجده
منهم حاملاً وصلاً مختومًا بختم عليه صورة أسد فهاج أهل
الصعيد وقاموا على عمال الخراج وأخرجوهم من بلادهم
وحصلت بينهم وبين جنود الوالي واقعة عظيمة قتل فيها خلق

كثير. كل هذا وحنظلة لا يزيد إلا جورًا وعسفًا فشكوه إلى الخليفة فعزله وولى مكانه رجلاً يسمى الوليد عرف عند المصريين عمومًا بالعدل والإستقامة وحسن التدبير ولكن من سوء الحظ لم تدم ولايته أكثر من سنة.

وفي أثناء ذلك توفي الخليفة هشام بن عبد الملك فأسف الجميع لموته ولاسيما النصارى لأنه لم يميز في أحكامه بين مسلم ونصراني أو يهودي وكان يشدد على الولاة في جميع الولايات التابعة له بإنتهاج منهج العدل في أحكامهم وإنصاف المظلوم بصرف النظر عن الدين والجنسية. وفي أيامه حارب المسلمون الروم وتغلبوا على كثير من بلادهم وسبوا كثيرًا منهم وكان العرب يأتون بالأسرى إلى البلاد ويبيعونهم فإبتاع الأقباط عددًا وفيرًا منهم وحرروهم وممن إشتهر بهذا العمل الجليل بطريركهم الموجود حينئذ فإنه صرف أموالاً طائلة في شرائهم وتحريرهم إبتغاء مرضاة الله فنال بذلك ثوابًا عظيمًا وذكرًا حسنًا.

وبعد موت هشام بن عبد الملك أخذت الدولة العربية الأموية في الإنحطاط والتقهقر وإنتهت بظهور دولة أخرى عربية تسمى الدولة العباسية وكان آخر خلفاء الدولة الأموية يسمى

مروان . ومن حوادث أيامه أنه كان بمصر وال يسمى عبد الملك
بن موسى كان غليظ الطبع سيىء الخلق كثّير الطمع مستبداً
أداه طمعه إلى إلزام النصارى بدفع مبالغ طائلة وألزم البطريرك
والأساقفة بدفع غرامة لم يكن في طاقتهم أداؤها فطلب إليه
البطريرك أن يمهله حتى يطوف البلاد ويجمع المال من أهل الخير
فصرح له بذلك فقام قاصداً الوجه القبلي فوجد جماعة الأقباط
في ضنك شديد بسبب الغرامات التي فرضها عليهم هذا الوالي
وتشديد رجاله في تحصيلها فحزن حزناً شديداً ولم يدر ماذا
يفعل وصار ينتقل من بلد إلى بلد ومن قرية إلى أخرى حتى
وصل أقصى الصعيد . وقيل أن كرياكوس ملك النوبة لما علم
بذلك غضب من سوء معاملة الوالى للبطريرك والأقباط لأن أهل
النوبة كانوا إلى هذا الوقت باقين على دين النصرانية تابعين
للبطريركية القبطية فجمع جيشاً عرمرماً وسار به إلى مصر
وصار يعيث في البلاد إلى أن صار على مقربة من الفسطاط
فلما علم بذلك عبد الملك بن موسى الوالي إنزعج وتحير في
أمره لعدم إمكانه محاربته نظراً لقلة عساكره وماكانت عليه
البلاد حينئذ من الضعف والإختلال بسبب ظهور أبي العباس

مؤسس الدولة العباسية وأول خلفائها وإشتغال مروان آخر خلفاء الدولة الأموية بمحاربته . فلما علم عبد الملك بن موسى بسبب مجيء ملك النوبة إستدعى البطريرك وأبرأ ذمته من المبلغ الذي كان فرضه عليه وأوعز إليه أن يتوسط في الصلح بينه وبين ملك النوبة فأجاب طلبه ومازال بالملك حتى عاد إلى حيث آتى .

وحدث في أثناء ذلك أن مروان آخر خلفاء الدولة الأموية أتى مصر فارًا من وجه أبي العباس الذي إستعظم أمره ونزع جميع الولايات من يد الأمويين وإذ لم يبق لهم غير مصر بادر مروان بالحضور إليها ليستبقيها له ولكنه لم ينجح في مسعاه فإنه لما وصل إليها وجدها في هياج وإضطراب شديدين بسبب سوء إدارة الولاة وعمال الخراج لما كانوا يأتونه من الجور والظلم والإستبداد وكان قبط الوجه البحري سكان الجهة المعروفة بالبشمور (هي مديرية الدقهلية والمنزلة ودمياط) قاموا على عمال الخراج وقتلوهم فجرد عليهم الوالي عساكره فحاربوهم وإنتصروا عليهم دفعتين وكان القائد للبشموريين رجل قبطي منهم يسمى مينا بن بقيرة فلما رأى ذلك مروان حمل عليهم بعساكره

فقاوموهم وقاتلوهم ولعلمهم أنهم لا يستطيعون الثبات أمام مروان تركوا ميدان القتال وتحصنوا في بلادهم فلم يستطع أن يتعقبهم بسبب علو المياه التي حالت بينه وبينهم وإذ علم أن النصارى يرضخون لمشورة رئيسهم الديني ولا يخالفون له أمرًا إستدعى البطريرك وطلب منه أن ينصح البشموريين ويجذبهم إلى طاعته فكتب لهم رسالة يحثهم فيها على الخضوع والطاعة فلم يذعنوا وأصروا على المقاومة فظن مروان أنه كان يحرضهم سرًا على العصيان وعدم الخضوع فإستعمل معه العنف والشدة وقبض عليه وعلى كثير من الأساقفة والقسوس وسجنهم وهددهم بالقتل إذا إستمر البشموريون على المقاومة وعدم الرضوخ لحكمه فكتب البطريرك والأساقفة رسالة أخرى أبانوا فيها النتائج السيئة التي تعود على الأقباط عمومًا من جراء شق عصا الطاعة ونصحوهم بالتسليم والإمتثال لحكم الله فإن ذلك أولى بهم وحقنًا لدماء إخوانهم المهددين بالقتل إذا لم يذعنوا .

وقبل أن تظهر النتيجة وصلت جيوش أبي العباس إلى مصر وأخذت تشن الغارات وتستولي على البلاد فترك لهم مروا الوجه البحري وذهب إلى الوجه القبلي فصار عساكره ينهبون

ويسلبون أموال النصارى ويهدمون الديارات والكنائس وفيما هو هناك إعتصب أهل طحا [1] وتوقفوا عن دفع الخراج فأرسل إليهم أميرًا من أمرائه فقتل ونفي كثيرًا منهم وإستباح أموالهم وكان عدد سكان هذه المدينة أكثر من عشرين ألف نفس كلهم نصارى وهدم كنائسهم ولم يبق منها غير واحدة كانوا إلتزموا بثلاثة آلاف دينار في نظير بقائها فأعطوا ألفين وعجزوا عن الباقي فجعل ثلثها جامعًا وبعد ذلك حشد جيشًا من أهل الصعيد وأتى به إلى مصر فوجد عساكر أبي العباس على مقربة من الفسطاط فنهبها وأضرم فيها النار وعدى عنها إلى البر الغربي حيث تحصن فيه فلحقه عساكر أبي العباس وحاربوه وهزموه وقتلوه وبموته إنقرضت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية وإستولت على مصر .

ومما يستحق الذكر أن عساكر مروان بينما كانوا يعيثون في البلاد فسادًا وصولوا إلى دير راهبات فدخلوه ونهبوه ووجدوا بين من كن به من الراهبات راهبة حسنة الصورة جميلة المنظر

---

(١) ⲦⲞⲧϨⲞⲧ كانت مدينة عامرة ولما تخربت قامت في موضعها قرية حقيرة تسمى الآن طحا العمودين بمديرية المنيا .

فإختطفوها وأتو بها إلى قائدهم فلكى تخلص من يدهم بدون أن يدنس عرضها دبرت حيلة وذلك أنها لم تُظهر للقائد لا غضبًا ولا كراهة بل ميلاً وإرتياحًا وقالت له أن عندنا في الدير دهنًا إذا دهن به أحد عنقه فلا يؤثر فيه السيف وأخرجت من جيبها زجاجة وقالت هذا هو الدهن ولكي تكون على يقين مما أقوله هوذا أنا أدهن عنقي به وما عليك إلا أن تضربه بسيفك بكل قوتك فلا يمسني ضرر وبعد أن دهنت عنقها قالت له دونك والسيف فتقدم إليها وضربها بسيفه فأزال رأسها فإندهش وندم على ما فعل وعلم أنها لم ترد أن تخلف عهدها إذ نذرت بأن تعيش وتموت عذراء .

ومن المصائب التى حلت أيضًا بالقبط في هذا الزمن أن الروم الذين كانوا لايزالون يحاولون إسترجاع مصر وصلوا بمراكبهم إلى دمياط فجأة ونزلوا بها وقتلوا كثيرًا من سكانها وسكان البلاد المجاورة فكانت هذه مصيبة أخرى عليهم ولو لم تدركهم جنود العرب لأفنوهم عن آخرهم .

هذا ماكان عليه المصريون عمومًا والقبط خصوصًا في زمن الدولة العربية الأموية ومما مر يعلم القارىء أن المصائب

والرزايا التي حلت بالأمة القبطية والشدائد والإضطهادات التي ألمت بها وإن لم تكن من الوجهة الدينية فإنها أفنت خلقًا كثيرًا منهم . فالمغارم وزيادة الجزية حملت كثيرًا منهم على الإستسلام وكذلك القحط والوباء المتواليان ولاسيما الطاعون الذي تفشى في أيام عبد العزيز فإنه فتك فتكًا ذريعًا فتسبب عن كل هذه الأحوال نقص عظيم في عدد هذه الأمة التعيسة الحظ السيئة البخت .

وبإختلاط القبط بالعرب أخذت لغتهم تنحط شيئًا فشيئًا حتى لم يبق منها بتوالي الأيام إلا رسمها وإقتصروا على إستعمالها في الطقوس الكنائسية ولولا ذلك لمحي أثرها بالكلية وما الفضل إلا لأئمة الدين الذين أوهموا الناس أن المحافظة على لغتهم الأصلية ولو بغير المعاملة بها في الأحوال المعيشية من الواجبات الدينية .

أما حالتهم المدنية فكانت في إنحطاط مستمر بسبب النكبات التي كانت تطرأ عليه متوالية فضلاً عن تجريدهم من الإمتيازات التى منحهم إياها عمرو بن العاص حينما فتح بلادهم ولو دامت لهم هذه الإمتيازات والراحة لأمكنهم أن يعيدوا لأنفسهم ما فقدوه من المجد والفخار ولكن لم يمض على شروق شمس

هذه الراحة زمن حتى غربت فأصبحوا يندبون بختهم لما رأوه من العكس وخيبة الأمل .

ومن حسن الحظ أن علاقاتهم الشخصية مع أفراد المسلمين المتوطنين بينهم لم تكن غير مُرضية وأنا لم نر في التاريخ ما يدل على وجود تعصبات دينية بل ربما وجد بين المسلمين من أنصفهم وذبَّ عنهم وقد إحتال الروم على أحد خلفاء هذه الدولة وتحصلوا على أمر منه بإعادة ما كان لهم من الكنائس بمصر قصدًا في نزع إحدى الكنائس من يد الأقباط بدعوى أنها كانت في الأصل ملكًا لهم فأدى ما حصل بين الروم والقبط من النزاع إلى رفع المسألة لقاضى المسلمين للفصل فيها فلم يراع في الحكم غير الحق وأثبت أن الكنيسة ملكًا للقبط حقًا وحكم بعدم جواز نزعها من يدهم وإعطائها لمن لا حق لهم فيها .

القبط في عهد الدولة العباسية

لم تكن نوايا الخلفاء العباسيين لأقباط مصر غير حسنة إلا أن بُعد البلاد عن مركز الخلافة وعدم بقاء الولاة في مناصبهم

جعلهم يستبدون ويعملون في الناس كيفما شاؤوا كما كان يفعل الولاة في أيام الدولة الأموية وبعضهم لعلمه أن منصبه غير باق له لم يكن يهتم إلا بمصلحته الشخصية فلم يمض زمن حتى ساء الحال ثانية فتمرد قبط رشيد وسخا وغيرهما وجاهروا بالعصيان فأرسل إليهم الوالي عساكر فقاموا عليهم وقاتلوهم وهزموهم وردوهم على أعقابهم خاسرين ولما علم بهزيمة عسكره إشتد غضبه على النصارى وإضطهدهم وإلتجأ إلى ما كان يلتجيء إليه غيره من الولاة السالفين وهو هدم كنائسهم فعرض عليه نصارى الفسطاط أن يتركها ويعطوه في نظير ذلك خمسين ألف دينار فلم يرض وأصر على هدمها إذلالاً لهم وإنتقامًا من إخوانهم أقباط سخا ورشيد فهدمها ولما تولى آخر مكانه أذن لهم في بنائها وكان ذلك بمساعدة القاضي ومشورته بحجة أن بناءها أمن عمار البلاد فشكروه على ذلك .

ولعل هذا الوالي هو الذي أشار إليه الأب سويروس بن المقفع أسقف الأشمونين في كتاب تاريخ البطاركة (الذي عني بجمعه ونقله من اللغتين اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية الموجودة نسخته بمتحف لوندره) عند ذكر تاريخ حياة الأنبا مرقس

البطريرك الثامن والأربعين وهذا نص عبارته :

«فلما رأوا أى الأساقفة ووجوه الأقباط) مخاطبة الوالى له (أي البطريرك) وإهتمامه بأمر البيع قال أنبا خايال أسقف مصر الواجب أن نهتم بأمر الكنائس في هذا الوقت لما ظهر من محبة الوالي للنصارى ولما كان الغد عاد البطريرك إلى الوالي فسلم عليه ويجله وأكرمه ورفعه وأجلسه وخاطبه قائلاً (قد قلت لك أمس إني أقضي جميع حوائجك ولم تطلب مني حاجة والآن مهما يكن لك من حاجة فأذكرها فإنها مقضية عندي لمحبتي لك فقال له البطريرك بكلام لين الرب يحفظ أيامك ويزيد في رفعتك وسلطانك . تعلم أن عبدك لم يول على مال ولا خراج بل على الأنفس والبيع فأرغب إلى جلالتك أن لنا هنا كنائس قد هدم الظالم بعضها قبل وصولك إلى مصر فهدم الرب دياره وقطع حياته من على الأرض فإن رأى رأيك فيها أن يتقدم لنا بعمارتها لنصلي فيها وندعي لجلالتك فالأمر لك فأجاب سؤاله وأمر بعمارتها فبنيت جميع كنائس فسطاط مصر» .

وعلى سبيل ذكر الشيء بالشيء نقول أن الأنبا سويروس

هذا كان موجودًا في الجيل الرابع للهجرة في عهد الدولة الفاطمية التي سيأتي ذكرها والكلام عليها وكان عاملاً فاضلاً وهو أول من إعتنى بجمع تاريخ البطاركة السالفين. جمعه من السجلات المكتوبة باللغتين القبطية واليونانية المحفوظة بدير أبي مقار ونقله إلى اللغة العربية وله جملة مؤلفات تدل على تمكنه من العلم والمعرفة وضعها باللغة العربية التي ترجم إليها أيضًا كثيرًا من المؤلفات القبطية واليونانية لفائدة إبناء جلدته الأقباط ولاسيما سكان الفسطاط والقاهرة الذين كانوا قد هجروا بالكلية لغتهم القبطية بسبب إشتغالهم بالدواوين كما سبقت الإشارة وقد عد القس إفرام السرياني [1] في أحد مؤلفاته المسمى (الخريدة النفيسة) إثنى عشر مؤلفًا لهذا الحبر الفاضل جميعها باللغة العربية غير ما لم يقف له على ذكر ولكن من سوء الحظ أننا نسمع عن هذه المؤلفات الثمينة ولم نرها وربما توجد كلها أو بعضها بكتبخانات أوروبا مع غيرها من الكتب القديمة التي إبتاعها سياح الإفرنج بأبخس الأثمان. ولا نقول إلا جزى الله البائع وناقد الثمن خيرًا فإنهما حفظاها من التلف والتلاشي لو

---

(١) الآن أنبا إسيذورس أسقف دير البراموس.

بقيت عند من لا يعرف قيمتها وكم من مؤلفات جليلة وكتب نفيسة وآثار ثمينة توجد بمتاحف وكتبخانات أوروبا وكلها منقولة من عندنا ومع الأسف أن وجهاءنا ورؤساءنا وأفاضلنا وشبابنا يذكرون ذلك ويأسفون على فقد هذه الكنوز الثمينة من بين أيدينا ولم تستفزهم الغيرة بإستبقاء ما بقي منها في حوزتهم والمحافظة عليه والإنتفاع به ومن كان حائزًا على شيء من هذه المؤلفات لا يفرط فيه أبدًا أو إذا طلب منه ينكره وبعضهم يصرح بوجوده ولكن لا يسمح بخروجه من سجنه المؤبد ظنًا منه أنه بخروجه من يده يُفقد مع أنه في الحقيقة مفقود لمنعه عن الغير وإختصاص الحائز عليه دون سواه بلا فائدة ولكن لمثل هؤلاء العذر لأنهم لايقدرون الفائدة العمومية حق قدرها .

ومن سوء الحظ أن هذا الوالي الذي رثى لحال القبط وأذن لهم ببناء ما هدم من كنائسهم وراعى جانبهم لم تطل مدة ولايته أكثر من سنة وخمسة أشهر وعزل وكان ذلك في خلافة هارون الرشيد وهكذا صارت تتقلب على مصر الولاة حتى بلغ عدد من ولى عليها من سنة ١٧٢ إلى سنة ١٧٧ هـ سبعة آخرهم يسمى إسحق بن سليمان الذي لما وصل إلى مصر زاد في

الخراج زيادة أجحفت بحق أهل البلاد فقام عليه سكان الحوف بالوجه البحري وحاربوه وقتل في هذه الواقعة خلق كثير.

وفي سنة ١٨٦ تولى إمارة مصر رجل يسمى الليث بن الفضل فبعث بمساحين يمسحون الأراضي وأمرهم أن ينتقصوا من القصبة أصابع فتظلم أهل الحوف إليه من ذلك فلم يسمع منهم فتجمهروا عربًا وأقباطًا وساروا إلى الفسطاط فخرج إليهم الليث بعسكره وبادرهم بالقتال فهزموه ولكنه تقوى وجمع ما بقي من عساكره وهجم عليهم وهزمهم وإقتفي أثرهم حتى أوصلهم إلى جهة تسمى عيفة وقتل من أهل الحوف خلقًا كثيرًا وقبض على ثمانين من زعمائهم وقطع رؤوسهم وأتى بها إلى الفسطاط وعرضها للناس فكان هذا سببًا لإضطرام نار الفتنة أكثر وإمتداد الثورة إلى أغلب جهات الوجه البحري وإستمرت الحال على هذا المنوال حتى تولى الخلافة عبد الله المأمون بن هارون الرشيد في سنة ١٩٨ هـ – سنة ٨١٣ م. وفي أيامه قام جميع أهل الوجه البحري من أقباط وعرب وإمتنعوا عن دفع الخراج فكان بينهم وبين عساكر الولاة حروب هائلة قتل فيها من الفريقين خلق كثير وإقتدى أقباط الصعيد بأهل الوجه البحري فأصبحت البلاد جميعها في حالة فوضى. ولما بلغ المأمون خبر حال مصر وما

كان من تمرد اهلها وإجتماع كلمتهم على المخالفة ومعاداة الحكومة جزع وخاف عليها فبعث لأهل البلاد رسائل يدعوهم إلى الطاعة لأنه كان مشتغلاً بمحاربة الروم وأرسل هذه الرسائل عن يد مندوبين مخصصوين فلم يجد ذلك نفعًا . ولما إنتهى من حرب الروم وقصد العود إلى بغداد دار الخلافة عرج على مصر فوجدها في حالة يرثى لها والناس في ضنك شديد فسخط على الوالي وكان إسمه عيسى بن منصور وقال له «إن لم يكن هذا الحدث العظيم إلا من سوء فعلك وفعل عمالك حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتم الخبر عني حتى تفاقم الأمر وإشتد البلاء وإضطربت البلاد وأمر بتجريده من ملابسه فنزعت عنه وأخذه بثياب البياض على مرأى الجميع جزاءً له وعبرة لغيره» .

ويقول مؤرخو المسلمين أن المأمون لما كان في مصر ورأى إنتفاض أقباط الوجه البحري حكم بقتل رجالهم وبيع نسائهم وسبي أطفالهم . أما مؤرخو القبط فيقولون أنه لما وصل المأمون إلى مصر ذهب إليه البطريرك وهو حينئذ الأب يوساب فقابله الخليفة بما يليق بمقامه وأكرمه وكلمه في أمر مخالفة أقباط

الوجه البحري وطلب إليه أن ينصحهم ويحذرهم بأن يكتب لهم منشوراً يدعوهم فيه إلى الطاعة حقناً لدمائهم ووعده أن ينظر بنفسه في راحتهم وفيما يشكون منه فلبى البطريرك طلبه وكتب المنشور إمتثالاً لأمره وأرسله فأطاع الناس وسلموا إلا أهل البشمور[1] فلم يقبلوا النصيحة وأبوا إلا المقاومة بدون أن يتبصروا في العواقب فلما بلغ المأمون هذا الخبر حمل عليهم بعساكره فشتت شملهم وفرق جمعهم ودخل بلادهم وقتل رجالهم وسبى نساءهم وأطفالهم وسلب أموالهم وهدم كنائسهم وبالجملة لم يبرح تلك الجهة حتى خرب منازلهم وجعل بلادهم العامرة أطلالاً بالية ولو قبلوا النصيحة لنالوا من لدنه خيراً ونعمة وراحة لكنهم جلبوا على أنفسهم مصيبةً لم يبرأوا منها ومن ثم ذل القبط ولم يتجرأوا على المقاومة .

ولما خمدت نار الفتنة وهدأت الأحوال شرع المأمون في تطييب خواطر الناس فصار يطوف البلاد وأخذ يتفقد أحوال الرعيات بنفسه لتسكين جأشهم وقيل أنه في أثناء تجوله في البلاد لهذه الغاية مر بضيعة تسمى طاء النمل فلم يدخلها لحقارتها

(١) بمديرية الدقهلية .

ولما تجاوزها خرجت إليه عجوز قبطية تسمى ماريا صاحبة القرية وأخذت تصيح على المأمون مستغيثة فظنها متظلمة فوقف لها وسأل عما تريد فقالت يا أمير المؤمنين نزلت في كل ضيعة وتجاوزت ضيعتى والقبط تعيرنى بذلك فأتوسل إليك أن تشرفني بحلولك في ضيعتي ليكون لي ولعقبي الشرف ولا تشمت بي الأعداء فأجاب المأمون طلبها وثنى عنان فرسه إلى قريتها ولما نزل بها جاء ولدها إلى صاحب المطبخ وسأله كم يحتاج من الغنم والدجاج والفراخ والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع وغير ذلك مما جرت به عادته فأحضره إليه وكان مع المأمون أخوه المعتصم وإبنه العباس فقدمت له ولجميع من بمعيته من فاخر الطعام شيئاً كثيراً حتى إستعظم ذلك فلما أصبح الصباح وقد عزم المأمون على الرحيل حضرت إليه ومعها عشر وصائف في يد كل وصيفة طبق فلما رآها المأمون من بُعد قال لمن معه قد جاءتكم القبطية بهدية ريفية فلما وضعت ذلك بين يديه إذا في كل طبق كيس من ذهب فإستحسن ذلك وأمرها بإعادته فقالت يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا فقال لها إن في بعض ما صنعت لكفاية ولا نحب التثقيل عليك فرُدي مالك بارك الله

فيك فلم ترض وألحت عليه بقبول المال فلم يسعه إلا إجابة طلبها ثم سألها من أين لك كل هذا فأخذت قطعة من الأرض وقالت يا أمير المؤمنين هذا وأشارت إلى الذهب من هذا وأشارت إلى الطينة التى تناولتها من الأرض ثم من عدلك ياأمير المؤمنين وعندي من هذا شيء كثير فأمر أن يؤخذ منها وأقطعها عدة ضياع وأقطعها من قريتها مائتي فدان بغير خراج وإنصرف متعجبًا من كبر مروءتها وسعة حالها .

ومكث المأمون في مصر نحو شهرين ولم يبرحها حتى رتب حكومتها ونظم إدارتها ونظر في راحة أهلها فسامحهم في الأموال التي كانت باقية عليهم ولما عاد إلى بغداد بلغه أن الدواوين سارت على خطة لا يرضاها من حيث قبول الزيادات في الأراضى ونزعها من يد من كابد مشقات وتحمل نفقات جسيمة في إصلاحها وتسليمها لم يدفع الزيادة من غير كلفة ولا تعب فأصدر أوامره بعدم قبول هذه الزيادات ما دام يكون الناس قائمين بدفع ما عليهم من الأموال .

ولما كان المأمون بمصر أعطى البطريرك وهو الأب يوساب السالف الذكر فرمانًا بخط يده بإقراره رئيسًا عامًا روحانيًا على

الأمة القبطية وأن له السلطة العامة على جميع كنائس مصر وخدامها . وحدث أنه حصل نزاع ومخاصمة بين البطريرك المذكور والأب مينا أسقف مصر لتعظمه وإستبداده وإستقلاله بالأعمال وتسييرها كيمفا شاء وأراد بغير معارض ولا مراجع إعتمادًا على الفرمان الذي أعطاه له الخليفة فجذب الأسقف إليه بعض الأساقفة والأراخنة فتوافقوا على تنزيله ويؤخذ من قبول بعضهم أنه كان بينه وبينهم عداوة من قبل وذلك لأن بعض الأساقفة والأراخنة وفي مقدمتهم أسقف مصر كانوا يودون تقليد رجل من غير الطغمة الرهبانية من ذوى الثروة والوجاهة فلم يوافقهم الأساقفة الآخرون وباقي الشعب وبعد نزاع إستقر الرأي على رسامة الأب يوساب المذكور وقيل أن قاضي مصر طلب منه نقودًا فلم يجب طلبه فأثر هذا في القاضي وبقيت في نفسه حاجة من جهة البطريرك فلما علم بذلك أخصامه ساروا إلى القاضي ووعدوه بأن يعطوه ما يطلبه إذا ساعدهم على نوال مرغوبهم بعزله وتقليد من يريدون تقليده مكانه وقدموا له تقريرًا في حقه يشتمل على جملة بنود مدعي أنه خالف في إجرائها

القانون فعقد القاضي مجلسًا وإستدعى البطريرك وقال له بحضور أخصامه إن رؤساء أُمتك يشكون من سوء تصرفك ومخالفتك القوانين المرعية ولا يريدون أن تكون رئيسًا عليهم فالأولى بك أن تستعفي وتتنازل عن منصبك إختيارًا قبل أن تكره فأجابه البطريرك بجواب يشف عن تعاظمه وتشامخه حقيقة قائلا إن رئاستي ليست من قبل هؤلاء بل من الله وإقرار الخليفة وتصديق أخيه المعتصم فإذا كان لهم عليّ شكوى فما عليهم إلا أن يرفعوها للخليفة الذي أقرني في مركزي ومنصبي وأنا مستعد لتفنيد أقوالهم وإدعاءاتهم وحينئذ أُوقع عليهم القصاص بما يستحقون بمقتضى القوانين وبما لي من السلطة التي يخولها لي الفرمان الذي بيدي. فلما سمع القاضي ذلك طلب منه أن يطلعه على الفرمان الذي يحتج به فأحضره فلم يقدر القاضي أن يحكم عليه بشيء وأخلى سبيله ولكنه لم يخلص من هذه الورطة حتى وقع في أشد منها وذلك أن أخصامه وشوا بحقه للقاضي أنه يبتاع شبانًا من النوبيين والحبشان المسلمين ويكرههم على النصرانية ويعلمهم الديانة المسيحية ليستخدمهم كمرسلين في أفريقيا فهجم القاضي على الدار البطريركية فوجد الشبان كما قالوا ولما سُئل البطريرك عن هذه الجراءة قال أنهم مبعوثون له

من عند ملوك النوبة ليتعلموا تحت رعايته قواعد الإيمان المسيحي فلم يسمع منه هذا القول وأخذ الشبان بالرغم عنه ونفاهم إلى بلاد المسلمين وعاش البطريرك كل أيام حياته في نزاع بسبب ما كان بينه وبين الأساقفة ووجهاء الأمة من المخاصمة حتى مات .

وتولى على خراج مصر رجل يسمى إبن المدبر[1] فزاد الضرائب على النصارى وأحصى الرهبان والقسوس ووضع الجزية عليهم بعد أن كانت رُفعت عنهم وألزم البطريرك بدفع ما فرض عليهم أكثر من ستة آلاف دينار في السنة فإضطر البطريرك أن يفرض عوائد على الأساقفة وأفراد الناس ليتمكن من دفع الغرامات فكان الناس يدفعون ضرائب للحكومة وضرائب للأساقفة وضرائب للبطريكخانة فحصلت لهم مضايقات شديدة فآثر كثير منهم الإسلام تخلصاً من هذه الشدائد .

وفي هذه الأثناء قام أهل بغداد على الخليفة وخلعوه وولوا إبن عمه المعتز بالله مكانه فتشاور القبط فيما بينهم عما يفعلونه للتخلص من الضرائب والمغارم التي فرضها عليهم إبن المدبر

(١) كان ظالمًا غشومًا لا يطابق إسمه مسماه .

فإستقر الرأى على تعيين إثنين منهم ليتوجها إلى مدينة بغداد ويعرضا على المعتز ما حل بأهل البلاد من الشدائد والضيقات وما كان عليه القبط من سوء الحال بسبب مظالم إبن المدبر وإنتخبوا لهذا الغرض إثنين من كبار الأمة غير المتوظفين في الديوان أحدهما يسمى ساويرس والثاني إبراهيم وأصحبهما البطريرك بكتاب منه للخليفة أبان فيه مظالم العمال وإشتدادهم على النصارى وهضم جانبهم ومخالفتهم العهد بزيادة الجزية وربطها على الرهبان والقسوس وسائر خدمة الدين بدون إستثناء وربط الأموال على أوقاف الكنائس والديارات ولدى وصولهما إلى بغداد قدما للخليفة كتاب البطريرك وشرحا له ما يقاسيه الأقباط من ثقل نير الحكام والولاة وتوسلا إليه أن يرثي لحال رعاياه ويرمقهم بعين مراحمه فأجاب سؤلهما وسلمهما أمراً بمعافاة الرهبان وسائر خدمة الدين من الجزية وتخفيفها عن أفراد أهل الذمة بما لا يزيد عما صولحوا عليه ومعاملتهم بمقتضى العهد الذي بيدهم ورفع الأموال عن أوقاف الكنائس والديارات وعدم التعرض لهم في عوائدهم وطقوسهم الدينية ولما إستلم هذا الأمر عادا إلى مصر وسلماه للوالي فلم يجرأ على تأخير تنفيذه ولكن

لم يمض زمن حتى أجبر المعتز على التنازل عن الخلافة وخلفه المهتدي فتغيرت الاحوال . ولما شعر أحد المندوبين وهو المسمى إبراهيم بتغير الأحوال لتغيير الخلفاء ونبذوا الوالي وعماله وأن أمر الخليفة المعزول ظهريًا أخذ على عهدته أن يعود ثانيًا إلى بغداد وكان قد إتخذ له في رحلته الأولى أصدقاء من المقربين وأصحاب الكلمة النافذة في الديوان وبواسطتهم تحصل على أمر من الخليفة المهتدي بتأييد الأمر الذي أصدره الخليفة السابق والعمل بمقتضاه فأخذه وعاد إلى مصر فرحًا مسرورًا فهناه إخوانه بهذا الفوز العظيم وحسبوا ذلك فضلاً منه وخدمة جليلة لإبناء بلدته فعظمت منزلته عندهم .

وهكذا إرتاح الأقباط قليلاً من الزمن فإنقطعت عنهم معاكسة الولاة ومضايقتهم لهم وكفوا عن إجراء ما إعتادوا عليه من إستنزاف أموالهم بإلزامهم تارة بدفع غرامات وأخرى بزيادة الجزية إلى حد يتعذر عليهم فيه دفعها وإلقاء القبض في بعض الأحيان على بطريركهم وإعتقاله وعدم إخلاء سبيله إلا بدفع مبالغ طائلة وإذ لم يكن لديه ما يفي بالمطلوب يضطر وجهاء وأفراد الأمة بتوزيعها على أنفسهم ودفعها حفظًا لكرامة رئيسهم

وعدم إهانته . وقرأت في بعض التواريخ الإفرنجية أنه حكم مرة بضرب أحد البطاركة مائتا جلدة أمام بطريكخانته على مرأى الناس فبذل الأقباط للوالي مبالغ وافرة حتى لايهان رئيسهم هذه الإهانة الشنيعة ولكنني لم أعثر على ذكر هذه الحادثة في تواريخ الأقباط أو المسلمين التي وصلت إليها يدي .

وهذه الراحة وإن لم تطل مدتها لم يهنأ بها الأقباط ولا سيما سكان العاصمة والإسكندرية لأن عدو الخير وسوس لبعض الإكليروس أن يوقعوا أئمتهم في شرك إثارة الفتن ضدهم وكان أغلب هذه الفتن تصدر من بعض الرهبان لعدم موافقة الرؤساء على تقليدهم الوظائف الدينية العالية إما لعدم لياقتهم رغمًا عن المبالغ التي كانوا يعدونهم بنقدها لو أُجيبوا لطلباتهم أو لغير ذلك . فمن ذلك أن أحد الرهبان طلب من البطريرك أن يعينه أسقفًا وتعهد له بدفع مبلغ إذا نال مأربه فلم يجب طلبه إما لعدم لياقته أو لعدم رضاءه البطريرك بتدنيس ذمته وتلويثها لمنح مثل هذه الوظيفة بثمن سواء كان الطالب أهلاً أو غير أهل لها فأراد الراهب أن ينتقم لنفسه فزور سندًا على البطريرك بمبلغ جسيم جدًا بإتفاقه مع راهب آخر بشهادة بعض شهود من

المسلمين لا يعرفون البطريرك ذاتيًا وذلك أن الراهب الآخر إدعى أنه هو البطريرك وأنه مُقر بأن المبلغ الذي في السند هو في ذمته حقيقة وعلى هذا الإقرار شهد الشهود وأخذ الراهب السند وقدمه للقاضي ليخلص له حقه من رئيسه. فلما شهد بذلك بعض كبار المستخدمين الأقباط الذين لهم دالة على القاضي سعوا في إظهار الحقيقة وبواسطتهم إتضح للقاضي أن هذا إفتراء وتزوير. وآخر إدعى على البطريرك أنه يعرف الكيمياء وعنده من الذهب والفضة ما لايحصى. وآخر عمل تقريرًا وقدمه لمتولي الخراج وإدعى فيه أن للبطريرك أموالاً وثروة عظيمة لا حاجة له بها.

فأرسل العامل يحضره من الإسكندرية على غير صورة فمات في الطريق لأنه كان هرمًا ضئيلا. وإدعى راهب آخر بما هو أعظم من هذا جميعه بقوله أن البطريرك إغتصب بعضًا من المسلمين وردهم عن الإسلام جبرًا وجعلهم نصارى ثم صيرهم رهبانًا ولكي يؤكد للوالي صدق أقواله وصحة دعواه طلب منه أن يسير معه جندًا إلى أحد الديارات ليحضر منها من كان في الأصل مسلمًا ثم أكرهه البطريرك على النصرانية وصيره راهبًا ولما وصل إلى الدير أخذ يملق بعض رهبانه ليجذبهم إليه فلم

يوافقوه فأمر الجند بالقبض عليهم وأتوا بهم إلى الوالي فأقام الرهبان الأدلة القاطعة والبينات المثبتة أنهم مسيحيون أولاد مسيحيين فجازى الوالي الراهب بمآ يستحق وصرف الرهبان ليذهبوا إلى ديرهم. وحدث أن أحد البطاركة المسمى ميخائيل الثالث قطع أسقف سخا بالوجه البحري وعزله من منصبه لأمر يستوجب ذلك وولى آخر مكانه فلما يئس الأسقف المقطوع من عودته إلى منصبه وعرف أنه فقد مركزه لامحالة وأصبح ذليلاً مرذولاً قصد الإنتقام من البطريرك وكان الحاكم على مصر حينئذ أحمد بن طولون وكان على أهبة القيام إلى سوريا للحرب وفي إحتياج للأموال للصرف منها على الجيش ونفقات الحرب فلما علم بذلك الأسقف المعزول ذهب إليه وأخذ يهون الأمر عليه قائلاً أن بطريرك الأقباط عنده من الأموال والثروة ما يكفي لهذه النفقات وما هو أكثر منها وأن مثله لا يحتاج لغير القوت واللباس وأنه لا يتأخر عن المساعدة ببعض ما عنده لو طلب منه ذلك فإستدعى أحمد بن طولون البطريرك وقال له أنت تعلم أن مساعدتنا للخليفة بالرجال والأموال أمر واجب ولايخفي عليك الحروب القائمة علينا بسوريا وإستعدادنا للقيام بها وإحتياجنا

للنفقات وقد علمت أنك ذا ثروة وافرة ومثلك لا يحتاج لغير الطعام واللباس وقد إستدعيتك بالإكرام لتدفع لي عن طيب خاطر مالديك لنتساعد به فنحظى من الخليفة بالرضى ومنى بالمنة الجزيلة . فلما سمع البطريرك ما قاله أحمد بن طولون علم أن هذه مكيدة عملها له الأسقف المعزول وشركًا نصبه له ليوقعه فيه فأراد أن يحتج ويدفع عن نفسه هذه التهمة الباطلة ويبن لأحمد بن طولون فسادها وحقيقة حال من إتهمه بها فلم يقبل منه إعتذارًا ولم يسمع كلامًا وقبض عليه وزجه في السجن وكان في الديوان كاتبان مقربان لأحمد أحدهما يسمى يوحنا والآخر إبراهيم وكلاهما ولدا موسى كاتب سر بن طولون فسعيا في تخليصه فلم يستطيع وكان لأحمد وزير يسمى أحمد الماريني وكان في ديوانه كاتبان وهما يوحنا وإبنه مقاريوس فتوقعا عليه وطلبا إليه أن يكشف للحاكم حقيقة الأمر ويسعى في إنقاذ البطريرك من السجن فأجاب طلبهما وذهب بهما إلى إبن طولون وألح عليه أن يطلق سبيله فقبل منه على شرط أن كاتبيه يضمناه بأن يدفع عشرين ألف دينار تدفع على قسطين فكتب البطريرك على نفسه صكًا بهذا المبلغ لكنه لم يدفع القسط الأول إلا بعد

العناء العظيم والإستقراض وبيع بعض أوقاف الكنيسة[1] وكانت جملة أبروشيات خالية فعين لها أساقفة وفرض على كل واحد منهم مبلغًا وافرًا ليتساعد به على دفع الغرامة المطلوبة منه فلم يستطيعوا وفاء جميع ما فرض عليهم وبعضهم رفض بالكلية وفيما هو متحير في أمره لايدرى ماذا يصنع حل ميعاد القسط الثانى وإذ لم يكن قادرًا على دفعه رغمًا عن كل المساعى التى بذلها والمشتقات التى تحملها قبض عليه أحمد بن طولون وزجه في السجن ثانية وكان له تلميذ شماس يسمى إبن المنذر فلم يفارقه مدة السجن في المرة الأولى والثانية.

وبقى البطريرك في السجن إلى أن توفي أحمد بن طولون بعد قليل وتولى إبنه خمارويه مكانه فلم يستحسن ما صنعه أبوه برئيس أمة هي في الحقيقة أهل البلاد وعليها مدار عمرانها فإستدعى البطريرك إليه وطيب خاطره وسامحه بما كان باقيًا عليه فنال بذلك شكرجميع الأقباط.

---

[1] ومما باعه في هذه الحادثة كنيسة بالفسطاط (مصر القديمة) إبتاعها منه اليهود ولم تزل في حوزتهم الآن. وباعهم أيضًا أرضًا بالبساتين لدفن موتاهم بها .ي

وكان على أبروشية طحا أسقف يسمى الأب باخوم نال بعقله وتدبيره وحسن سيره وسيرته ثقة خمارويه الذي كان لا يرفض له طلبًا فنال القبط بواسطة هذا الأسقف راحة تامة ومزايا جمة وكذلك أحمد بن طولون وإن يكن عامل البطريرك بما لا يليق إلا أنه أراح المصريين كثيرًا فرفع ما كان باقيًا عليهم من الضرائب الغير إعتيادية التى فرضها إبن المدبر وخفض الضرائب عن الأطيان فإنتفع الأقباط من ذلك كثيرًا وإتسعت في أيامه الزراعة وإستقامت الأحوال وشيدت المبانى العالية والقصور الشاهقة وهو الذي أسس بمصر الجهة المعروفة الآن بطولون وبنى الجامع الشهير المسمى بإسمه الموجود أثره إلى الآن. وقيل أنه لما عزم على بنائه أراد أن يجعلها أعظم ما بني من الجوامع في مصر إلى ذاك الحين بأن يقيمه على ثلثمائة عمود من الرخام فقيل له أن مثل هذا لا يمكن الحصول عليه إلا إذا هدمت كنائس ومعابد النصارى فعدل عن رأيه حتى لا يحرموا من معابدهم ولكن بقي مترددًا في هذا الأمر. وكان يوجد مهندس نصراني يسمى إبن كاتب الفرغانى عارف بفن الهندسة وصنعة البناء كان ألقاه أحمد بن طولون في السجن لتهمة بعد أن بنى له

مقياساً للنيل وبقي فيه مدة حتى نسيه بالمرة فلما بلغ المهندس ما كان من رغبة إبن طولون وتردده كتب إليه عريضة وهو في السجن بما يفيد إقتداره على إتمام مشروعه وإستعداده لتنفيذ مرغوبه بغير إحتياج لأكثر من عمودين يجعلهما في القبلة فلما قرأ العريضة تذكره وأمر بإطلاقه من السجن وإستحضره أمامه وخلع عليه وعهد إليه في بناء الجامع على الكيفية التي رسمها ووافق عليها ولكن لم يتم البناء حتى غدر به وقتله لسبب طفيف جداً . ومن بعد أحمد بن طولون وخمارويه إبنه أي من سنة ٢٧٠ إلى سنة ٣٢٣ هـ الموافقة سنة ٩٤٦م . لم يذكر التاريخ شيئاً عن الأقباط غير ما ذكرناه . وبعد موت خمارويه أخذت الدولة الطولونية في الإنحطاط فكانت مصر ميداناً للمنازعات والتقلبات والمخاصمات وإنتهى الأمر بإنقراض هذه الدولة التي لم تطل مدتها أكثر من مائة وخمسين سنة وقامت دولة غيرها تسمى الدولة الإخشيدية نسبة إلى محمد الإخشيد مؤسسها فحكمتها بإسم الدولة العباسية مدة أربع وثلاثين سنة من سنة ٣٢٣ إلى ٣٥٨هـ . (٩٣٤ إلى سنة ٩٦٨م) وعدد ملوكها خمسة أشهرهم محمد الإخشيد أصله من فرغانة بآسيا

الصغرى وإخشيد في لغة فرغانة معناه ملك الملوك ولقب بهذا اللقب لأن أصله من أولاد ملوكها الذين أخذوا أسرى ومدة حكمه إحدى عشر سنة وثلاثة شهور وكان حازمًا شجاعًا حسن التدبير إلا أن بعض مؤرخي المسيحيين ينسب إليه الجور لأنه كان يجمع منهم أموالاً يتساعد بها على الحروب ولكن أحد المؤرخين المعاصرين له قال أنه كان يرد إليهم ما يأخذه منهم.

وقبل أن نختم هذا الباب نذكر طرفًا عن حالة مصر المالية فنقول أنه لما فتحها عمرو بن العاص لم يَجْب منها أقل من إثنى عشر مليونًا من الدنانير في السنة ولم يكن الخليفة راضيًا على ذلك ولما تولى إمارتها عبد الله بن سعد جبي منها أربعة عشر مليونًا ولكن قد أخذ هذا القدر يتناقص شيئًا فشيئًا من سنة إلى أخرى حتى لم يجب منها في زمن الخلفاء العباسيين أكثر من ثلاثة ملايين ولما تولاها أحمد بن طولون جبى منها نحو أربعة ملايين بعد الذي أنفقه على إصلاح الجسور والقناطر وسبب هذا النقص الفاحش سوء حال البلاد وأهلها وتعطيل الزراعة وكساد التجارة بسبب الحروب والفتن الداخلية وسوء تدبير الولاة وشره متوليى الخراج وطمعهم في أموال الناس وقتل النفوس

لأدنى سبب حتى نقص عدد السكان نقصًا مبينًا وبعد أن كان عدد الذين كانوا يدفعون الجزية من القبط بحسب الإحصاء الذي صار في أيام عمرو بن العاص ثمانية ملايين نقص بعد ذلك إلى ستة فخمسة فأقل من ذلك .

وفي أثناء ذلك ظهرت ببلاد الغرب دولة إسلامية جديدة سميت بالدولة الفاطمية نسبة إلى فاطمة إبنة النبى الذين يدعون أنهم من سلالتها فأصبحت الدولة الإسلامية منقسمة إلى ثلاث دول على كل منها خليفة يدعى الأولوية بالخلافة وهو بنو أمية أو الأمويين في الأندلس وبنو العباس في بغداد والفاطميون في قيروان . ولما مات محمد الأخشيد لم يقم بعده من أولاده من يحسن التدبير وكذلك الدولة العباسية أخذت تنحط وتتجرد من ولاياتها حتى لم يبق لها إلا بغداد وبعض ضواحيها ومصر فإنتهز أبو محمد عبيد الله أول الخلفاء الفاطميين ضعف الدولة العباسية فرصة مناسبة لفتح مصر فبعث إليها بأربعين ألف مقاتل فلم ينجحوا وعادوا على أعقابهم خاسرين .

ولما مات أبو محمد عبيد الله وتولى الخلافة بعده أبو القاسم ولده جهز جيشًا وأرسله إلى مصر فإستولى على

الإسكندرية والفيوم وقسمًا من الوجه القبلي وبقيت في يدهم إلى أن تولى المعز لدين الله بعد موت أبي القاسم فجهز جيشًا جرارًا وسيره إلى مصر بقيادة جوهر قائد جيوشه وهو مملوك رومي الأصل رباه المعز لدين الله وسماه بأبي الحسن فصار يتنقل في الوظائف والمراتب العالية إلى أن صار في رتبة وزير وتقلد قيادة الجيوش. فقام جوهر بجيشه قاصداً مصر فسار نحو الصعيد وإستحوز عليه بأكمله وإتفق أن العائلة الإخشيدية إنقسمت على نفسها فلما رأى رجال الدولة ذلك أخذوا يستنجدون بالفاطميين فبادر جوهر بالحضور إلى الوجه البحري ولما وصل إلى الجيزة أتاه الأمراء وأعيان الأهالي وصحبوه إلى الفسطاط فدخلها بموكب حافل في يوم الثلاثاء ١٢ رمضان سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩م) وإستولى عليها بغير قتال فأصبحت جميع مصر بأسرها في قبضة يده.

ولما توطد قدم جوهر في مصر ورأى ما كانت عليه البلاد من العز والفخار لم يرد أن تكون الفسطاط عاصمة لمملكة سيده فعمد إلى بناء مدينة جديدة تكون عاصمة الديار المصرية ومقر الخلافة الفاطمية فإختط مدينة القاهرة وشرع في إستجلاب خواطر المصريين بأن خفض الضرائب وإهتم بفتح

الترع وإقامة الجسور وترميم القناطر فإتسع نطاق الزراعة وراجت التجارة ومال إليه الناس بكل قلوبهم . ولما أتم جوهر بناء القاهرة وشيد بها قصرين عظيمين أرسل للخليفة المعز لدين الله يعلمه بذلك فقام قاصداً إياها ليجعلها دار الخلافة وقاعدة مملكته حيث وصلها في اليوم الخامس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ الموافقة سنة ٩٧٢م . ونزل في القصرين اللذين أعدهما له .

القبط في عهد الدولة الفاطمية

لما إستولى الفاطميون على مصر وإنتقل إليها المعز لدين الله وإستقر بها وجعلها دار الخلافة الفاطمية كما تقدم كان عدد القبط بها لا زال عظيمًا رغمًا عن المصائب والبلايا التي حلت بهم من وقت إلى آخر لا يقل عن خمسة ملايين وكانوا هم أهل البلاد وذويها والمسلطين فيها وبيدهم مقاليد الأمور وأعمال الدواوين والتاجرة والزراعة والصنائع على إختلاف أنواعها .

ولما تولى أحمد بن طولون على مصر وإستقل بها وصارت جميع الأعمال العسكرية والإدارية والمالية في يده غير نظام

حكومتها وسيرها على طريقة أحسن مما كانت عليه قبلاً فأول شيء أتاه ونال به ثقة المصريين عمومًا إلغاء الضرائب الغير إعتيادية التى ضربها عليهم إبن المدبر وكانت تسمى بالخراج الهلالي وهي ضرائب فرضها على جميع حاصلات ومصنوعات البلاد والأملاك وكان يحصلها مع الضرائب المربوطة على الأطيان الزراعية . ولما لم يأمن إبن المدبر على نفسه من إبن طولون وإنسحب من مصر بأمر الخليفة لم يشأ إبن طولون تولية عمال مستقلين غيره من المسلمين على الخراج بل عين عمالاً مخصوصين من أهل البلاد تحت إدارته مباشرة وأناطهم بتحصيله فكانت هذه خطوة جديدة للأقباط خصوصًا بالنسبة لدخلوهم في الأعمال الإدارية بعد أن كادوا يحرمون منها والمصريين عمومًا لما في ذلك من راحة . وفرض أيضًا على هؤلاء العمال الإداريين ملاحظة إصلاح الجسور والقناطر وكل ما تعود منه راحة المزارعين وتوسيع نطاق الزراعة ولا يخفي على الناقد البصير ما في ذلك من الحكمة وحسن التدبير والسياسة لأن صاحب الدار أدرى بما فيها فنمى في أيامه الإيراد وتوفرت النقود في الخزينة أكثر من ذي قبل رغمًا عما رفعه من الضرائب الأخرى التي مع إلزام

الأهالي بها لم يتيسر للولاة الذين قبله تحصيل ما كان يحصله بدونهم لما كان يأتيه من العدل وحسن المعاملة وعدم الخروج عن جادة الصواب. ولما رأى الأهالي أنهم في إطمئنان على أنفسهم إستغلوا الأرض فتيسر لديهم الخراج وصاروا يدفعونه عن طيب خاطر بلا عناء ولا تعب وبالجملة فإن المصريين عمومًا لم يروا من بعد عمرو بن العاص أيامًا أحسن من أيام بن طولون والدولتين الفاطمية والأيوبية بصرف النظر عما أصابهم على يد الحاكم بأمر الله أحد الخلفاء الفاطميين كما سنرى.

ولما طالت مدة راحة الأقباط نوعًا وتحسنت حالهم أخذوا يشيدون الإبنية العالية والدور الواسعة ولاسيما الديارات والكنائس فإنهم صرفوا كل جهدهم في عمارتها وتشييدها في جهات مختلفة خصوصًا في الجهات المطلقة الهواء وأوقفوا عليها الأوقاف الواسعة وأحاطوها بالبساتين النضرة حتى أن بعض الخلفاء كانوا يذهبون أحيانًا إلى تلك الديارات لترويح النفس والراحة من عناء الأشغال والتمتع بنضارة حدائقها والتعاطي مما بها من الخمر النقي العتيق حتى أن بعض أدباء وأفاضل المسلمين الذين كانوا موجودين في ذاك العصر وضعوا

لها كتبًا مخصوصة ضمنوها أوصافها وما كانت عليه وممن كتب عنها أبو الحسين علي بن محمد المعروف بالشابشتي أمين مكتبة العزيز بالله أحد خلفاء الدولة الفاطمية وأبو بكر محمد الخالدي وأبو عثمان سعد الخالدي وأبو الفرج الأصفهاني.

وكانت تقام بهذه الديارات أعياد في أيام معلومة من كل سنة فكان كبار وميسورو الأقباط وغيرهم يذهبون إليها أفواجًا ويقيمون بها أيامًا ويذبحون الذبائح ويولمون الولائم ويصرفون مدة إقامتهم بها في سرور وإنشراح كما هو جار إلى الآن في مولد الست دميانة وغيرها. وكان للمعز لدين الله وزير إسمه يعقوب بن كلس كان يهوديًا وأسلم فإستوزره وقربه إليه وكان بين رجال الحكومة أيضًا رجل قبطي يدعى قزمان بن مينا الملقب بأبي اليُمن. فلما رأى يعقوب بن كلس أن الخليفة العزيز بالله الذي تولى بعد المعز يميل إليه داخلته غيرة من جهة أبي اليمن وخشي أن يأتي وقت يعزله الخليفة من منصبه ويوليه مكانه وإتفق أن ولاية فلسطين التابعة لمصر حينئذ كانت خالية من حاكم بها والخليفة يفكر في من يصلح لتوليته فإنتهز يعقوب الوزير هذه فرصة مناسبة لإبعاده عن مصر وسعى في إقناع العزيز أنه لا

يصلح لها سوى أبي اليمن لما هو معهود فيه من الإستقامة وحسن السياسة والتدبير وطهارة الذمة فإستحسن الخليفة رأيه وولى أبا اليمن على فلسطين وسيره إليها فقام بإدارة أعمالها خير قيام. لكن حدث بعد ذلك أن رجلا يسمى هفتكين من بغداد طمع في غزو الشام فأغار عليها وإستولى على جزء عظيم منها ونهبها وهزم الجيوش المصرية وإنتصر عليها. فلما شعر بذلك أبو اليمن خشي أن يحل به ما حل بغيره فأخذ ما كان عنده من النقود وغيرها مما هو حق المملكة وكان يبلغ مقداره نحو مائتي ألف دينار وأخفاها في دير في جبل بعيد وكان قائد العساكر المصرية هو جوهر قائد الجيوش فإضطر هذا أن يعقد صلحًا مع هفتكين على شروط إتفقا عليها فلما علم يعقوب بن كلس بهذا الصلح جعله سببًا لبلوغ مآربة فأخذ يرمي أبا اليمن بكل كريهة وينسبه للخيانة ويحرض العزيز على قتله ثم إتفق أن العزيز قام بنفسه لمحاربة هفكتين فإنتصر عليه وهزمه فتقدم إليه أبو اليمن وأعلمه بما كان من أمره وأمر الأموال التي كانت بعهدته واحضرها من مخبأها وسلمها له فشكره العزيز على أمانته ورفع مقامه وأقره في وظيفته وعاش أبو اليمن بتولاً حتى مات وكان ذا ثروة

عظيمة وقبل عودته إلى فلسطين في المرة الثانية أعطى معظم أمواله إلى البطريرك لينفق منها على الفقراء وأهل الخصاصة.
وكان بين كبار رجال حكومة الخليفة المعز لدين الله نصراني آخر يسمى عيسى بن بسطوروس لبث في خدمة الحكومة إلى أن مات العزيز وتولى الخلافة بعده إبنه المنصور الملقب بالحاكم بأمر الله فعزله ثم قبض عليه وقتله.

وبينما كان القبط متمتعين بالراحة والرفاهية في ظل الدولة الفاطمية متقلدين المناصب الرفيعة ولهم الكلمة النافذة في دواوين الحكومة ناسين الأتعاب والمصائب التي كانت تتوالى عليهم بسبب طمع الولاة ومتولي الخراج حدث بينهم (أي الأقباط) شقاق داخلي شوش راحتهم وكدر صفاءهم نوعًا وكاد يفضي بهم إلى ما لاتحمد عواقبه وذلك أنهم كانوا قد ألفوا عادة التسري وإذ لم يجدوا من الأئمة من يعارضهم فيها أو ينكرها عليهم إما لعدم معرفة بعضهم بها وإشتغال البعض الآخر في أغلب الأحيان بجمع الغرامات الطائلة التي كان يضربها عليهم الحكام السالفون وتشاغلهم بذلك عن معرفة ما هو جارٍ بين الشعب أو لإعتبارهم أنها ليست من المحرمات أو تساهلاً

منهم للتعويض عن النقص الذي حصل بسبب قتل البعض وإستسلام البعض أو غير ذلك من الأسباب التي أمسك المؤرخون عن ذكرها فصارت تمتد هذه العادة بينهم وتنتشر شيئًا فشيئًا حتى أصبحت شائعة عندهم ولما تولى الأب إفرام السرياني منصب البطريركية أنكر عليهم هذه العادة وطلب إليهم أن يقلعوا عنها وإذ كانت قد تأصلت فيهم وإعتادوا عليها وألفوها ومضى على إتباعهم إياها زمن طويل لم يسهل عليهم التنازل عنها مرة واحدة فلم يلق منهم سوى الإباء والمقاومة وعدم الرضوخ وكان من أعظم المقاومين له رجل مشهور بالغنى ونفوذ الكلمة يسمى أبا السرور فتهدده البطريرك بالقطع إذا لم يذعن لأمره ويقلع عن هذه العادة الذميمة وألا يكون حجر عثرة لإخوانه والذين على شاكلته فخشي أبو السرور سوء العاقبة لما ينجم عن إصراره من الفشل فتظاهر بالإمتثال وبعد قليل توفي البطريرك وقيل أن أبا السرور سبب موته لأنه دس له السم والله أعلم.

وكان يعقوب بن كلس الوزير عاملاً على خذل النصارى بتفهيم الخليفة أنهم ليسوا على شيء من الدين وإتفق أن الخليفة إستدعى البطريرك يومًا ما لحاجة الوزير بحضرته فلما ذهب

لهذا القصد أخذ معه العالم ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين (الذي مر ذكره) فناقش الوزير الأسقف حتى إنجلت الحقيقة بالفوز على الوزير وإقتنع الخليفة بأن النصارى ليسوا على ما كان يفتري به عليهم الوزير.

وبعد الأب إفرام تولى البطريركية الأب فيلوثاؤس ومع أن هذا البطريرك لم يعارض الشعب في عادة التسري التي كان يستقبحها سلفه كان مبغوضاً من أمته لأنه لم يهتم بغير صالح شخصه ومما زادهم كراهة له أنه كان رجلاً شهوانيًا راخي العنان للشهوات الجسدية والملاذ العالمية فنقموا عليه وإعتزلوه حتى مات.

ومن الغريب أن عادة التسري التي إنقطعت الآن من بين الأقباط ولم يبق لها أثر لم تزل جارية إلى الآن عند الحبش الذين هم إخوانهم في العقيدة والمذهب فلا يبعد أن يكونوا نقلوا هذه العادة عنهم.

خلافة الحاكم بأمر الله
وما جرى للأقباط على يديه

ولما مات العزيز بالله أخلفه إبنه المنصور الملقب الحاكم بأمر

الله وإذ كان حديث السن لا يزيد عمره عن إحدى عشرة سنة كان الوصي عليه والقائم بتدبير المملكة برجوان الوزير كما أوصى بذلك العزيز بالله قبل موته وهو خصي أبيض تربى في دار العزيز وصار يتنقل في الوظائف والمناصب حتى بلغ درجة وزير بعد موت يعقوب بن كلس فكان هو الآمر الناهي لا ترد له كلمة ولا يخالف له أمر فإغتر بظواهر الأمور ولم يقرأ العواقب فتجاوز الحد في الإستبداد وإستخف بمولاه وتظاهر بعدم الإمتثال لأوامره فقتله وضبط جميع ممتلكاته فكانت شيئًا كثيرًا . وكان لبرجوان كاتب نصراني يسمى فهد بن إبراهيم يعرفه الحاكم حق المعرفة لأنه كان يدخل إليه مع سيده برجوان ويقف بحضرة الخليفة ويعرض عليه الرقاع ويشرح له المسائل ويتلقى أوامره عن كل واحدة منها ويكتب ما يأمر به فيوقع عليه . ولما قتل برجوان دعا الحاكم بأمر الله فهد بن إبراهيم وسكّن روعه وأمنه على حياته وقال له لا تخش شيئًا ومنحه لقب رئيس ومن ثم صار يسمى بالرئيس أبي العلاء فهد بن إبراهيم وصار يترقى في الوظائف والمناصب العالية حتى صار في رتبة وزير .

وقد أظهر الحاكم بأمر الله في أول أيامه ما دل على

حسن التدبير والسياسة والتصرف في الرعايا والإنصاف والكلف بتقدم العلوم والمعارف فأمر أن توقد القناديل والمصابيح على أبواب الدور والحوانيت في كل المحال والسكك فصار الناس يصلون الليل بالنهار من كثر الأنوار وتواتر البيع و الشراء والأخذ والعطاء فراجت الحال. وكثيراً ما كان يطوف البلد ليتفقد حال الرعية بنفسه ويزجر حاشيته إذا منعوا الناس عنه فكانوا يقتربون منه ويحدقون به ويكثرون من الدعاء إليه.

وأنشأ في القاهرة مكتبة سماها دار العلوم ودار الحكمة وزخرفها بأحسن النقوش والفرش الثمين وجلب إليها الكتب النفيسة من كل الجهات فكانت تغص بالجماهير من جميع أنواع طلبة العلم وكان يرى في مناظرة العلماء لذة عظيمة فكان يدعو إليه العلماء والأطباء والفقهاء كل فئة على حدتها ويجعلهم يتناظرون أمامه ويتحفهم بالصلات والعطايا. ولكن من سوء الحظ أنه بعد يسير أصيب بإختلال في عقله فتغيرت حالته وصار يخترع كل يوم أحكاماً غريبة يحمل الناس على العمل بها ثم يأمرهم بالكف عنها. فمن ذلك أنه نهى عن بيع وأكل الملوخيا والترمس والجرجير والسمك الذي لا قشر له وأمر بالتشديد في

ذلك والمبالغة في تأديب من يخالف أمره وعلم أن جماعة باعوا أشياء منها فأمر بضربهم بالسياط ضربًا مبرحًا ولم يكتف بذلك بل أمر بضرب أعناقهم. ونهى عن بيع الزبيب وهجم على بيوت التجار وغيرهم وجمع ما كان موجودًا منه وأحرقه بالنار ومنع بيع العنب وكان في الجيزة كروم كثيرة فأرسل إليها أعوانه فقطعوها وخربوها عن آخرها.

وتتبع العلماء وأماثل أهل دولته وأكابر الناس على إختلاف أجناسهم وقتل منهم عددًا عظيمًا بغير سبب أو علة. ومنع النساء عن الخروج في الطرق فمضى عليهن وهن محبوسات في البيوت سبع سنوات وسبعة أشهر. ومما زاد الحال تعاسة أنه في أثناء ذلك حل بالبلاد وباء وغلاء شديدان فمات من الناس كثير ومن نجا منهم من الموت أحاقت به البلايا والمصائب من كل الجهات ولم يخلصهم من يدها إلا الموت بعد أن حكم خمسًا وعشرين سنة رأوا فيها الأهوال وقيل أنه مات مقتولاً بدسيسة من أخته وقيل غير ذلك والله أعلم بالحقائق.

أما ما حل بالنصارى من جور هذا الجائر فإنه أول كل شيء قتل الرئيس أبي العلاء فهد بن إبراهيم وسبب ذلك أنه

كان لفهد مناظر يسمى على بن عمر بن العداس كان العزيز بالله (أبو الحاكم) قد ولاه الوساطة وهي رتبة الوزارة ثم عزل منها وتعين رئيسًا على ديوان يقال له ديوان الإستيفاء ولما مات العزيز وتولى الخلافة الحاكم بأمر الله قرب إليه فهد بن إبراهيم وسلم له كل شيء فإغتاظ من ذلك إبن العداس صاحب في الديوان يسمى أبا طاهر محمود النحوي كان مختصًا بالنظر في أعمال الشام فأوعز إبن العداس إلى أبي طاهر أن يبلغ الحاكم بأمر الله أن الناس يشكون من تظافر النصارى وغلبتهم على المملكة وتوازرهم وأن فهد بن إبراهيم هو الذي يقوي نفوسهم ويفوض أمر الأموال والدواوين إليهم وأنه آفة على المسلمين وعدة للنصارى وإذ كان في نفس إبي طاهر أيضًا حاجة من جهة فهد بن إبراهيم وافقه هذا الرأي وأخذ على عهدته تنفيذه.

وبينما كان الحاكم بأمر الله يطوف البلاد في إحدى الليالي ومعه أبو طاهر إنتهز الفرصة وبلغه ذلك وصار يرشق فهد بن إبراهيم بكل أنواع المثالب ولم يترك ذميمة إلا نسبها إليه فحمي غضب الحاكم على فهد وقال لأبي طاهر وما العمل فقال له إن كنت يا أمير المؤمنين تعزز الإسلام وتؤثر صالح مملكتك

فأرح العباد من فهد بن إبراهيم وإلا لا يتم من هذا شيء . فقال الحاكم لإبن العداس إمض وقل له يلقني هنا في الغد فلما كانت الليلة التالية ذهب إبن العداس إلى الحاكم ولما بقي بين يديه سأله عن حال فهد فصار يطعن في حقه بكل كريهة فصرفه وأمره بكتمان هذا السر . ولما كان الصباح ذهب فهد لمقابلة الحاكم كجاري عادته فلم يحظ منه بالإلتفات وحول وجهه عنه فإرتعدت فرائصه وتحير في أمره ولعبت به الأفكار والهواجس .

ولما علم أن إبن العداس كان عنده في الليلة الماضية تحقق أنه قد سعى به عنده وكان كل منهما يتهم الآخر بذلك فذهب فهد إلى دار قائد القواد حسين بن جوهر القائد فلقي هناك إبن العداس فقال له يا هذا كم تؤذيني وتقدح فيّ عند الخليفة فقال إبن العداس والله ما يقدح ولا يؤذينيي ويسعى بي عند الخليفة غيرك فقال فهد (ولم يكن يعلم المضمر له من الشر) سلط الله سيف الإمام الحاكم بأمر الله على من يؤذي صاحبه فينا ويسعى به فقال إبن العداس آمين اللهم عجل ذلك ولا تمهله فلم تمض أيام حتى قبض على فهد بن إبراهيم وضرب عنقه بعد أن إستمر في الرئاسة خمس سنوات وتسعة أشهر وإثنى عشر يومًا وكان

فطناً ماهراً حسن التدبير والسياسة قام بتدبير الرئاسة التي عهدت إليه أحسن قيام. ولما قتل إبن العداس مكانه فظن أن الجو قد صفا وخلا له وفيما هو يفكر في الإيقاع بباقي موظفي الديوان الأقباط حل به وبأبي طاهر ما حل بفهد بن إبراهيم فإن الأول لم يحسن معاملة الناس وإذ لم يكن عليه رقيب يراقبه ولا رادع يردعه كثر تجبره وعسفه ووصل خبر ذلك للحاكم فقبض عليه وقتله شر قتلة وقبض على إبن العداس وأحرقه بالنار فلم يمض عليه في الرئاسة بعد فهد بن إبراهيم الذي حسده وسعى بقتله أكثر من تسعة وعشرين يومًا وعلى الباغى تدور الدوائر.

وكان بين أقباط مصر رجل يسمى غبريال بن نجاح إشتهر بالعقل والإستقامة وحسن التدبير فلما قتل إبن العداس إستدعاه الحاكم بأمر الله وطلب منه أن يُسْلِم ليوليه الوزارة فتوسل إليه أن يمهله إلى الغد ولما خرج من عنده ذهب إلى داره ودعى إخوته النصارى وودعهم وحثهم على الثبات وإحتمال الشدائد والإضطهادات المقبلة. ولما كان الغد ذهب إلى الخليفة وطلب منه أن يقيله من هذا المنصب الحرج وأن يسمح له بالبقاء على دينه فأمر بضربه ألف سوط فمات.

وقتل عيسى بن نسطورس [١] الذي مر ذكره وكان أمينًا على أموال الحكومة وإيراداتها ومصروفاتها في أيام العزيز بالله ولما تولى الحاكم بأمر الله أقره في ديوانه الخاص وخلع عليه.

ويظهر مما قاله المؤرخون أن عيسى هذا كان عاتيًا جبارًا ومن أخباره أنه في سنة ٣٨٠ هـ، حدث حريق بصناعة المقس[٢] فأكلت النار جميع الصناعة وإحترقت السفن الكبيرة بما فيها من العُدة والسلام وكان بالقرب من الصناعة جهة يقال لها دار ماتك يسكنها الروم النصارى فإتهمهم البحريون المسلمون بإلقاء النار عمدًا وحملوا عليهم مع جماعة من العامة وقتلوا منهم أكثر من مائة رجل وألقوا جثثهم في الطرقات ونهبوا بيوتهم وأخذوا من بقي منهم وحبسوهم.

ولما حصلت هذه الحادثة كان الخليفة ببلبّيس قاصدًا السفر إلى الشام والقائم مقامه رجل يسمى يانس الذي لما وصله خبر الحادث بادر إلى الحضور إلى محل الواقعة ومعه عيسى بن

(١) وقيل مشطوروس ولعله بسطوروس. (٢) الصناعة هي المحل الذي كانت تنشأ فيه السفن الحربية وهو الذي يسمى الآن الترسانة. والمقس وموضعه الآن خارج باب البحر لأن النيل كان ممتدًا إلى هناك ثم إنحسر عنه ولذا سميت تلك الجبهه باب البحر.

نسطورس ومسعود الصقلي متولي الشرطة ولدى وصولهم أحضروا الروم المحبوسين وبسؤالهم إعترفوا بإلقاء النار فكتب عيسى بن نسطورس بذلك إلى العزيز بالله وذكر له في الكتاب خبر من قتل من الروم وما نهب منهم بما تبلغ قيمته تسعين ألف دينار فصدر إليه بتجديد السفن ورد ما نهب من الروم لجانب الحكومة فنودي في المدينة بذلك وإشتد الطلب على الناهبين إلا أن بعضهم أخفي ما كان عنده فقبض عليهم وقتل بعضهم وضرب بعضهم وذل الناس بعضهم على بعض فمنهم من ضرب حتى مات ومن ضرب عنقه ومن صلب وبقي معلقًا ليراه الناس ويأتوا بما عندهم مما نهبوه.

وفي أثناء ذلك مات العزيز بالله وهو سائر إلى الشام وقام بعده إبنه الحاكم بأمر الله بتنزيل الذين صلبهم إبن نسطورس وتسليمهم لأهلهم وأعطى لأهل كل مصلوب عشرة دنانير برسم كفنه ودفنه وخلع على عيسى بن نسطورس وأقره في ديوانه الخاص ثم قبض عليه بعد سبع سنوات وإعتقله وبعد إثنى عشر يومًا أمر بضرب عنقه وفيما هو ماض إلى القتل قال (كنت أحسب كل شيء إلا موت العزيز ولكن الله لا يظلم أحدًا فإني

أذكر أنه كان بين القوم المتهمين بنهب بيوت الروم شاب قُبض عليه بتهمة أنه لم يرد رد ما نهبه فأمرت بقتله وكانت أمه معه فصاحت ولطمت وجهها وأقسمت أنها وإبنها ما كانا في مصر ليلة النهب وإنما أتيا إليها بعد النهب بثلاثة أيام فلم أعتد بقولها فناشدتني الله تعالى أن أجعله من جملة الذين يقاصون بضرب السوط وأن يُعفي من القتل فلم ألتفت إليها وأمرت بضرب عنقه فقال إن كنت لابد قاتله فإجعله آخر من يقتل لأتمتع به ساعة فلم أسمع لها وأمرت به أن يكون أول من يضرب عنقه فأخذت من دم ولدها ولضخت وجهها وسبقتني إلى القصر وهي منبوشة الشعر ذاهلة العقل فلما أتيت قالت لي أقتلت ولدي كذلك يقتلك الله يا قاسي القلب ياعنيد يا جبار وصارت تسبني وتلعنني فأمرت بضربها فضربت حتى سقطت إلى الأرض مغشيًا عليها ثم كان من الأمر ما ترون مما أنا صائر إليه وفي هذا عبرة لم يعتبر .

وكان لعيسى بن نسطورس هذا ولد يسمى زرعة فإستخدمه الحاكم وولاه النظر والتوقيع والظاهر أنه هو وحده الذي نجا من يده . ولما رأى الحاكم بأمر الله أن المسلمين ساخطون

عليه إشتد على النصارى وزاد في إضطهادهم فألزمهم بلبس العمائم السوداء وتعليق صلبان خشب في أعناقهم وأن يكون طول الصليب ذراعًا وزنته خمسة أرطال وأن يكون مكشوفًا بحيث يراه الناس ومنعهم عن ركوب الخيل وأن يكون ركوبهم البغال والحمير وأمر بألا يستخدموا مسلمًا ولا يشتروا عبدًا ولا أَمَة وأمر بهدم كنائسهم بمصر والقاهرة وكتب إلى جميع الجهات بذلك وأباح للعامة نهبها وضبط أوقافها وأحباسها وكل مالها وقبض على القسوس وقتل منهم عددًا عظيمًا وهرب كثير منهم إلى الديارات البعيدة فتتبعهم وقتلهم وقبض على الأب زكريا البطريرك وألقاه للسباع وقيل أنها لم تؤذه [١] وأكره النصارى على

---

(١) ويقال إن إشتداد الحاكم على البطريرك بهذه الدرجة لم يكن من تلقاء نفسه بل بسبب تهمة إتهمه بها أحد الرهبان وذلك أن هذا الراهب رغب أن يكون أسقفًا وكان للبطريرك إبن أخ يسمى ميخائيل إلتمس منهُ مالاً على سبيل الرشوة ليسعى له عند البطريرك في نوال مرغوبة فلم يجب طلبه في الحال بل وعدهُ بالوفاء بعد تعيينه فعمل على معاكسته وما زال بالبطريرك حتى عين غيره فأضمر الراهب للبطريرك شرًا وكانت عادة البطاركة إلى هذا الزمن مكاتبة ملوك الحبشة والنوبة مباشرة فوشي الراهب للخليفة أن البطريرك =

الإسلام فأسلم منهم خلق كثير ثم عاد فأمر أن من يُرد منهم العودة إلى دينه فليعد وصرح لهم ببناء بعض الكنائس التي هدمت .

وبعد هذا كله أمر بأن يخرج جميع النصارى واليهود من مصر ويذهبوا إلى بلاد الروم فشق هذا الأمر عليهم ولاسيما الأقباط منهم لما كان بينهم وبين الروم من العداوة القديمة فتجمعوا وذهبوا إلى الحاكم وأخذوا معهم أولادهم وأطفالهم ونساءهم وتواقعوا عليه وصاروا يستعطفونه حتى عفا عنهم وسمح لهم بالبقاء في وطنهم . ومنعهم من الإحتفال بعيد الغطاس وكان من أعظم أيام

=يكاتب هؤلاء الملوك ويكشف لهم عن كل مايجري في البلاد وسوء معاملة النصارى خلافًا للعهود فغضب الخليفة وأمر بالقبض على البطريرك وإلقائه للسباع فلم يأته منها ضرر فنفاه في أحد الديارات البعيدة وأمره ألا يخرج منها أبدًا وأمر أن لا يكاتب البطاركة ملوك النوبة والحبشةمباشرةً ولا يقبلوا منهم مكاتبات إلا بعد عرضها على الخليفة ومعرفة ما فيها وكذلك طلب من هؤلاء الملوك أن تكون المكاتبات منهم وإليه مباشرةً وبقيت هذه الحالة إلى الآن فكان إذا أتى الخليفة أو السلطان كتاب يقتضى الرد يطلب من البطريرك أن يشرح له ما عليه نصارى مصر من الراحة والحرية في الدين وعدم التعرض لهم في عوائدهم ويوصيه خيرًا بالمسلمين الذين تحت رعايته .

المواسم عندهم وله شأن عظيم عند المصريين عمومًا فكانوا يخرجون كبيرهم وصغيرهم إلى النيل ويوقدون المشاعل والأنوار وينصبون الأسرة على ضفتيه ويحيون ليلهم في سرور وإنشراح وغناء ولهو وقصف حتى الصباح.

ومنعهم أيضًا من الإحتفال بيوم أحد الشعانين وكان من عادتهم الإحتفال به إحتفالاً شائقًا إذ يطوفون الشوارع والحارات بضجة عظيمة حاملين الشموع وسعف النخيل. وكثيرًا ما كان ينزل الخلفاء في عهد الدولة الفاطمية للتفرج على هذه الإحتفالات ولاسيما إحتفال ليلة عيد الغطاس ويوم النيروز وكان من رسوم هذه الدولة أن توزع العطايا والهدايا في هذه المواسم على أصحاب الدواوين وكبار الكتاب والموظفين على إختلاف درجاتهم وأديانهم كل بحسب ما هو مقرر له.

وكما أمر الحاكم بأن النصارى يعلقون صلبانًا في أعناقهم ألزم اليهود أيضًا بأن يعلق كل واحد منهم جرسًا في عنقه.

ومن جراء هذه الأحوال صار الناس يتخوفون من أقل الشيء وحدث أن الحاكم أمر بأن تعمل شونة فيما يلي الجبل المقطم وتملأ بالسنط والبوص والحلفاء فخامر قلوب الناس من

ذلك جزع شديد خصوصاً المتعلقين بخدمته وظنوا أن هذه الشونة إنما عملت لهم ثم قويت الإشاعات وتحدث الناس في الطرقات بأنها للكتاب وأصحاب الدواوين فإجتمع سائر كتاب الدواوين والمتصرفين من المسلمين والنصارى وذهبوا إلى حيث كان الخليفة الحاكم ومازالوا يقبلون الأرض من بعيد حتى وصلوا إلى القصر ووقفوا على بابه يدعون ويتضرعون وكتبوا عن جميعهم رقعة يطلبون فيها العفو عنهم ويسألون الخليفة ألا يقبل فيهم قول من يسعى بهم عنده لأن أصحاب الفتن وأهل الفساد كانوا قد كثروا وطمعوا في أموال الناس خصوصاً أصحاب الدواوين الذين كان الحاكم يقبل كل ما يقال في حقهم قضية مسلمة بغير بحث ولا ترو ولا تحقيق وسلموا هذه الرقعة إلى قائد القواد الحسين بن جوهر فأوصلها إليه وصار يلاطفه ويستعطفه ويطلب منه العفو عنهم حتى قبل منه وأجيبوا إلى ماسألوا وخرج إليهم القائد فأمرهم بالإنصراف والبكور في الغد لسماع قراءة أمر الخليفة بالعفو عنهم فإنصرفوا وحضروا في الغد فقرىء أمامهم سجل العفو وأعطيت نسخة منه للمسلمين ونسخة للنصارى ونسخة لليهود . ولكن لم يمض زمن حتى قبض الحاكم على الحسين بن جوهر قائد القواد وقتله هو وأولاده

وضبط تركته وإستولى عليها وهكذا كان يفعل بكل من يقتله من كبار الرجال ولم يراع ما كان لجوهر أبي الحسين من الأيادى البيضاء والخدم الجليلة التي خدم بها دولته في أيام جده المعز لدين الله بفتح مصر وغيرها وضمها إلى مملكة الفاطميين.

وقال بعضهم بينما كان الحاكم يطوف البلد مرة مر بحارة يسكنها اليهود فأمر بسدها عليهم حتى هلكوا جميعًا ومر بحمام أيضًا كان فيه نساء يغتسلن فأمر بسدها عليهن فبقين فيه حتى هلكن جميعًا كل هذا ولم يجسر أحد من رجال الدولة على الشفاعة في أحد لأنهم كانوا في كل وقت عرضة لغضبه يتوقعون من وقت لآخر الموت نظرًا لتقلبه وما هو فيه من إختلال الشعور وعدم الثبات.

قلنا في ما مر أن هذه البلايا التي مُني بها أهل مصر على يد هذا الخليفة الغشوم كانت مصحوبة بوباء وقحط وغلاء شديد غير أن الناس لم يحسبوا لهذه المصائب حسابًا ولم يهابوها بقدر ما كانوا يتوجعون من سوء معاملة هذا الطاغي الذي إعتبروه أنه أرسل لعذابهم في الدنيا ولذلك كانوا يحسدون

الذين يموتون بسببها ويُعِدّونهم من السعداء ويفضلوا الموت بها على الحياة التى غايتها قطع الرقاب ويتمنون الموت مثلهم على الفراش بين أهلهم وذويهم.

وفي أواخر أيام الحاكم بأمر الله ظهر بمصر متمذهب يدعى درار ولفق له دينًا جديدًا وهو المعروف الآن بمذهب الدروز فإرتاح الحاكم لهذه الديانة الجديدة وإفتتن بها جدًا حتى أنه كان يصعد كل صباح إلى الجبل المقطم منفردًا ويدعي بأنه ينادي ربه كما كان يفعل موسى ومن ثم صار لا يعبأ بمسلم ولا بنصراني.

ويقول مؤرخو الأقباط أنه كان بين من أكرهوا على الإسلام راهب إسمه بيمين لما علم بإفتتان الحاكم بالمذهب الجديد إتفق هو وجماعة من الذين كانوا أكرهوا معه على الإسلام أن يطلبوا منه أن يأذن لهم بالعودة إلى دينهم فإنتظروه في طريق كان معتادًا أن يمر بها بذلك وأعطاهم مرسومًا بألا يتعرض لهم أحد ثم إتفق بعد ذلك أن الراهب بيمين تقرب من الخليفة وصارت له عليه دالة فسأله أن يصرح له ببناء دير يقيم فيه هو ومن معه من

جماعة الرهبان فقبل طلبه فبنى ديراً خارج مصر في طريق حلوان وهو باق للآن ويعرف بدير العريان وكان يسمى قبلا دير شهران [1] . وإذ كان الحاكم قد تغيرت حاله صار يتردد على هذا الدير ويصرف وقتاً طويلاً مع من به من الرهبان ويأكل ويشرب معهم ويناظرهم ويباحثهم فلما آنسوا منه إجابة الطلب خطر ببالهم أن يستحضروا البطريرك ويقدموه له علّه ينال منه حظاً وكان قد مضت عليه تسع سنوات وهو مقيم في أحد الديارات بوادي هبيب فلما تمثل بين يديه مع بعض أساقفته نظر إليه الحاكم متعجباً لأنه كان قصير القامة نحيف الجسم وقال لبيمن الراهب أهذا كله رئيسكم الذي كما علمت تمتد سلطته إلى بلاد النوبة والحبش والخمس مدن ويخضع له ملوكها فلا يخالفون له أمراً . قال نعم هو هذا بعينه وهو قادر أن يقيم ويقعد هؤلاء الملوك ورعاياهم بكلمة واحدة منه . فعفي الحاكم عنه وأقره في مركزه وسلمه أمراً مؤذناً بفتح الكنائس المغلقة وبناء التي أمر بهدمها وإعادة ما نهب منها ورد أوقافها إليها كما كانت .

---

(١) ϣⲁⲁⲣⲁⲛ إسم البلد التي كان بها الدير وكانت عامرة آهلة وقد خربت وتلاشت كغيرها وفي موضعها الآن قرية حقيرة تسمى المعصرة .

وبعد قليل أي في سنة ٤١١ هـ - سنة ١٠٢١ م. مات الحاكم بأمر الله وتولى الخلافة بعده إبنه علي أبو الحسن الملقب بالظاهر وأقام في الخلافة سبع عشرة سنة ولم يحصل للأقباط في أياماه من الحوادث ما يستحق الذكر سوى أنه أقرهم في وظائفهم ومنحهم حرية العبادة بغير معارضة وأباح لهم الإحتفاء بعوائدهم والإحتفال بأعيادهم ومواسمهم التي منعهم أبوه من إستعمالها قبلاً وصرح للناس بأكل ما كان نهى الحاكم عن أكله. وفي أيامه مات زكريا البطريرك وكان عاقلاً وديعًا متواضعًا محبًا للسلام وإنتخبوا رجلاً غيره يسمى شنوده وكانت العادة أن الخليفة لا يصرح بتقليد البطريرك إلا إذا أورد مبلغًا مقداره ستة آلاف دينار نقدًا أو يكتب به صكًا ليدفعه في أجل معين فكانت هذه العادة سببًا في وقوع أغلب البطاركة السالفين في ورطة السيمونية التي كثيرًا ما تسبب عنها نزاع بين الأمة والأئمة وكان بين الأقباط رجل مسموع الكلمة يسمى إبن بقر فسعى لدى الخليفة فأصدر أمرًا برفع هذه الغرامة وأذن بتقليد شنوده بطريركًا إلا أنه لم يلبث أن أظهر من الدناءة ومحبة المال ما أوجب إعراض أهم إبناء أمته عنه ولاسيما إبن بقر لأنه نصحه فأهانه.

الخليفة المستنصر بالله

والحوادث التي حصلت في أيامه

وفي سنة ٤٢٧ هـ - سنة ١٠٣٦ م ٧٥٢ للشهداء توفي الظاهر وتولى إبنه المستنصر بالله مكانه لم يرتفع النيل سنيناً متوالية فتعطل الزرع وقلت المحصولات وكثر الغلاء حتى بلغ ثمن الأردب الواحد من القمح مبلغًا عظيمًا وإذ علم المستنصر بأن مصدر زيادة النيل من بلاد الحبش دعا إليه البطريرك وهو إذ ذاك الأب ميخائيل الملقب بالحبيس وبعثه إليها بهدية سنية برسم النجاشي ولدى وصوله إستقبله بإحتفال عظيم وسأله عن سبب قدومه فأعلمه بما حل بمصر وأهلها من الضنك والجوع بسبب نقص زيادة النيل وأنه أتى ليستعين به على إيجاد طريقة لمنع هذه الغوائل عن البلاد وأهلها وقدم له هدية المستنصر فأمر الملك فتح سد في إحدى الجهات التابعة لبلاد الحبش فجرت المياه منه إلى أرض مصر وزاد النيل في ليلة واحدة ثلاثة أذرع وإستمرت الزيادة حتى رويت البلاد وزرعت الأراضي فإرتفع الغلاء وفي أثناء وجوده بتلك الأصقاع بذل جهده في تمكين عُري العلاقات

بين المستنصر وملك الأحباش فكانت هذه خدمة أخرى قام بتأديتها للخليفة غير الخدمة التي أرسله من أجلها فنال بذلك رضاه وممنونيته وأحسن إليه وبالغ في إكرامه.

وكان للمستنصر وزير ضعيف الرأي سيء التدبير يسمى محمد اليازوري كان شديد الكراهية للمسيحيين عمومًا وللأقباط خصوصًا لميل الخليفة إليهم فكان يترقب فرصة للإيقاع بهم. وإتفق أن شخصًا يسمى عبد الوهاب أبا الحسين عين قاضيًا على الإسكندرية وكان يتوقع أن ينال شيئًا من الأقباط عن يد بطريركهم على سبيل العطية فلما لم يجد فائدة وعلم أن في نفس الوزير حاجة من جهتهم سعى بالبطريرك عنده مدعيًا عليه أنه ظلم أناسًا وإغتصب أموالهم وبنى بها قصرًا شامخًا وكنائس في ناحية يقال لها دمروا وأنه يحتقر الإسلام وإذ كان الوزير يترقب فرصة للإيقاع بالنصارى بنى على هذه التهمة العلالي وأرسل على الفور رجالاً من عنده وأمرهم أن يهدموا الكنائس التي بتلك الجهة وتعمد مضايقة النصارى الأقباط وعمل على معاكستهم فصار يثير خواطر المسلمين ويحرضهم على التحزب ضدهم ولكنه لم يجد منهم إلا الإعراض لأن الناس كانوا في

شاغل في مثل هذه الأحوال نظرًا للضيق الذي كان مستوليًا على البلاد بسبب الوباء والقحط . ولما لم يجد فائدة من هذه السياسة الخرقاء والتدابير العقيمة قبض على البطريرك وبعض أساقفة الوجه البحري وإعتقلهم وأرسلهم إلى القاهرة مدعيًا عليهم بدعاو باطلة لا أصل لها . أما الخليفة فإنه رغمًا عن تمويهات الوزيرً لم يجد عليهم ما يوجب هذه الإهانة فأخلى سبيلهم وطيب خاطرهم وصرفهم إلى مراكزهم فشق هذا على الوزير ولشدة غيظه أمر بقفل الكنائس المسيحية في القطر المصرى سواء كانت للأقباط أو للروم فثار مسيحيو القطر جميعًا وتجمهروا وكادت تكون فتنة لولا أن الخليفة تلافي الأمر وقبض على هذا الوزير المستبد ونفاه في جهة تانيس بأقصى الوجه البحري وبعد قليل قتله لأنه كان يهيج المسلمين عليه وينسب إليه أمورًا كاذبة كإدعائه عليه أنه لم يراع جانب المسلمين ويعين النصارى عليهم وغير ذلك مما لا صحة له .

وحدث في خلال ذلك ظواهر جوية وتغيرات فلكية إذ ظهر في الأفق نجم ذو ذنب طويل جدًا لم يسمع المصريون بظهور مثله وأعقبه كسوف تام للشمس إستمر أربع ساعات متوالية

فكان منظر السماء مهيبًا مريعًا وإشتد الظلام حتى كانت مشاهدة النجوم عيانًا ممكنة في النهار. وإلتجأت الطيور إلى أوكارها رهبة فتشاءم الناس خصوصًا المسيحيون من هذه الظواهر وتوقعوا حدوث حوادث مريعة بالبلاد وأهلها. وقد كان الأمر كذلك فإن حال الحكومة تغيرت وإختل النظام بسبب إنقسام العسكر فكثر تغير الوزراء وإستبدالهم بغيرهم من وقت إلى آخر حتى تقلب على الوزارة نحو خمسة وثلاثين وزيرًا في مدة إثنتى عشرة سنة ولم تكن هذه التقلبات تزيد الأعمال إلا إرتباكًا والأحوال خبالاً والبلاد إختلالاً وصارت الشكاوى تقدم إلى الخليفة من الرعايا في حق رجال الدولة ومن رجال الدولة في حق الرعايا فإحتار في أمره ولم يمكنه معرفة مصدر القلاقل.

ثم إزداد نفوذ العامة على رجال الدولة فإذا أجمعوا على أمر أنفذوه فإزداد إضطراب الخليفة وكانت ترد إليه التقارير متناقضة فلا يعرف أيها أصح وأيها يتبع فسادت الفوضى وإختل النظام وإنتهى الأمر بوجود حزبين بين عسكر لدولة مضادين لبعضهما أحدهما حزب السودانيين والثانى حزب الأتراك.

وبما أن أم الخليفة كانت جارية سوداء إبتاعها الخليفة الظاهر من تاجر يهودي كانت تميل طبعًا إلى السودانيين أكثر من غيرهم وتحب الإستكثار منهم لأنهم أبناء جلدتها فكانت تبتاعهم من كل الجهات فكثر عددهم وتألف منهم جيش عظيم وزاد نفوذهم لميل أم الخليفة إليهم وكذلك الأتراك الذين كان يتنافس الخلفاء في شرائهم ليكونوا حرسًا خاصًا لهم أصبحوا على جانب عظيم من القوة والسطوة ونفوذ الكلمة إلا أنهم كانوا دون السودانيين في العدد . أما الناس فكانوا يعتبرونهم ويعززونهم لصباحة وجوهم ووجاهتهم وشجاعتهم وبسالتهم بخلاف السودانيين الذين لم يخشوا بَأسَهم إلا لشراسة أخلاقهم وسواد وجوههم وميل أم الخليفة إليهم .

وحدث في ذات يوم أن أحد العساكر الأتراك شرب كثيرًا من الخمر فقاده السكر إلى تهديد أحد العساكر السوادنيين فجرد عليه سيفه فلما رأى ذلك رفاقه هجموا على التركي وقتلوه فإغتاظ الأتراك وتجمهروا وإنقضوا على السوادنيين وجرت بينهم مقتلة عظيمة قتل فيها كثير من الفريقين ولكن كانت الغلبة للأتراك . ومن ذلك الحين صارت الضغائن والمخاصمات تتزايد

بين الحزبين يومًا بعد يوم وأم الخليفة تحرض السودانيين وتساعدهم سرًا على الإيقاع بالأتراك فجرت بينهم وقائع كثيرة في جهات متعددة كانت الغلبة فيهاعلى الدوام للأتراك وإنتهت الحال بهزيمة السودانيين وهلاك السواد الأعظم منهم. ومن بقي منهم تشتت في أنحاء البلاد فصاروا يعيثون فيها فساداً وينهبون ويسلبون وبعضهم آثر الرحيل إلى بلاده فخلا الجو للأتراك وإستفحل أمرهم ومما زاده إستفحالاً إنضمام بعض قبائل العربان إليهم ومشاركتهم لهم فإستهانوا بالخليفة وإستخفوا بقدره وزادوا مرتباتهم إلى أربعمائة ألف دينار في السنة بعد أن كانت ثمانية وعشرين ألفاً فعجزت خزينة الحكومة عن تأدية هذه الزيادة الفاحشة فألزموا الخليفة ببيع ذخائره وكل مقتنياته ومجوهراته الثمينة فأخرجها إليهم وكانت شيئًا كثيرًا فقوموها بأقل الأثمان وأخذوها وإقتسموها بينهم من أصل مرتباتهم فأصبح المستنصر فقيرًا مهانًا لايملك من الملك غير الإسم. أما الرعية فكانت أتعس حالاً منه بالنسبة لهذه الإضطرابات والنهب والسلب وعدم وفاء النيل سنوات متعددة متتابعة فتعطلت الزراعة وإشتد الجوع والقحط والوباء فمات منها ألوف مؤلفة.

وكانت سوريا في ذاك الحين تابعة لمصر والوالي عليها رجل يسمى بدر الجمالي أصله مملوك أرمني لأمير يدعى جمال الدولة بن عمار فسمي بالجمالي على إسمه وقد أظهر من أول أمره ما دل على فطنته وقوة عزمه وثباته وحسن التدبير فصار يتنقل في الخدم ويتقلب في المناصب العالية إلى أن ولاه المستنصر إمارة سوريا فقام بها أحسن قيام. فلما إشتد البلاء بمصر ولم يطق الخليفة إحتمال كل هذا الذل من الأتراك لم ير سبيلاً للتخلص من شرهم أعظم من الإستعانة عليهم ببدر الجمالي والي سوريا الذي وإن يكن إستقل بها أثناء هذه الإضطرابات إلا أنه كان لايزال مخلصاً مطيعًا له. فكتب إليه يستدعيه إلى القدوم لمصر ليتولى تدبير مملكته فقبل طلب الخليفة على شرط أن يصرح له بأن يحضر معه من يريد ويختار من العساكر وإذا حضر فلا يبقي أحداً من العساكر المصرية في خدمة الحكومة فأجابه الخليفة إلى ماطلب وعلى هذا الشرط والإتفاق قام بدر الجمالي من سوريا في شرذمة من رجال قد إختبر شجاعتهم وصداقتهم وبعد أربعين يومًا وصل إلى الديار المصرية وفي يوم الأربعاء ٢٩ جمادي الأولى سنة ٤٦٧ هـ. دخل القاهرة مع أصحابه ولم يكن

عند الأمراء المصريين علم بسبب مجيئه فظنوا أنه أتى عاصيًا على المستنصر لينزع مصر من يده فأظهروا له الرغبة في محالفته. ولما إستقر بمصر وثبت قدمه فيها كان أول شيء وجه إلتفاته إليه هو إستئصال الأمراء الأتراك الذين تعدوا على كرامة الخليفة وتجاوزوا الحد في إذلالة فتحايل على رؤسائهم وقطع دابرهم عن آخرهم وإستحوز على أملاكهم وأموالهم فقويت شوكته وعظم أمره فلقبه الخليفة بأمير الجيوش وتتبع أهل الفساد في الوجهين القبلي والبحري فقتلهم وأفناهم وغنم أموالهم وإستعان بها على إصلاح حال البلاد التي فسدت بسببهم وأباح للفلاحين أن يزرعوا الأراضي المتروكة مدة ثلاث سنوات بلا مال وسهل سُبل التجارة وإشتغل العامة وصغار الناس في إقامة الإبنية العظيمة في القاهرة وغيرها من المدن الكبيرة وأحاط مصر القديمة والقاهرة بأسوار منيعة وكان المتولي عمارتها يوحنا الراهب المهندس الرياضي القبطي. فكثرت أسباب المعايش وإرتاح الناس في أيامه راحة عظيمة لم تخطر لهم على بال. ودامت مدة حكمه على مصر عشرين سنة أتى في أثنائها بأعمال لا يتيسر لغيره عملها في جيل. وتوفي وله من العمر ثمانون سنة وبعد

وفاته ببضعة أيام توفي الخليفة المستنصر عن سبع وستين سنة وخمسة أشهر صرف منها ستين سنة وبضع شهور في منصب الخلافة .

وفي أيام بدر الجمالي أمير الجيوش أتت مصر عائلات كثيرة من الأرمن غير العساكر الذين كانوا في الجيش فرحب بهم الأقباط وعاشوا بينهم عيشة راضية وتوطنوا بالديار المصرية فسكنوا في جهات كثيرة منها وكانت أسباب معيشتهم التجارة والصناعة وإستمروا على هذا الحال مدة إلى أن تغيرت الأحوال بتغير الدولة الفاطمية وقطعت عساكرهم عن آخرهم فلم يروا في إقامتهم بمصر راحة ولا فائدة ترجى فتركوها وعادوا إلى بلادهم ولم يتخلف منهم إلا عدد قليل جداً لا يذكر .

أما الأقباط فكانت حالهم كغيرهم أثناء هذه المحن والمصائب المتراكمة فلم يخصوا بمصيبة مخصوصة بل أن البلايا والرزايا التي منيت بها البلاد عمت جميع السكان على السواء أقباطاً كانوا أو مسلمين حتى الروم واليهود . ولما هدأت الحال وزالت أسباب الخصام وساد الأمن وعاد النظام كلف بدر الجمالي الأقباط بتنظيم الدواوين وتشكيلها على هيئة جديدة وعهد إليهم ضبط الحسابات وتحصيل الأموال فنمت الإيرادات

وبلغ مقدار ما جبي في أيامه ضعفي ما كان يُجبى قبلاً. ولم يكن بدر الجمالي بجاهل للفوائد التي تعود على مصر من إمتداد التجارة إلى النوبة والحبش وأن هذا لا يتأتى إلا بمسالمة هاتين المملكتين وعقد المعاهدات معهما أولى من معاداتهما والطمع في الإستيلاء على بلادهما وشن الغارات في كل وقت على حدودهما ولا سيما النوبة. وحدث أنه كان على أسوان عامل يسمى أسعد الدولة كان يشن دائمًا الغارة على النوبة ويرجع عنها خاسرًا فلزم السكوت وأمسك عن القتال على نية العود إليها في فرصة أخرى. وكان على النوبة ملك يسمى سلمون فلما إرتاح باله من هجمات أسعد الدولة وإغاراته على بلاده وهو يدفعه عنها تنازل عن المملكة لإبن أخته المدعو جورجى وآثر العزلة والإنفراد في واد ملازمًا للصلاة ومواظبًا على العبادة.

فلما علم بذلك أسعد الدولة أرسل بعضًا من رجاله ليقبضوا عليه فأدركوه في مغارة مجاورة لأحد الديرات البعيدة فأمسكوه وأتوا به إلى أسوان فأرسله أسعد الدولة إلى بدر الجمالي أمير الجيوش بالقاهرة مدعيًا أنه أُخذ أسيرًا. أما أمير الجيوش فقابله بالترحيب وأكرمه وخصص له قصرًا لإقامته به

وبقي به في مصر حتى توفي بعد ذلك بقليل ودُفن بالإكرام والتعظيم في دير الخندق المعروف الآن بدير أبي رويس خارج القاهرة. وفي أثناء إقامة سلمون الملك بمصر تحقق بالعيان ما كان بين القبط والنوبيين من الرابطة الدينية وتُبودلت الزيارات بينه وبين البطريرك ووجهاء القوم الذين بالغوا في تعظيمه وتبجيله وإكرامه فكان وجوده بينهم هذه المدة الوجيزة سببًا في تعزيز شأنهم وإعلاء مقامهم عند أكابر الدولة وعظمائها ولا سيما عند أمير الجيوش الذي لما علم بما بين الأقباط والنوبين والأحباش من الجامعة الدينية والرابطة المذهبية وكان يحاول إبرام معاهدات مع ملوك هاتين الأمتين لتسهيل طرق التجارة وإمتدادها بين الديار المصرية وهاته البلاد كاشف وجهاء الأقباط وعقلاءهم بما كان يكنه في صدره وطلب منهم بذل السعي ومساعدته في تنفيذ مقاصده فلبوا طلبه وشرعوا في فتح باب المخابرات مع ملوك الحبش والنوبة بواسطة البطريرك فصارت المكاتبات تُتداول بينهم حتى حصل الإتفاق وتم الأمر على حسب مرغوب بدر الجمالي وما كان يبتغيه فشكرهم على ذلك وأثنى عليهم وأنعم على البطريرك بمال يستعين به على إصلاح الديارات و الكنائس

المتخربة . وتقلد كثير من الأقباط الوظائف العالية في دواوين الحكومة ولاسيما المتعلقة بالأعمال الحسابية فإنهم إستقلوا بها إستقلالاً تامًا وإمتازوا على غيرهم بوضع قواعد دقيقة وروابط مضبوطة لها فلم يتمكن غيرهم من تسييرها مثلهم وكانوا قد تمكنوا من معرفة اللغة العربية وألفوا فيها مؤلفات واسعة تشهد لهم بغزارة المادة وطول الباع ونقلوا إليها أيضًا جملة مؤلفات من اللغتين اليونانية والقبطية في مواضيع مختلفة فعرفت الدولة فضلهم وكفاءتهم وعدم إمكان الإستغناء عنهم فراعت جانبهم وقدرتهم حق قدرهم ومنحتهم الألقاب السامية مثل (الرئيس ، وهبة الله ، والأمجد ، والأسعد ، والشيخ ، ونجيب الدولة ، وتاج الدولة ، وفخر الدولة) وغير ذلك من ألقاب الشرف والتمييز التي هي بمثابة الرتب في زمننا الحاضر . وكان بين العساكر الذين حضروا مع بدر الجمالي حسب إتفاقه مع الخليفة المستنصر كثير من الأرمن والسوريين النصارى إستمروا في خدمة الدولة مدة من الزمن . ومن محاسن أيام الدولة الفاطمية التي تذكر بالنسبة للأقباط أن معظم الصنائع وأجلها كانت بيدهم فكان منهم الصياغ والجوهريون والنجارون والحاكة والصباغون

والبناؤون والحدادون والمهندسون والنقاشون والشماعون وعاموا الورق والزجاج على إختلاف أنواعه وألوانه ولم تزل بقايا صنعتهم موجودة للآن في الديارات والكنائس القديمة بحارة زويلة وحارة الروم ومصر القديمة ولاسيما المصنوعات الخشبية وغيرها الموجودة بكنيسة المعلقة بمصر القديمة فإنها على جانب عظيم من الإتقان والإحكام تدل على تقدمهم في ذاك العصر في الصنائع والفنون ومنهم من إشتغل بفن الطب فنال منه حظا وافرًا ومن إشتغل بعلم المواقيت وألف فيه مؤلفات واسعة وصل إلينا بعضها .

ولما عهدت في زماننا الحاضر لصاحب الهمة العالية التي لا تنكر والأيادى البيضاء التي تشكر نخلة بك يوسف الباراتي نظارة كنيسة المعلقة التي هي أقدم كنائس الأقباط في القطر المصري وكانت قد تقوضت أركانها وتداعت إلى السقوط جدرانها بذل في إصلاحها همته وجعل إعادتها إلى بهجتها ورونقها القديم ديدنه ووالى البحث والتفتيش على جمع ما كان فيها من المصنوعات القديمة ولكن من الأسف لم يعثر إلا على القليل منها لأن معظمها لا بل أهمها بعضه نقله السياح الإفرنج إلى

بلادهم وبعضه أتلفه الإهمال وإلتهمته النار في تسوية أطعمة المؤتمنين على تلك الذخائر لعدم معرفتهم قيمتها فجمع ما وجده منها وثبته في موضعه كما كان وبناها بغير أن يحدث تغييراً في هيئتها الأصلية إلا ما ألجأته إليه الضرورة. ومما يمدح عليه أيضا حفظ ما وجده وعثر عليه من بقايا الكتب القديمة المكتوبة بخط اليد التي لا تخلو من الفائدة لو وجد بين الأمة من تدعوه الغيرة إلى طبعها ونشرها على العموم.

وكان يوجد بكنيسة المعلقة بمصر القديمة لوح كبير من خشب قديم عليه رسم المسيح يصنع العشاء السري مع تلاميذه وهو غاية في الإتقان ودقة الصناعة يدل على ما كان للأقباط في ذاك العصر من طول الباع في الصنائع وهذا اللوح يظهر أنه كان معمولاً ليكون حجابًا على هيكل.

ولما إحتل الإنكليز البلاد في سنة ١٨٨٢م عقب الثورة العرابية أشار أحد كبار ضباط الإنكليز إلى أحد أمراء الأقباط بتقديم هذا الحجاب البديع هدية من رجال الأمة لأعضاء مجلس نواب إنكلترا بمدينة لندن عاصمة المملكة الإنكليزية لكن بعض أعضاء المجلس الملي الذي كان موجوداً وقتئذ لم يستحسن هذا

الإقتراح ولما طرح هذا الأمر على الأعضاء للمداولة فيه وجد معارضة . ولم يكن القصد من هذه المعارضة المحافظة على هذا الأثر وعدم التفريط في آثارنا القديمة بل من قبيل مقاومة مبلغ الإقتراح كما دلت على ذلك قرائن الأحوال لأنه لم يخطر على بال المعارض أو غيره من المتظاهرين بالغيرة عمل ما من شأنه المحافظة على هذا الأثر العجيب لئلا تلعب به أيدى التلف أو يصيبه ما أصاب غيره من الضياع بل بقي متروكاً مدة مستعملاً كحاجز على إحدى فسحات الدير الذي كان به ولم نعلم إذا كان لايزال موجوداً أو لحقه مالحق غيره من الآثار الثمينة التي بيعت بأبخس الأثمان . وياحبذا لو أعار عقلاء الأمة هذه الآثار جانباً من الإلتفات وإهتموا بجمع ما بقي منها وأودعوه في قاعة مخصوصة كما عملت الحكومة بالآثار العربية ويتركون عوضهم على الله فيما فقد منها وما بيع بدون القيمة لعدم معرفة المؤتمنين عليها قيمته .

ومن أخبار داخلية الأمة القبطية في ذاك العصر أنه لما قبض الوزير اليازورى على البطريرك وبعض الأساقفة ولم يخلصهم من يده إلا الخليفة المستنصر كما تقدم القول آثر البطريرك وهو إذ

ذاك خريستوذولس أن ينقل كرسيه من الإسكندرية ويجعل مقره بمصر ليكون بعيداً عن حكام الوجه البحري وعن مضايقتهم له من جهة ولكثرة ما بينه وبين أرباب الحكومة من العلاقات من الجهة الأخرى وإختار الإقامة بكنيسة المعلقة بمصر القديمة التى كانت قبل هذا الوقت دار أسقفية مصر .

إنعقاد مجمع من جماعة الإكليروس وكبار الامة

بأمر أمير الجيوش بدر الجمالي

وكان بين كتاب الدولة رجل يسمى يوحنا بن الظالم إختار الأسقفية فسعي لدى البطريرك ومازال به حتى أجابه لطلبه وولاه أسقفية سخا [1] ولا نعلم عن هذا الرجل الذي كان يرجى منه أن يكون من أهل الفضل شيئاً غير حدوث نزاع بينه وبين البطريرك عقب إنتقاله إلى مصر . وضم الأسقف إليه بعضاً من الأساقفة وجمهوراً من الشعب وتحالفوا على عزل البطريرك لكن كان في بلاط

(1) ⲥⲉⲱⲟⲩ .

الخليفة رجل يسمى أبا زكريا يحيى بن مقاره وكان شيخاً عاقلاً
فاضلاً مسموع الكلمة مهاباً بالنسبة لعقله وشيخوخته فتلافى
الأمر بأن تداخل بينهم وصالح البطريرك مع أسقف سخا وطيب
خاطر الباقين وصرفهم إلى مراكزهم وبهذا إنتهت الفتنة على
أحسن حال ولكن بقى هذا الأسقف مصراً على تشويش راحة
الأمة يترقب فرصة لإظهار ما كان يخفيه في صدره فلما توفي
البطريرك وتقلد الرئاسة آخر يسمى كيرلس إتحد يوحنا بن الظالم
هذا مع أربعة أساقفة آخرين وهم مرقس أسقف سمنود أخو
إبن الظالم ويوأنس أسقف دميرة وخائيل أسقف بوصير ومقاره
أسقف القيس ومعهم أبو غالب بيمين بن تيدر بن مرقوره القبطي
أحد أعيان مصر المشهورين وتواطئوا على عزل البطريرك فكتبوا
تقريراً بالطعن في حقه مدعين عليه بدعاو توجب عزله وقدموه
لبدر الجمالي أمير الجيوش الذي لما قرأه وعلم ما فيه قال أن ليس
من شأنه أن يحكم في أمر مثل هذا من تلقاء نفسه أو بمجرد
أقوالهم فأمر بعقد مجمع من جميع أساقفة الوجهين القبلي والبحري
وكبار الأمة ليبحثوا في الأوجه المقترف بها على البطريرك فإذا
كانت صحيحة وحكم المجمع على البطريرك بالعزل فلا يسعه

حينئذ إلا الرضوخ لما يقررونه وعليه إجتمع في مصر أربعون أسقفاً وهم أساقفة مصر والجيزة والخندق [١] وسخا وسمنود وتانيس ودمياط [٢] وتلبانة ودميرة [٣] وأبي صيرة [٤] وسهرجت [٥] ومنوف [٦] وطنطا [٧] ونوسا والبرس [٨] ونبروه وصا [٩] وبنها وخربتا [١٠] ودمنهور [١١] ومصيل [١٢] وسرسنا [١٣] ورشيد [١٤] وإتريب [١٥] وبلبيس وإطفيح [١٦] وإهناس [١٧] وطمويه [١٨] والفيوم [١٩] والقيس والبهنسا [٢٠] وطحا والأشمونين [٢١] وأنصنا [٢٢] وقسقام [٢٣] وأسيوط [٢٤] وشطب [٢٥] وقاو [٢٦] وإخميم [٢٧] (والبلينا) [٢٨] وهو والقُصير [٢٩] أرمنت [٣٠] وإسنا [٣١] وأسوان [٣٢] ودندرا [٣٣] وقوص [٣٤] غير الذين تخلفوا ولم يحضروا لتقدمهم في السن وهم أسقف قطور وأسقف سنجار وأسقف دقميرة وأسقف الواحات وغيرهم. ومن هذا يعلم أن عدد الأقباط في

---

(١) Ϣⲓϣⲁⲧⲉ. (٢) Ⲧⲁⲙⲓⲁⲑⲏ. (٣) Ϯⲙⲁⲏⲓ. (٤) Ⲡⲟⲩⲥⲓⲣⲓ.
(٥) Ⲡⲁⲟⲱⲓⲡ. (٦) Ⲙⲁⲛⲟⲩϥ. (٧) Ⲧⲁⲗⲁⲛⲁⲟⲩ. (٨) Ⲛⲁⲣⲉⲁⲁⲟⲩⲥ.
(٩) Ⲭⲁⲓⲡ. (١٠) Ⲁⲣⲃⲁⲟ. (١١) Ϯⲙⲓⲛ̀ϩⲱⲣ. (١٢) Ⲙⲉⲇⲉⲗ.
(١٣) Ϯⲁⲡⲥⲏⲛ. (١٤) Ⲣⲁϣⲓⲧ. (١٥) Ⲁⲟⲣⲏⲃⲓ. (١٦) Ⲡⲉⲧⲡⲉ̀ϩ.
(١٧) ̀Ϩⲛⲏⲥ. (١٨) Ⲧⲁⲙⲏⲱⲟⲩ. (١٩) Ⲫⲓⲱⲙ. (٢٠) Ⲡⲉⲙⲭⲥ.
(٢١) Ϣⲙⲟⲛⲩⲡⲃ. (٢٢) Ⲕⲱⲥⲕⲁⲙ. (٢٣) Ⲁⲛⲧⲛⲱⲟⲩ.
(٢٤) Ⲥⲓⲱⲟⲩⲧⲓ. (٢٥) Ϣⲱⲧⲡ. (٢٦) Ⲉⲡⲃⲱⲟⲩ. (٢٧) Ϣⲙⲓⲏⲛ.
(٢٨) Ⲡⲟⲩⲡⲁⲛⲓ. (٢٩) Ⲡⲁⲡⲉ. (٣٠) Ⲉⲣⲙⲱⲛⲧ. (٣١) Ⲥⲛⲏ.
(٣٢) Ⲁⲧⲱⲛ. (٣٣) Ⲡⲓⲧⲉⲛⲧⲱⲣⲓ. (٣٤) Ⲭⲱⲥⲃⲁⲣⲃⲓⲣ.

ذاك الوقت كان لم يزل عظيمًا جداً .

ولما حضروا إنعقد المجمع كما أشار بدر الجمالي وحضر هو أيضاً بينهم ووبخهم على عدم مراعاتهم واجباتهم وحثّهم على الإئتلاف وإطاعة رئيسهم ونظر الأساقفة في القضايا المقامة على البطريرك فظهر لهم أنها لم تكن إلا على منافسات شخصية فحكموا ببراءة البطريرك مما نُسب إليه وصالحوه مع الأساقفة أخصامه وهكذا إنفض المجمع وعاد الأساقفة إلي مراكزهم .

ولكن محبة الأمور العالمية والجهل كانا قد سريا في جسم الإكليروس وتمكنا منه فكثر النزاع بين البطاركة والأساقفة تارة وبين الأساقفة والبطاركة والشعب تارة أخرى وزاد الشغب ونفور الأمة من الإكليروس لسوء تصرفهم وإهمالهم واجباتهم . وكأنّ الأمة إنقسمت في ذاك الحين على ذاتها فكان هذا الإنقسام عاملاً آخر على تمهيد طرق دمارها .

ظهور مصلحين

وحدث أنه ظهر بين رجال الإكليروس قس إسمه أبو ياسر بن القسطال كان عالمًا فاضلاً كثير التأمل ولاسيما في حال أمته

ومقابلة ماضيها بحاضرها فأدرك بدقة بحثه وتأملاته أن إخوانه الأقباط في حاجة كبرى إلى إدخال بعض إصلاحات في طقوسهم وعوائدهم. ونظر إلى المخاصمات والمنازعات التي كانت تحصل بين الرجل وزوجته بعد الزواج وما ينجم عنها من تكدير صفاء العائلات ومنازعة بعض أئمة الناس بخصوص التسري الذي كان شائعًا في ذاك الحين بين الأقباط والمشاكل التي كانت تحصل من جهة عدم جواز توريث المخلفين من التسري فعرف أن سبب كل هذه المصائب منع الخطيب من مشاهدة خطيبته قبل العقد أو إكراه الخطيب أو الخطيبة على التزوج بمن لايريدها أو تريده لأسباب عائلية فأشار بوجوب مقابلة الخطيب خطيبته ومشاهدتها قبل عقد النية على خطوبتها وإقرار كل منهما بالقبول بغير إجبار ولا إكراه وبذلك تنقطع المخاصمات من بين العائلات لزوال أسبابها ويعيش الرجل مع زوجته في راحة وسعادة تامتين وتنقطع أيضًا عادة التسري التي كثيرًا ما كان يتسبب عنها نفور بين الأئمة الغيورين والناس.

ورأى أيضًا أن بين الأقباط عوائد لم تكن عندهم من الأصل بل هي دخيلة بينهم منذ تسلط العرب على مصر مثل

حلق شعر الرأس والختان الذي كانوا يحافظون عليه أشد المحافظة
حتى أنه ما كان يسمح للطفل بالعماد إلا بعد إختتانه فأذاع بينهم
فساد هذا الإعتقاد وأبان لهم أن الختان ليس من الواجبات
الدينية المفروضة على كل مسيحي مراعاتها بل هى عادة بلدية
يصح إستعمالها وتركها على حد سوى وأشار بتربية الشعر
ووجوب كشف الرأس حال الصلاة وتحدث الناس بهذه
الإصلاحات فقابلها كثير بالقبول والإرتياح وكان ينتظر أن رجال
الإكليروس يشجعونه ويعاونونه على إخراجها من حيز القول
ولكنه رأى منهم غير ما كان يتوقعه فإنهم تصدوا له وعدّوا
مبادىء الإصلاحات التي كان يشير وينادى بها بدعة وشناعة
وشددوا عليه النكير إلا أن ما لاقاه منهم لم يثنه عن عزمه فألف
رسائل ببراءته مما يدعون عليه به وصحة رأيه ولما لم يقووا على
محاجته وكذلك هو لم يحد عن رأيه قطعوه وطردوه من بينهم
وأخرجوه من ديره الموجود للآن بالعدوية بين مصر القديمة وطره
وكان من أفخر الديارات المعدودة لحلول كبار الأمة فيه تنزيهًا
للنفس وترويحًا للخاطر وكان بجانبه بستان واسع جميل أنشأه
هذا القس من ماله الخاص لهذا الغرض فأخرجوه منه قوة وإقتدارًا

ووضع البطريرك اليد عليه فعاش بعد ذلك فقيراً ذليلاً ومات حزيناً كئيبًا وهكذا ضحى هذا المسكين حياته حبًا في الإصلاح. أما البستان فلم يهنأ به البطريرك ولم يبق في حوزته إلا مدة يسيرة لأن الأمير جبريل بن الإمام الحافظ أحد خلفاء الدولة الفاطمية التي نحن بصددها بينما كان يطوف مرة في ضواحي مصر رأى هذا البستان وما كان عليه من البهجة والرونق فأعجبه حسنه ولما علم أنه ليس من مال البطريرك الخاص نزعه من يده وإستولى عليه ووسعه وبنى به منظرة جميلة وجعله منتزهًا خاصًا به وبسائر الخلفاء الفاطميين بعده فكانوا يأتون إليه ويقيمون به أيامًا يقوم في أثنائها خدام الدير بتقديم ما يلزم له ولجميع حاشيته من المأكل والمشرب وكل ما يلزم لراحته فيبرحه مسروراً ممنونًا وينعم عليهم بما يزيد عما صرفوه وآخر من حل به الإمام العاضد آخر الخلفاء الفاطميين. ولما إنقرضت الدولة الفاطمية وحلت مكانها الدولة الأيوبية وإستولى أمراؤها على ممتلكات الخلفاء السالفين وحلوا أحباس الديرات والكنائس كان هذا البستان من نصيب طفتكين الملقب بسيف الإسلام أخي الملك صلاح الدين الكردي أول ملوك الدولة الأيوبية

فضم إليه البساتين الأخرى المجاورة له وجميع الجهة المعروفة بالعدوية وساحل البحر وكانت كلها ملكًا للقبط وإستولى على جميعها وكان بتلك الجهة كنيسة تسمى كنيسة السودان إستولى عليها أيضًا وهدمها .

وكان لأبي ياسر بن القسطال صاحب إسرائيلي من عائلة طيبة يسمى الفخر بن زاهر كان عالمًا خبيرًا شديد التمسك بديانته فكانا يجتمعان كثيرًا ببعضهما ويتناقشان ويتباحثان فتمضى عليهما في ذلك أوقات طويلة وكل منهما يحاول إقناع الآخر وإجتذابه إلى دينه وإنتهى الأمر بينهما بأن سحر أبو ياسر الفخر ببيانه وعمله وقوة براهينه فسلم بصحة النصرانية وترك أمته وعشيرته وإنضم إلى الأمة القبطية وتعلم لغتها وأتقنها وكُرِّز شماسًا على كنيسة حارة زويلة وبقي فيها حتى مات ومن ذا تعلم أهمية درجة الشماس وعدم لياقة إتخاذه من الصبيان الصغار كما هو جار الآن .

وظهر أيضًا رجل آخر يسمى مرقس بن القنبر لم يكن دون إبن القسطال في العلم والمعرفة والغيرة فضلًا عن معرفته اللغتين العربية والقبطية وكان يحسن اللغة اليونانية فترجم منها

بعض الكتب ونقلها إلى العربية وألف أيضاً جملة كتب تختص بالإصلاحات التي كان ينادي بها إبن القسطال فأقبل عليه بعض الناس إلا أنه كان سيء التصرف عديم الثبات فسلط عليه الإكليروس بعض كبار القوم فإضطهدوه وعاكسوه وشكوه لقاضي الإسلام فكان تارة ينضم إلى جماعة الروم الأرثوذكس وأخرى يعود إلى الأقباط وأخيراً طردوه من بينهم وفرزوه وكذلك الروم رفضوه ولم يقبلوه عندهم لعدم ثباته وبقي مدة حياته مطروداً .

وبسبب عقم سياسة جماعة الإكليروس وتجبرهم وعدم قراءتهم عواقب الأمور والمحافظة على سلامة الأمة ووحدتها لم يتلافوا الإضطرابات الناتجة عما حسبوه ضلالاً جهلاً منهم والتظاهر بالتمسك بكل عادة قديمة والتمويه على أفكار البسطاء بأن الخروج عنها أو تغييرها أو إبدالها بغيرها مروق من الدين ومقاومتهم لهذين الرجلين وأعوانهما ومعارضتهم لهم بدون تأمل في الإصلاحات التي ناديا بها ومعاملتهما أخيراً بالقطع والفرز فتكدرت خواطر الكثير من إبناء الأمة ولاسيما أعوان هذين الرجلين فآثر بعضهم الإنضمام إلى طائفة الروم الأرثوذكس والبعض

الدين الإسلامى وممن أسلم رجل إسمه الشيخ أبو نجاح بن الراهب فصار يتقلب في الوظائف العالية حتى تسلط على جميع الدواوين وآلى على نفسه إضطهاد الأقباط ومعاكستهم بكل ما يقدر عليه حتى أنه حصل الجزية منهم مضاعفة وتمادى في غيه فعم ضرره جميع الرؤساء والمباشرين فتعصبوا عليه وشكوه إلى الخليفة الذي لما تحقق صدق شكواهم منه وعظم جرمه وتعديه أمر بسجنه وضربه بالنعال حتى يموت وألقى القبض على جميع ممتلكاته فكانت شيئًا كثيرًا .

ويناسب في هذا المقام أن نقول أن كل أمة لا تقوم أو تحفظ جامعتها ووحدتها إلا بعاملين رئيسين هما الدين واللغة ومن الأسف أن هذين العاملين أخذا في الإنحطاط شيئًا فشيئًا بين الأقباط حتى كادا يزولان بالمرة فالأول وهو الدين فقد تأثيره بسبب إهمال الأئمة واجباتهم وإشتغالهم بالأمور العالمية وعدم إكتراثهم بما يوجبه عليهم الدين من القيام ببث التعاليم المؤدية إلى إيجاد رابطة قوية تربط الشعب بروح المحبة والإلتئام والوئام حتى يتضافروا على تعزيز شأنهم وحفظ وحدتهم من التفريق والشتات ولا يتأتى ذلك إلا بسهر الأئمة وعدم تفريطهم في

واجباتهم. أما اللغة فكانت قد هجرت بالكلية وحلت محلها اللغة العربية ولا سيما في القاهرة وسائر الوجه البحري أما في الوجه القبلي فإنها بقيت متداولة مدة ولكنها لم تقو على مقاومة الزمان وتصرفاته وبعد قليل تغلبت اللغة العربية على سائر بلاد القطر المصري و أهملت اللغة القبطية وأصبحت كما هي الآن أثرًا بعد عين ولذلك إنحل رباط الأمة القبطية ولم يبق لها جامعة تجمعها ولا رابطة تربطها فكان هذا مع الأسباب الأخرى الناتجة من إستبداد بعض الحكام وتعصبهم في الأيام الغابرة وما بعدها كما رأيت وسترى أعظم داع لتشتتها وتفرقها فصار يتناقص عددها حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن. وبقي القبط باقي أيام الدولة الفاطمية أى نحو سبعين سنة في راحة نوعًا. ولكن ويا للأسف إذ في خلال هذه المدة قامت الحرب بين المسلمين والإفرنج على ساق وقدم وهي التي تذكر في التاريخ بحروب الصليبيين بالنسبة للصُلبان التى كان يعلقها عساكر الإفرنج في أعناقهم وعلى ثيابهم وكان القصد منها تخليص الأراضى المقدسة من يد المسلمين. وسببها أن راهبًا فرنساويًا يدعى بطرس زار مدينة القدس في الجيل الحادي عشر للميلاد فرأى أن التُرك

الذين كانوا نزعوا سوريا من يد الدولة الفاطمية وإستقلوا بها يسيؤون معاملة النصارى الذين كانوا يتواردون على المدينة سنويًا لزيارة تلك الأماكن المقدسة فشق عليه ذلك ولما عاد أوروبا أحاط علم بابا رومية بما كان من سوء معاملة النصارى على إختلاف نزعاتهم فحرض الباب ملوك الإفرنج على قتال المسلمين ونزع الأراضى المقدسة من يدهم فلبوا دعوته وخرجوا من بلادهم بجيوش جرارة لهذا القصد فحصلت بينهم وبين المسلمين وقائع كثيرة وإستمر القتال بينهم مدة من الزمن أريقت فيها دماء كثير من الفريقين بلا جدوى وإستولى الإفرنج على بلاد كثيرة من ضمنها مدينة القدس ولبثت تحت حوزتهم أكثر من تسعين سنة الي أن خلصها من يدهم السلطان صلاح الدين الأيوبى سلطان مصر.

المصائب التى حلت بالقبط بسبب حرب الصليبيين

وفي أثناء حروب الصليبيين أتت عساكر الإفرنج إلى مصر وإستولوا على جهات منها وإستمروا في سيرهم حتى صاروا

على مقربة من القاهرة وكانوا في كل بلد يدخلونها يقتلون سكانها ويسبون نساءها وينهبونها فأثرت هذه الفظائع تأثيرًا رديئًا في نفوس المسلمين ونفرت قلوبهم من كل نصراني مهما كان مذهبه وجنسيته ولم ينل الأقباط من جرّاء هذه الحروب غير أشمئزاز خواطر مواطنيهم منهم وكراهتهم لهم ونفورهم منهم بلا سبب يوجب هذا الجفاء مع أنهم أي الأقباط لم ينجوا من يد الإفرنج ولم يسلموا من شرهم حينما حلوا بمصر ولما وصلوا إليها في أول مرة نزولاً بمدينة تسمى الفرما وقتلوا جميع من بها بدون تمييز بين مسلم أو نصراني.

ولما طالت أيام الحرب وكانت تحتاج إلى نفقات جسيمة وليس للحكومة من واسطة تساعدها عليها غير جمع النقود من الأهالي لدفع هذه الغوائل عن البلاد صارت تجمعها منهم وتشدد في مطالبتهم فتضايق كثير من الأقباط حتى أن بعضهم إضطر إلى بيع أملاكه لدفع المطلوب منه وأصبحوا فقراء لايملكون شيئًا وحل بهم البلاء وإتخذ أولو الغايات هذه الحرب ذريعة للإيقاع بالنصارى وكان في ديوان الخليفة كاتبان أحدهما مسلم يسمى إبن أبي قيراط والآخر سامري يدعى إبراهيم فوشيا

للخليفة بأن الأقباط يأخذون أموال الكنائس ويمدون بها الإفرنج سرًا فغضب عليهم وأمر بأخذها إلى بيت المال وإتفق أن البطريرك الذي كان موجود توفي فلم يجاسروا على الإستئذان منه في إنتخاب غيره بسبب هذه التهمة التي غيرت خاطره. وظّلوا بدون بطريرك إلى أن قام الجند على هذين الكاتبين وقتلوهما شر قتلة فقام بعدهما رجل مسيحى من الملكيين يسمى أبا البركات يوحنا بن أبي الليث فطلبوا منه الكتاب الأقباط أن يستأذن لهم من الوزير وهو إذ ذاك إبن الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش المتقدم ذكره فأجاب طلبهم وصرح لهم بأن يقدموا من يختارونه وكان بين الكتاب رجل بتول يسمى أبا العلاء بن تريك فوقع إختيارهم عليه ولما عرضوا إسمه على الوزير توقف أولاً لأنه لم يرُد أن يفرط فيه لإستقامته ونزاهته فألحوا عليه ومازالوا به حتى سمح وأذن لهم.

وكان للعاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية وزير يسمى شاور لما رأى أنه تضايق من الصليبين أحرق الفسطاط (مصر القديمة) عن آخرها حتى لا يعسكر الإفرنج فكانت هذه مصيبة أخرى لأن معظم سكانها أقباطًا فهلك منهم كثير ومن نجا من

النار خرج هائمًا لا يدري إلى أين يذهب. أما شاور فقبض عليه بعد ذلك وقتل لأنه كان يسعى بين أرباب الدولة بالفساد. وكان بمصر حين قتل شاور رجل كردي يسمى شيركويه الملقب بأسد الدين قد أتى إليها ومعه إبن أخيه صلاح الدين في عسكر من سوريا لإنقاذ مصر من عائلة الصليبيين فولاه الخليفة العاضد وزيرًا ولقبه بالملك المعظم. ولكي يرضي هذا الوزير الجديد خواطر المسلمين الذين إشتدت كراهيتم للنصارى بسبب ما كان يأتيه الصليبيون من الفظائع عند فتحهم البلاد شدد على نصارى مصر وألزمهم بشد الزنانير على أوساطهم ومنعهم من إرخاء الذوابة المعروفة الآن بالعذبة وفرض عليهم غرامات طائلة ومنعهم من التوظف في الوظائف الرئيسية في الدواوين أما نصارى الصعيد فباعوا أنفسهم للعربان وتراموا عليهم فأدخلوهم في حمايتهم وبهذه الطريقة نجا كثير منهم من الموت لكنهم صاروا بذلك عبيدًا للعرب.

وكان بين الكتاب النصارى رجل يسمى زكريا بن أبي المليح مماتي فكتب رقعة رفعها إلى أسد الدين شيركويه وقد صدرها بالبيتين الآتيين:

يا أسد الدين ومن عـدله   يحفظ فينا سـنة المصطفي
كفي عيارًا أشد أوساطنا   فما الذي أوجب كشف القفا

وكان يقصد بذلك الإسترحام من أسد الدين شيركويه بأن لا يمنع النصارى من إرخاء العذبة فلم يجب طلبه ولما يئس من ذلك أسلم.

وكان زكريا هذا من نصارى أسيوط ولما أسلم ولى ناظرًا على الدواوين وكان شاعرًا مجيدًا وكاتبًا بليغًا ومن شعره:

تعاتبنى وتنـهى عن أمور   سبيل الناس أن ينهوك عنها
أتقدر أن تكون كمثل عينى   وحقك ما على أضر منها

وله جملة مصنفات ألّف معظمها بعد أن أسلم منها: كتاب حجة الحق على الخلق في التحذير من سوء عاقبة الظلم. وكتاب قوانين الدواوين صنفه للملك العزيز بن السلطان صلاح الدين فيما يتعلق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها وما يجرى فيها وهو أربعة أجزاء ضخمة. ونظم سيرة السلطان صلاح الدين، وكليلة ودمنة، وله ديوان شعر. وكان صلاح الدين معجبًا بكتاب حجة الحق ولذلك كان يكثر النظر فيه وقال فيه القاضي الفاضل وقفت من الكتب على ما لاتحصى عدته

فما رأيت والله كتابًا يكون قبالة باب منه وأنه والله من أهم ما طالعه الملوك. وكان مع هذا كريمًا جوادًا حسن الخطاب حتى سماه القاضي الفاضل ببلبل المجلس ولما مات رثاه أبو طاهر إسماعيل الشاعر وجماعة من الشعراء. وكان إسمه بعد الإسلام الأسعد بن شرف الدين أبي المكارم بن سعيد بن أبي المليح. وكان جده أبو المليح من رجال الحكومة في أيام أمير الجيوش بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر. ولما مات شيركويه ولى الخليفة العاضد إبن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وسماه الملك الناصر وبموت العاضد إنقرضت الدولة الفاطمية في مصر بعد أن ملكت عليها مائتين وثمان سنوات وحلت مكانها الدولة الأيوبية التي أولها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب المذكور الذي إستقل بها بعد موت العاضد وخلص سوريا من يد الصليبيين وإستولى عليها أيضًا.

وكان إبتداء إستيلاء الدولة الأيوبية على مصر في سنة ٥٦٧ هـ - سنة ١١٧١م وبقيت في يدهم إلى سنة ٦٤٨ هـ - سنة ١٢٥٠م ونختم هذا الباب بذكر بعض مشاهير الأقباط وأفاضلهم الذين عثرنا على أسمائهم ممن عاشوا في زمن الدولة الفاطمية غير الذين تقدم ذكرهم للآن في سياق الكلام.

المعلم سرور الجلال كان ضامنًا (ملتزمًا) في أيام الخليفة المستنصر فحصل على أموال طائلة وثروة عظيمة وكان عاقلاً محسنًا فطنًا مدبرًا فنال بذلك قبولاً عظيمًا عند الخليفة وإكتسب ثقته به لصداقته وإستقامته فلم يرد له كلمة ولم يرفض له طلبًا .

ولما كان يحل بمنظرته بفم الخليج لحضور مهرجان كسر السد (فتح الخليج) على حسب عادته السنوية في أيام زيادة النيل كان المعلم سرور هو الذي يقوم له بالإستعداد الكافي لراحته وراحة من معه ويقدم له ولحاشيته ما يليق بمقامه من الأطعمة الفاخرة وكامل موجبات الراحة فيقبلها منه ويخلع عليه وإذا كان له حاجة يقضيها . وقيل أنه مع سعة حالة ووفور حرمته وعظم شهرته ونفوذ كلمته كان متواضعًا كريمًا جوادًا عالي الهمة حسن الأخلاق محبًا لعمل الخير والمعروف لسائر الناس بغير تمييز بين مسلم أو نصراني ومن له حاجة عند الخليفة إذا توسط به تُقضى ولذا أجمع الكل على محبته . ويغلب الظن أنه مات عن غير ذرية لأننا لم نعثر أبدًا على إسم أحد ينسب إليه أو لعائلته ويقال بأن الخليفة أرسله من قبله في مأمورية خصوصية فمات في الطريق فجأة .

الشيخ السعيد أبو الفخر المعروف بإبن صاعد كان كاتب الرواتب في خلافة الحافظ وترقى إلى رئاسة المجلس ولما توفي تعين مكانه في الوظيفة الأولى ولداه الشيخ السعيد شديد الملك وكان له ولد آخر يسمى السعيد أبو البركات .

الشيخ الوجيه أبو الحسن الأمح كان كاتب سر الخليفة الحافظ .

الأسعد أبو الخير جرجه بن أبي وهب الشهير بإبن الميقاط كان من أكابر الأقباط وأغنيائهم في زمن الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين . أنكر عليه بشاور الوزير الذي أحرق مصر القديمة أمورا وأدعى عليه أن بينه وبين عساكر الصليبيين مخابرات سرية فقبض عليه وصار يعذبه حتى مات . وهو أصل عائلة كبيرة إشتهرت فيما بعد بعائلة النشو ومنها أبو الفتوح بن الميقاط الذي تقلد رئاسة ديوان الجيوش في أيام الملك العادل وسيأتي ذكره في الكلام على الدولة الأيوبية .

السيدة ترفه كانت من أغنياء مصر القديمة إشتهرت بين أهل زمانها بالتقوى والغيرة الدينية والمحبة الجنسية والإخلاص في الأعمال الخيرية عن حسن نية وطيب طوية ومن مآثرها أنها

شيدت كنيسة على إسم أبي نفر من مالها الخاص وبنت بأعلاها محلاً فسيحًا ليكون ديرًا للبنات الراهبات وإستنسخت جملة من الكتب وأوقفتها على الدير ونقشت إسمها على لوح خشب ووضعته بأعلى الباب المعد لدخول النساء منه إلى الكنيسة ومن ذا يعلم أن إقامة النساء في عزلة وإحتجابهن عن الرجال وقت الصلوة عادة قديمة.

أبو اليمن يوسف بن مكراوه بن زنبور الشهير بأمين الأمناء كان أمينًا على خزائن الخليفة ثم تولى نظارة الريف بالوجه البحرى ومن مآثره العديدة وأياديه البيضاء الكثيرة على إبناء جنسه أنه أنشأ ديرًا واسعًا في أحسن نقطة وأجمل موقع وهو الدير المعروف الآن بأبي السيفين بطمويه ببر الجيزة وأحاطه ببساتين واسعة كانت غاية في البهجة والرونق فكان من أعظم المنتزهات وأجملها حتى أن الوزير الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي كان يتردد عليه كثيرًا ويقيم فيه أيامًا ترويحًا للنفس من عناء الأشغال. وهو أصل عائلة كبيرة إشتهرت بالمجد والكرامة وسعة الحال والغنى الوافر إستمرت زمنًا طويلاً وآخر أعضائها إبن القسيس إبن زنبور الذي أسلم في أيام دولة المماليك وسمى

بعلم الدين وسيأتى الكلام عليه في موضعه.

أبو سعد منصور بن أبي اليمن المذكور كان كاتبًا بليغًا وبطلاً شجاعًا تولى الوزارة في أيام المستنصر وتنازل عنها لحراجتها لما طالبه الجند الأتراك بأرزاقهم ومرتباتهم ولم يكن في الخزينة ما يفي بمطامعهم ولما تحرك زعيمهم ناصر الدولة على الخليفة تولى أبو سعد منصور قيادة العسكر الموالية وخرج للقائه وحاربه وهزمه ورده إلى أسفل الوجه البحرى خاسئًا خاسرًا.

الشيخ صفي الدولة إبن أبي ياسر بن علوان الكاتب ومن مآثره بناء كنيسة عظيمة على إسم آيا صوفيا خلافًا لأهل زمانه الذين كانوا يبقون الكنائس على أسماء القديسين وقيل أنها كانت بالقرب من أهرام الجيزة وقد تلاشت الآن ولم يبق لها أثر بعد عين. ويغلب على الظن أن صفي الدولة هذا كان تابعًا لكنيسة الروم حتى أنه دعى الكنيسة بهذا الإسم لأننا لم نعثر على كنيسة قبطية بهذا الإسم لا قبل ولا بعد هذا التاريخ.

الشيخ أبو الفضل المعروف بإبن الأسقف. كان كاتب سر الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي أمير الجيوش.

المعلم زوين كان ضامنًا (ملتزمًا) بمصر في خلافة

الحافظ أبو الطيب كان كتاب سر ناصر الدولة زعيم الترك في أيام الخليفة المستنصر وحدث في أيامه أن أتباع ناصر الدولة بينما كانوا يعيثون فساداً في الوجه البحرى هجموا على ديارات النصارى ونهبوها وإذ كان البطريرك خريستوذولس بإحداها قبضوا عليه وحجزوه عندهم كوديعة حتى يفتديه الأقباط بالمال فخلصه أبو الطيب من يدهم .

الشيخ الأحزم كان كاتب ديوان النظر وهو ديوان المراجعة على دواوين الأموال وكان لمن يتولى نظارته حق العزل والولاية .

أبو البركات إبن أبي الليث كان رئيس ديوان المجلس حسده بعض الحاسدين فرفعوا للخليفة تقريراً في حقه مدعين عليه بأنه يختلس أموال الحكومة وله مرتبات طائلة وإتهموه أيضاً بأنه يستخدم أقاربه ويقدمهم على غيرهم فلم يلتفت الخليفة لأقوالهم لما لاحظ فيها من المبالغة وشدة التشنيع على أبي البركات إلا أنه لم يلبث أن قتل في سنة ٥١٨ هـ .

أبو المليح الشهير بمماتي كان في خلافة المستنصر ووزارة بدر الجمالي أمير الجيوش . إشتهر بالغنى وعمل الخير والإحسان وسبب تسميته بمماتي أنه لما إشتد الغلاء بمصر كان يتصدق

على المحتاجين مما عنده من الخيرات وكان إذا رآه صغار المسلمين يقولون مماتي فيصرف لهم غلالاً لسد رمقهم فسمى بمماتي وهو جد أسعد بن مهذب بن زكريا الذي أسلم في وزارة شيركوه في أيام العاضد وقد تقدم خبره.

وغيرهم ممن ذكرت أسماؤهم بألقاب الشرف والتبجيل مثل الشيخ الأكرم بن أبي الفضائل بن أبي سعيد وأبي غالب بن أبي المكارم البلبيسى والشيخ أبو ذكري الصيرفي والشيخ أبي البركات بن أبي سعيد هيلان الكاتب المجيد والشيخ إبن أمين الملك إبن المهذب ووالده والشيخ أبي اليمن البَزاز والشيخ المهذي أبي إسحق إبراهيم بن أبي سهل المشارف الفيومي المعروف بالزقزوق وفخر الدولة أبو المكارم إبن الفتح الإسكندراني وغيرهم مما لايسعنا عدهم ولجميعهم الأيادى البيضاء في الأعمال الخيرية وتشييد الديارات الواسعة كما هي عادة المصريين من قديم الزمن وإحاطتها بالبساتين الزاهية الزاهرة التي من جملتها دير نهيا بالجيزة الذي كان يتردد عليه الخليفة الآمر بأحكام الله ويقيم به أيامًا ترويحًا للنفس أو عندما يخرج للصيد. وكان في كل مرة يأتي إليه بنعم على خدامه ورهبانه بألف درهم حتى بلغ

جملة ما أنعم به عليه أكثر من ثلاثين ألف درهم وفي أول مرة نزل به أنعم عليه بثلاثين فدان بلا مال بناحية طهرمس بالجيزة وهذا الدير هو الذي قال فيه إبن البصري الشاعر في قصيدة له

يا دير نهيا ماذكرتك ساعة إلا تذكرت السواد بمفرقي

يا دير نهيا إن ذكرت فإنني أسعى إليك على الخيول السبق

القبط في عهد الدولة الأيوبية

لما مات الخليفة العاضد وإستقل صلاح الدين بمصر ألقى القبض على جميع من بقي من العائلة الفاطمية وجعلهم تحت الحجر ووضع يده على جميع أملاكهم وأرزاقهم وكانت شيئًا كثيرًا يفوق الحصر وقبض على مماليك العاضد فباع بعضهم وفرق البعض الآخر على رجال دولته وتتبع أمراء الدولة الماضية وأفناهم وقبض على ممتلكاتهم وإقطاعاتهم وأعطاها لأصحابه.

وعهد إلى وزيره بهاء الدين الملقب بقراقوش بناء القلعة الموجودة الآن ليقيم بها آمنا على نفسه من فتنة تثيرها عليه أحزاب الدولة الفاطمية وأن يحيط القاهرة بسور منيع فأشغلت هذه العمارات

الجسيمة كثيراً من أصاغر الناس الذين كانوا في حالة ضنك بسبب الإضطرابات التي كانت حاصلة وتوفرت أسباب معايشهم . وهدم الأهرام الصغيرة التي كانت بالجيزة وكانت كثيرة ونقل حجارتها والحجارة التي كانت بخرابات منف إلي القاهرة وإستعملها في بناء السور القلعة . وكان المتولي أمر هذه الأبنية مهندسان رياضيان قبطيان يسمى أحدهما أبا منصور والآخر أبا مشكور .

وإذ كان السلطان صلاح الدين كثير الغياب عن مصر لإشتغاله بحروب الصليبيين في سوريا عهد إلى وزيره بهاء الدين تدبير الحكومة وإقامة الجسور وفتح الخلجان وشق الترع لتوسيع نطاق الزراعة فقام بذلك أحسن قيام .

وكان بين أقارب صلاح الدين رجل يسمى عز الدين موسك وكان من محبي العلم فإبتنى قنطرة فوق الخليج الكبير دعاها قنطرة الموسكي ولما عاد صلاح الدين من سوريا بعد أن تصالح مع الإفرنج حضر معه بعض منهم للإقامة في مصر فنزلوا بالربع الذي بناه موسك فوق القنطرة وأحضروا بضائع من بلادهم وصاروا يتجرون فيها فعمرت تلك الجهة ومن ثم عرفت بخط

الموسكي وكان السلطان صلاح الدين هو أول من أباح للإفرنج الإستيطان بمصر ولكنا لم نعلم شيئًا عما كان من العلاقات بين الأقباط وبين هؤلاء الإفرنج الذين هم نصارى مثلهم لأن مؤرخي النصارى والمسلمين لم يذكروا شيئًا عن ذلك والذي يظهر أنهم لم يختلطوا بهم لنفورهم منهم بسبب الفظائع التي كان يرتكبها عسكار الصليبيين وسوء معاملتهم لهم ولم يعرفوهم إلا فيما يختص بشراء ما كان يلزم لهم من بضائعهم مثل الجوخ وغيره لأنهم هم الذين أدخلوا الجوخ في مصر ولم يعُرف من قبلهم وعلى كل الإفرنج الذين حضروا وتوطنوا في هذه البلاد حينذاك كانوا قليلى العدد جدًا وربما لم ترضهم عيشة مصر فآثروا العود إلى بلادهم.

ولما إختلت الأحوال بمصر في أواخر أيام الفاطميين شأن كل دولة قرب زوالها ودنا أجلها كانت قد أعيدت الأموال الهلالية أى المكوس وتفنن الحكام فيها حتى صارت تضرب على جميع أنواع الأطعمة والألبسة والأقمشة والحيوانات من ماشية وخيول وغيرها وعلى الحوانيت والأخشاب والمصنوعات والإبنية وكانت مداخيلها عظيمة جدًا تبلغ مائة ألف دينار سنويًا نال الناس

ضيقات شديدة بسببها وتعذر تحصيلها بأكملها رغمًا عن تشديدات المحصلين والجباة. ولما رأى السلطان صلاح الدين ما هو حال بالأهالي من هذه المظالم أمر بإلغائها ومسامحة الناس فيما كان باقيًا عليهم منها وكان قد بلغ قدرًا عظيمًا فشكروه على ذلك ومالوا إليه بكل قلوبهم.

وكان من عادة أهل مصر أن أيام فيضان النيل تعد عندهم من أعظم أيام النزهة لجريان المياه في الترع والخلجان ولا سيما عند سكان القاهرة فكانوا ينزلون في القوارب ويطوفون بها في خليج مصر ويمُضون أيامهم ولياليهم في سرور وإنشراح. فلما مات السلطان صلاح الدين وتولى إبنه الملك العزيز مكانه أمر بالإمتناع عن هذه العادة وشدد في إبطالها فتضايق الناس وجاهروا بمخالفة أمره وكادت تكون فتنة لولا أن المنية عاجلت الملك العزيز الذي كان مخالفًا لأبيه في تدبيره وسياسته والرفق بالرعايا حتى أنه أعاد المكوس التي كان ألغاها أبوه وزاد عليها إباحة شرب الخمر والحشيش والمزر وفرض عليها ضرائب فادحة. وتوقفت زيادة النيل فإرتفعت الأسعار ودامت هذه الحال إلى أن أنقذ الله المصريين بموت العزيز ومن حسن الحظ أن

مدة ملكه لم تزد عن ست سنوات .

لما مات الملك العزيز تولى مكانه الملك العادل أخو صلاح الدين فإنصلحت الأحوال رغمًا عن إشتغاله بحروب الصليبيين الذين أعادوا الكرة على مصر ووصلوا إلى دمياط وحاولوا فتحها . وكانت كنيسة مار مرقس بالإسكندرية كحصن منيع جدًا على البحر فخاف الملك العادل لئلا يأتى الإفرنج (لأنهم كانوا يقاتلون المسلمين في عدة مواضع) ويتغلبوا على الإسكندرية ويتحصنوا بالكنيسة المذكورة فيتعذر عليها إخراجهم منها فأمر بهدمها وكانت واسعة جدًا عظيمة البناء بناها البطريرك أغاثون الذي تولى البطريركية بعد الأب بنيامين في أول دخول العرب في أيام عمرو بن العاص وكان موقعها بالجهة المعروفة الآن بالمينا الشرقية (أو دار البقر) بنيت على جزء منها الكنيسة الحالية .

أما الأقباط الذين عاشوا في أيام الدولة الفاطمية عيشة راضية نوعًا وحفظوا لأنفسهم مركزًا مهمًا في الحكومة بما قاموا به من الخدمات الوطنية الحقة حتى نالوا ثقة خلفائهم الذين عاملوهم بالتسامح والتساهل والإعتدال وإحترام ديانتهم وعوائدهم فإن مالاقوه من أسد الدين شيركوه من الإشتداد كما

تقدم القول جعلهم في خوف من هذه الدولة الجديدة وظنوا أن زمانهم قد ولى. والذي زاد خوفهم ماعلموه من أن ملك النوبة إنتهز فرصة هذا التغيير فخرج من بلاده بجيش جرار وصار يتقدم حتى وصل إلى أسوان فنهبها وأسر كثيراً من سكانها المسلمين فأرسل إليه صلاح الدين عساكره من عساكر بقيادة أحد قواده لكنه عاد بالخيبة فغضب صلاح الدين لذلك وأرسل إليه جيشاً آخر بقيادة أخيه شمس الدولة وأمره أن يفتح النوبة ويقتص من ملكها وسكانها المسيحيين على هذا الإعتداء .

ولما وصل إليها شمس الدولة حاصر قلعة دير ابريم وبعد ثلاثة أيام فتحها عنوة ودخل المدينة فوجد فيها كثيراً من أهل أسوان الأسرى المسلمين فخلعهم من الأسر ونهب المدينة وقتل كثيراً من سكانها وأسر كثيراً وقبض على الأسقف وشدد عليه في طلب ما عنده من الأموال ولما تحقق أن ليس هناك شيئاً مما كان يطمع فيه لم يرد أن يخلي سبيله بل باعه مع باقي الأسرى وقبض ثمنه .

وحدث أيضاً أنه ظهر رجل بمدينة قفط بالصعيد التي كانت لم تزل عامرة آهلة ومعظم سكانها من الأقباط وإدعى أنه

إبن العاضد آخر الخلفاء الفاطميين فلبى دعوته كثير من سكان قفط وجاهروا معاداة حكومة صلاح الدين فأنفذ إليهم جيشًا من عساكره بقيادة أخيه فهجم على المدينة وخربها ونهبها وقبض على ثلاثة آلاف رجل من سكانها وعلقهم في عمائمهم على الأشجار التي كانت تحيط بالمدينة ومن ثم لم تقم لقفط قائمة وهى الآن قرية حقيرة لا أهمية لها .

وكذلك السلطان صلاح الدين قبض على باقي ممتلكات وأوقاف الديارات والكنائس وأنعم بها على أعوانه وأتباعه ولما رأى ذلك وزيره بهاء الدين قراقوش عمل هو أيضًا على معاكستهم فطردهم من خدمة الحكومة ولم يبق منهم في الخدمة إلا من أسلم على يد شيركوه وبعده.

ولكن لم يلبث السلطان صلاح الدين أن رأى أنه لايمكنه الإستغناء عن الأقباط بالكلية خصوصًا وأن الذين أسلموا منهم لم يكن مطمح نظرهم إلا الوظائف والمناصب العالية مثل الوزارة وما يشابهها فرد كثيرًا منهم إلى خدمة الحكومة وسلمهم إدارة الدواوين ورئاستها وكذلك إتخذ له كاتبًا خصوصيًا منهم من عائلة قديمة كريمة تعرف بعائلة شرافي كان أبوه من مشاهير

الحكومة في أيام الخليفة العاضد الفاطمي يسمى بأبي المعالي ولما إتخذه صلاح الدين كاتبًا له وأمنه على سره ومنحه لقب الشرف والرئاسة فسُمى بالشيخ الرئيس صفي الدولة إبن أبي المعالي وبقي في خدمته حتى مات وكان محبوبًا عند السلطان ولما إنقطع الأرمن من مصر ولم يبق منهم من له كلمة وكذلك بطريركهم سافر وأقام بمدينة القدس وكان من جملة ما لهم بمصر كنيسة واسعة بالفسطاط بالجهة المعروفة الآن بالبساتين يحيط بها بساتين واسعة جميلة وكان صلاح الدين قد نزعها من يدهم وأنعم بها على رجل فقيه أصله من دمشق يسمى بهاء الدين الدمشقي فطلب الرئيس صفي الدولة من السلطان أن ينعم بالكنيسة على الأقباط فأجاب طلبه وأعطاه تصريحًا بذلك .

ولكن حدث أن جماعة من الأقباط ومن جملتهم إثنان من كبارهم أحدهما يسمى أبو سعيد بن أبي الفضل بن فهد النحال والآخر أبو اليُمن بن الفرج من عائلة زنبور الشهيرة التي مر ذكرها حضروا في أحد الأيام إلي الكنيسة المذكورة ليحتفلوا فيها بعيد الشعانين وكان مع خدام أبي سعيد وأبي اليُمن إناء فيه زيت خاص من الزيتون ولما طلبوه ليقدموا منه لمواليهم ولم يجدوه

إتهموا الحراس المسلمين أنهم سرقوه فحصلت منازعة ومشاجرة بين الخدام والحراس أدت إلى التطاول على الحراس بالضرب والإهانة فذهب الحراس إلى الفقيه بهاء الدين الدمشقي المنعم بالبساتين المجاورة للكنيسة وشكوا له ما أصابهم من خدام النصارى فذهب الفقيه إلى السلطان وأعلمه بما جرى فعظم ذلك عليه وأحضر الرئيس صفي الدولة وطلب منه التوقيع الذي أعطاه له بتسليم الكنيسة للأقباط وأمر بإخراجهم منها وغلق أبوابها ولكن بعد قليل سلمت لهم ثانيًا بناءً على إلتماس صفي الدولة .

ولما مات بهاء الدين الدمشقي وحل محله فقيه آخر وإستولى على البستان طلب من الأقباط بعض الشيء نظير تغاضيه عن إقامة الصلاة في الكنيسة المجاورة لبستانه وإذ لم يجيبوا طلبه ولم ينل منهم شيئًا وكان السلطان صلاح الدين قد مات والملك على مصر حينئذ هو الملك العادل وكان غائبًا في سوريا مشتغلاً بمحاربة الإفرنج هجم الفقيه على الكنيسة ونهبها وكان بجوارها كنيسة أخرى نهبها أيضًا وطرد من بهما وأغلقهما ومنع من الدخول فيهما . أما الأقباط فلم يقاوموه خوفًا من

حصول فتنة تنسب إليهم ولما وصل الملك العادل عائدًا من الشام شكوا إليه حالهم فغضب وأمر بفتح الكنيستين وأعطاهم أمرًا بعدم التعرض لهم في إقامة شعائرهم الدينية وختم الأمر بالتحذير من المخالفة.

وهكذا عاش القبط في راحة كل باقي أيام الدولة الأيوبية في ظل ملوكها الذين عرفوا أهميتهم في خدمة الحكومة والوطن فقدروهم حق قدرهم رغمًا عما كان بين هؤلاء الملوك والإفرنج من الحروب الدينية المتواصلة، ولم يصب الأقباط في أيامهم ضرر بل ربما نالهم الضرر من ذات الإفرنج الذين إدعوا أن القصد من حروبهم الصليبية حماية الدين المسيحي والمسيحيين. وذلك أنه لما إستولى الإفرنج على مدينة القدس في حربهم الأولى منعوا القبط من زيارة الأراضى المقدسة فلم يدخلوها حتي خلصها من يدهم السلطان صلاح الدين. وفي سنة ١٢٠٤م في أيام الملك العادل الأيوبى فاجأ الإفرنج مصر من جهة رشيد وتقدموا إلى فوة وتحصنوا فيها وكانت غاصة بالأقباط ولها أسقف مخصوص فقتلوا بعض من بها وطردوا البعض وسبوا البعض والبعض الآخر لم يسعه إلا الهرب. أما الأسقف فإنه لما وجد

نفسه وحيداً تركها وذهب إلى مصر وأقام بها حتى وُلي مطراناً على بلاد الحبش. وفي أثناء ذلك حل بالبلاد غلاء شديد لم يسمع بمثله حتى أكل الناس القطط والكلاب وبعضهم بعضاً فهجر بعض الأقباط أوطانهم وذهبوا إلى بلاد الأحباش وتوطنوا بها فقابلهم ملكها بالترحيب وإذ كان معظمهم من أصحاب الصنائع أشغلهم في إقامة المباني الواسعة والكنائس المشيدة التي شاهد البرتغاليون آثارها حينما تغلبوا بعد ذلك على بلاد الحبش وإندهشوا لمتانتها وإحكام صنعتها ويقول بعضهم أن ممن رحل إليها في هذه المدة رجل من كبار الأقباط يقال له فخر الدولة فأناطه الملك بتنظيم مملكته وترتيب دواوين بها على الطريقة الجارية في مصر. وفي أثناء حرب الصليبيين كان للروم الأرثوذكس في مصر بطريرك يسمى نيقولا لما رأى أن الإفرنج يحاولون فتح مصر ونزعها من يد المسلمين إغتر بظواهر الأمور وظن أنه إذا تم لهم ذلك يكون للمسيحيين شأن عظيم في البلاد ولاسيما من كان منهم على مذهب الكاثوليك فأخذ يخابر قواد عساكر الإفرنج في السر مظهراً الإنتماء للكنيسة الرومانية رجاء أن يحفظ بذلك مركزه فإفتضح أمره عند المسلمين الذين لما علموا

بهذه الخيانة سخطوا عليه وعلى سائر النصارى ولولا سعة صدر وكرم أخلاق الملك الكامل وعدم إهتمامه بشيء غير إبعاد العدو عن البلاد وتخليص مدينة دمياط التي كانوا قد إستولوا عليها من يدهم وسهره على منع ما يخل بالنظام وإجتناب ما يوجب الفتن الداخلية في هذا الوقت الحرج لقام المسلمون على النصارى والنصارى على المسلمين وجرت الدماء أنهاراً .

ولكن لم يترك الملك الكامل هذا يفوت بغير فائدة مادية من جهة ولتسكين هياج المسلمين من جهة أخرى وإذ كانت الأحوال الحاضرة تحتاج إلى الرجال والنقود أمر بتسخير النصارى في إقامة الجسور والإستحكامات مع دفع غرامات طائلة فحصل منهم مبالغ وافرة ولكن لم يكف كل هذا التأديب بطريرك الروم الذي لما نزعت مدينة دمياط من يد الإفرنج وعادوا بالخيبة إلى حيث جاؤا كتب كتابًا وأرسله إلى بابا رومية قبح فيه عمل قواد عساكرهم على إخلائهم إياها وتوسل إليه أن يحث الجنود على العود إلى مصر وأن الطريق مفتوح أمامهم من جهة رشيد ومما قاله في هذا الكتاب أنه يوجد في مصر ألوف من أولاده المسيحيين وأن جميعهم مع الأساقفة وسائر الأئمة الدينيين ينظرون

إليه ليخلصهم مما هم فيه من الظلم والعذاب وأن لا منقذ لهم غيره. فلما علم الملك بهذا الكتاب سخط على البطريرك وقبض عليه وألزمه بغرامات طائلة وإشتد على الروم وأوقف العمل في إصلاح الكنائس التي كانت قد هدمت وألزمهم أيضاً بما كان يلزم به القبط في أيام الإضطهاد مثل منعهم من ركوب الخيل والبغال ولبس العمائم السود وغير ذلك فضلا عن تجريدهم من أموالهم وممتلكاتهم. أما الأقباط فكانوا ساخطين على الإفرنج خصوصاً لما علموا أنهم لما دخلوا دمياط قتلوا كثيرا منهم وأخذوا الأطفال من أحضان أمهاتهم وكان بينهم أسقف لاتينى كان قد عين أسقفًا على عكا حينما فتحوها فصار يبتاع الأطفال ويعمدهم ثانية ولعدم وجود من يرضعهم ويعولهم مات أغلبهم فلذا ما كان القبط يتوقعون خيراً من الإفرنج لو أتيح لهم فتح مصر فلازموا الهدوء والسكينة وعدم التداخل فيما لا يهمهم أو يعنيهم.

ولما أنس الملك الكامل منهم ذلك وعلم أن لا مطمع لهم في شيء إلا أن يعيشوا في أوطانهم عيشة راضية آمنين على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم وأن لا هم لهم غير إحترام ديانتهم وعوائدهم وعدم التعرض لهم في شيء منها ركن إليهم وقربهم

منه ورفع مقامهم وعمل على ما فيه راحتهم وأذن لهم ببناء كنائسهم التي خربها المسلمون بسبب هذه الفتن والقلاقل والحروب وأباح لهم فتح ما أغلق منها وإقامة شعائرهم الدينية فيها جهاراً بغير معارضة ولذا تراهم يذكرون للآن في صلاتهم اليومية هذه العبارة: «وحنن اللهم قلوب المتولين علينا» وقاموا بما عهد إليهم من الخدم أحسن قيام وبما توجبه عليهم الذمة الوطنية وبهذه الحالة حفظوا لأنفسهم مركزاً مهمًا في الوطن فكانوا عضداً عظيمًا ليس للحكومة فقط بل ولسائر رجالها وأمرائها الذين إئتمنوهم على خزائنهم وأموالهم فحافظوا عليها وسلموهم مصالحهم فسيروها على أحسن حال. وتأكد الكل عدم الإستغناء عنهم أو إمكان تسيير الأعمال بدونهم في كل زمان رغمًا عن تصدي بعض الملوك المتغشمرين لهم وتعمدهم إخلاء الديار منهم كما سترى.

وبالجملة فإن حال القبط في أيام الدولة الأيوبية لم يكن دون ماكانوا عليه في أيام الخلافة الفاطمية من الراحة والعيشة الراضية بصرف النظر عن بعض النوافل التي تخللتها والحوادث الإستثنائية التي إعترضتها ولكنها تنوسيت بفضل الخلفاء والسلاطين الذين أخمدوا نارها بحسن تدبيرهم وصائب فكرهم

وعوضوا ما نتج عنها من الأضرار بعدلهم وعظيم سياستهم فزهت في أيامهم البلاد وسعد العباد بخلاف الذين جاءوا بعدهم ممن خربوا مصر وأبادوا أهلها كما سترى.

مشاهير الأقباط في زمن الدولة الأيوبية

ومن إشتهر من القبط في أيام الدولة الأيوبية من أهل العلم والعرفان والذين تقلدوا الوظائف العالية وحازوا ألقاب الشرف والتمييز وعثرنا على أسمائهم في تواريخ الأقباط والمسلمين:

الشيخ الرئيس صفي الدولة إبن أبي المعالي المعروف بإبن شرافي كاتب سر السلطان صلاح الدين وقد تقدم ذكره.

الشيخ أبو الفتوح إبن الميقاط الملقب بنشو الخليفة كان رئيس ديوان الجيوش في أيام الملك العادل.

الأسعد بن صدفة، كاتب دار التفاح وزعيم الحزب المضاد لتولية الراهب داود بن لقلق الشيخ أبو سعيد بن اندونة. كان مستوفيًا بالديوان الخاص العادلي في أيام الملك العادل.

الشيخ الثقة جبريل، كان من كبار الأقباط في أيام الدولة الأيوبية وإشتهر بتجديد جملة الكنائس من التي كان أخربها الأكراد.

الشيخ شرف الرئاسة إبن هيلان، كاتب الجيش.

الشيخ الأسعد أبو الفرج صليب بن ميخائيل كان صاحب ديوان الملك الصالح.

الشيخ السديد أبو الفضائل المعروف بإبن ستمائة. كان كاتب الأمير علي بن أحمد الكردى أمينًا على خزائنه وأمواله ومن مآثره تجديد عمارة مشيدة بدير أبي السيفين بمصر القديمة وجعلها مقرًا للبطريركية.

الشيخ إبن أمين الملك إبن المهذب أبو سعيد يوحنا الإسمتدرانى. كان كاتبًا دقيقًا وشاعرًا مجيدًا.

الشيخ المكين أبو البركات المعروف بإبن كامية.

أمين الدولة إبن المصوف. كان أمينًا على أموال الحكومة في أيام السلطان صلاح الدين.

الشيخ أبو المكارم بن حنا والشيخ صنيعة الملك أبو الفرج بن الوزير والشيخ علم السعداء أبو اليُمن والشيخ أبو الفرج وجميعهم من عائلة أبو اليُمن إبن زنبور المتقدم ذكرها في الكلام على الدولة الفاطمية.

الشيخ الصفي بطرس بن مهنا.

الأسعد صليب بن ميخائيل ويعرف بإبن الإيغومانس. كان عالمًا فاضلاً كلفًا بالعلم ولما أحرق شاور الوزير مصر القديمة قام هو بتجديد دير مارمينا وعمل به مدرسة ومنتدى علمى.

أبو سعيد بن الزيات. كان من أصحاب الإيرادات المثرين.

الشيخ يحيى بن هبة الله ويلقب بصنيعة الخلافة.

الشيخ مصطفي الملك إبن أبي يوسف.

الشيخ علم الرئاسة إبن الصفر.

الشيخ فخر السعد بن زيتون.

الشيخ أبو المكارم. كان كاتبًا ولما توفيت زوجته إستقال من خدمة الديوان وترهب بأحد الديرات ثم رسم أسقفًا.

بطرس بن النعبان الراهب ويلقب بالشيخ السني وهو أستاذ أولاد العسال. كان كاتبًا ثم آثر العزلة فترهب وبقي بدير المعلقة بمصر القديمة إلى أن مات بعد أن عمر طويلاً.

أولاد العسال الذين إشتهروا بالعلم والمعرفة ولهم جملة مؤلفات جليلة. منهم الأمجد بن العسال. كان كاتبًا بديوان الإنشاء وهو أشبه بديوان المعية الآن. ومنهم الشيخ الصفي ويسمى أيضًا صفاء الفضائل والشيخ أبو شكر والشيخ المؤتمن أبو إسحق وجميعهم من كبار الكتاب وأفاضلهم.

ومن مؤلفات أولاد العسال يعلم أنه كان لهم معرفة تامة باللغتين القبطية واليونانية فضلاً عن العربية. ومن مؤلفاتهم كتاب نهج السبيل في الرد على من قدح في الإنجيل ويظهر أن صاحبه ألفه لغرض مخصوص أو لمناظرة بينه وبين أصحاب له. وكتاب القوانين جمعه الشيخ صفاء الفضائل وزاد عليه بعض الشيء من عندياته فجاء كتابًا وافيًا لإحتياجات الأمة القبطية الدينية والأدبية. والسبب في جمعه وتأليفه النزاع المستديم الذي كان بين جمهور الأقباط وأساقفتهم وبين بطريركهم المسمى كيرلس الثالث الذي سود وجه تاريخ البطاركة بسوء تصرفه وشراهته وسيأتي الكلام عليه في موضعه. ومن تآليفهم أيضًا كتاب تفسير رؤيا يوحنا وتفسير رسالة بولس الأولى إلى أهل رومية وكتاب أصول الدين وكتاب الذهب المصفي والسلم المقفي وهو قاموس في اللغة القبطية ومنه إصطلح عامة الأقباط على تسمية اللغة القبطية «بالسلمى» وكتاب في النحو القبطي وجملة رسائل

في الأبقطيات .

ومن إشتهر أيضًا بالمعرفة والعلم في ذاك العصر ودلت مؤلفاته على تضلعه في العلوم والمعارف ولا سيما التاريخية والجغرافية والفلكية والمنطق والبديع والبيان فضلاً عن اللغتين القبطية واليونانية العلامة الشهير جرجس بن العميد ويعرف بإبن المكين كاتب الجيوش المنصورة ومن تأليفاته تاريخ مدني في جزئين وقد ترجم منه أخيرًا الجزء الثاني إلى الفرنساوية . وكتاب الحاوي يتضمن جملة مقالات ضمنها حل إعتراضات على الدين المسيحي وما أشكل من آيات كثيرة في الإنجيل وكمل تاريخ الطبرى أيضًا .

وبطرس أبو شاكر إبن الراهب ويعرف بأبي الكرم صاحب كتاب الشفا فيما إستتر من لاهوت المسيح وإختفى يتضمن مطابقة نبوات الأنبياء عل حياة المسيح ومقدمة في سر التثليث والتوحيد . وكتاب أبقطي مطول يتضمن صحة ما تعتمده الأمة القبطية من التاريخ المسيحي والأعياد وهو كتاب يشهد لصاحبه بالتمكن من علم الفلك .

وشمس الرئاسة أبو البركات بن كبر صاحب كتاب مصباح الظلمة يتضمن جملة فوائد دينية وأدبية .

والقس بطرس السدمنتي الراهب صاحب كتاب التصحيح في آلام المسيح وهو كتاب يشهد لمؤلفه بطول الباع في علم اللاهوت .

وغيرهم من رجال الإكليروس والعلمانيين الذين يضيق المقام بذكر أسمائهم . وجميع هذه المؤلفات وغيرها من تآليف علماء وأفاضل الأمة القبطية الذين عاشوا قبل هؤلاء والذين نبغوا بعدهم موجودة بخط اليد إلا أن بعضها إذا لم نقل كلها حرفتها أيدي النساخ المتأخرين لعدم معرفتهم اللغة العربية وقواعدها الصحيحة ولو ضبطت وإنتشرت لعمت

فوائدها العظيمة .

ومن يستحق الذكر أيضًا من أفاضل رجال هذا العصر الأنبا يوأنس (يوحنا) السادس البطريرك . كان في الأصل علمانيًا يتعاطى التجارة ثم ترهب ويقول بعضهم أنه كان متزوجًا ولما ماتت زوجته لم يشأ أن يتخذ له زوجة غيرها فآثر العزلة وكان عالمًا فاضلاً حسن السيرة مدبرًا ولما توفي البطريرك الذي كان قبله كان يسعى لدى الحكام في تعيين آخر مكانه فأشار بعض أصحاب الكلمة من المسلمين على كبار الأقباط بإختياره لهذه الوظيفة لأهليته فقبلوا هذه الإشارة وإنتخبوه ولم يعارض فيه أحد وكان مثريًا فلم يثقل على الأمة في شيء بل عاش كل أيام رئاسته يصرف على نفسه ومن معه ويتصدق على الفقراء من ماله الخاص ولهذا السبب توفرت الأموال بالدار البطريركية فكانت سببًا لطمع داود بن لقلق الملقب بكيرلس الثالث في السعي للإستيلاء عليها .

ومن حوادث أيامه أن مطران الحبش توفي فحضر وفد من قبل الملك لطلب غيره فوقع إختيار البطريرك على أسقف فوه الذي تلاشت أيروشيته بسبب ما حل بأقباطها من المصائب وتشتتهم بسبب مظالم وإضطهاد الإفرنج حينما جاءوا إليها من طريق رشيد وتحصنوا بها . ولكن لم يمض زمن حتى عاد المطران إلى مصر فجأة فإندهش البطريرك وسأله عن سبب مجيئه فأجابه أن أخا الملكة إغتصب الرئاسة منه لعدم موافقته له في بعض أمور تخل بالدين وإذ كانت حياته في خطر بسبب ذلك فر هاربًا وأتى إلى مصر فلم يقبل البطريرك هذا القول منه قضية مسلمة بل أنفذ على الفور مندوبًا من قبله بكتاب منه لملك الحبش يشف عن إهتمامه بصالح التابعين لرئاسته وكانوا بعيدين عنه وأناط المندوب بتحقيق المسألة بكل دقة وبغير غرض أو مراعاة

خاطر وحجز الأسقف عنده ولم يدعه يخرج من البطريكخانة حتى يعود المندوب وتنجلى له المسألة ويعلم إن كان صادقًا في قولة أو كاذبًا .

وبعد سنة عاد المندوب إلى مصر وعرض على البطريرك نتيجة التحقيق الذي قام به في كل هذه المدة معززاً أقواله بالحجج والبراهين القاطعة المثبتة إدانة المطران وتحرير الخبر أنه فقد من كنيسة أكسيوم عاصمة المملكة الحبشية آنية أو متاع من الذهب غالي الثمن عظيم القيمة فحصر المطران الشبهة في الأمين على خزائن الكنيسة وصار يعذبه بالجلد بالسياط فمات من شدة الضرب فهال الناس فظاعة ما إقترفه المطران وقاموا عليه فخاف وهرب . وأرسل الملك مع المندوب بعضاً من كبار موظفي مملكته وقسيسه الخاص ليشهدوا في وجه المطران بالذنب العظيم الذي إقترفه وطلب من البطريرك أن يرسل له مطرانًا غيره وصحبهم أيضًا بكتاب وهدية سنية لملك مصر وهو إذ ذاك الملك العادل وطلب إليه أن يأذن للبطريرك في تعيين مطران آخر . وإذ كان الملك غائبًا في سورية مشتغلاً بمحاربة الإفرنج والقائم بأعباء المملكة ولده الكامل قبل منهم الهدية وأذن البطريرك أن يجيب طلب الملك .

ولكن شدة محافظة البطريرك على واجباته وحرصه على القوانين إمتنع من إجابة الطلب في الحال فجمع مجمعًا حافلاً من رؤساء الإكليروس وكبار الأمة وأحضر المطران وبعد تلاوة القضية بحضوره سأله إذا كان لديه ما يدفع به من هذه التهمة عن نفسه وإذ لم يقو على ذلك حكم المجمع بتجريده من رتبته وكل درجاته الإكليريكية قبل الشروع في إنتخاب وتعيين آخر بدله . ولما كان اليوم المعين لتجريده هرع الناس من كل جهة أقباط

ومسلمون إلى المكان الذي أعد للإحتفال لمشاهدة هذا المنظر الغريب وتقاطر الناس أفواجًا أفواجًا حتى قيل أن أجرة الحمار بلغت في هذا اليوم ثلاث دراهم لكثرة الوافدين . ولما كانت الساعة المعينة أتى به أمام هذا المجمع العظيم لابسًا ملابسه الرسمية وبعد تلاوة الحكم نودى عليه بالتجريد فمزقت ملابسه من على جسمه فكان يومًا مشهودًا لم يسبق له نظير وصار الناس يتحدثون بهوله أيامًا .

ولما إنقضت أيام هذا البطريرك ومات حزن عليه كثيرون من الأقباط والمسلمين وكان من أشد الناس حزنًا عليه أسقف الروم الأرثوذكس بمصر .

ومما يذكر بالثناء على الخلفاء الفاطميين وملوك الدولة الأيوبية أنهم أطلقوا للأقباط عنان الحرية للمدافعة عن دينهم فألفت بعضهم مؤلفات واسعة جديرة بالإعتبار أثبتوا فيها بالبراهين القاطعة والحجج الدامغة صحة معتقدهم وديانتهم . وقد وصل الينا بعض هذه المؤلفات فألفيناها آيةً في الفصاحة والبلاغة تشهد لمؤلفيها بغزارة المادة في العلوم العقلية والنقلية وتمكنهم من اللغة العربية الفصحي . وكان يمكن للأقباط تحسين حالهم أكثر والتدرج في العلوم والمعارف لو لم تشغل كبارهم وعلمائهم ولا سيما سكان العاصمة المنافسات والمخاصمات الداخلية في غالب

الأحيان بسبب مطامع بعض أئمتهم وإهتمامهم بمنفعتهم الشخصية أكثر من الفائدة العمومية خصوصاً النزاع الذي حصل في أيام الدولة الأيوبية الذي دامت مدته نحو ثلث جيل . وسببه أنه لما تولى البطريرك الذي كان موجوداً في أيام الملك العادل حضر إلى العاصمة الأساقفة لينتخبوا بالإتحاد مع كبار الأمة رئيساً آخر .

وكان بأحد ديارات الفيوم راهب يسمى داود بن لقلق إشتهر بين أقرانه في أول أمره بالمعرفة والنجابة ولكن حصل بينه وبين رئيسه منافسة أدت إلى طرده من الدير على صورة غير لائقة فأتى إلى مصر وإلتجأ إلى رجل من كبار الأمة يسمى الشيخ أبا الفتوح بن الميقاط كان رئيسا على ديوان الجيش فرحب به وآواه وأناطه بتربية أولاده وتعليمهم .

داود بن لقلق

أو كيرلس الثالث وما حصل منه وبسببه

لما توفي البطريرك الذي كان موجوداً وإجتمع الأساقفة بمصر لإنتخاب بطريرك أخر سعى داود بن لقلق في الحصول على هذا المنصب الجليل وساعده في ذلك الشيخ أبو الفتوح

غير أن الأساقفة وبعض الشعب لم يرضوا به بدعوى أنه مطرود من ديره لأسباب جوهرية وأنه غير أهل للرئاسة فألح الشيخ أبو الفتوح على تعيينه ولما لم ينجح في إقناع الأساقفة والتسليم في تنصيبه بالتي هي أحسن عمد إلى نوال غرضه بالقوة. وبما له من النفوذ في الحكومة والدالة على الملك تحصل على أمر بتوليته بطريركاً. وإستمال إليه بعض الأساقفة إما بالحيلة والخداع أو بالترهيب والتحذير من سوء عاقبة أمر السلطان وغير ذلك من التمويهات فوافقوه على الرضى به وعينوا صباح يوم الأحد التالى للإحتفال بتوليته في دير المعلقة بمصر القديمة.

فلما شاع هذا الخبر في القاهرة ومصر القديمة إحتد الأساقفة وسائر رجال الإكليروس وأثاروا غضب الناس على أبي الفتوح وجماعته فهاجوا وماجوا ونهضوا إلى الشر وكادت تكون فتنة تجرى الدماء لولا أن شخصاً يسمى إبن صدفة الكاتب خاف سوء العاقبة فتدارك الأمر بحكمة بأن أشار على القوم بملازمة الهدوء والإعتدال والإستعانة على القوة بقوة تعادلها فإختار جماعة منهم وخرج بهم ليلاً قاصداً دار الكامل بن الملك العادل للإستغاثة به في دفع هذه النازلة عنهم وكان معهم أنوار ومشاعل موقدة فلما وصل الجمهور إلى دار الكامل بن الملك العادل للأستعانة به في دفع هذه النازلة عنهم وكان

معهم أنوار ومشاعل موقدة فلما وصل الجمهور إلى دار الكامل إضطرب وأرسل يكشف عن الخبر وسبب هذه المظاهر فطلبوا منه أن يأذن للمتكلمين عنهم أن يتمثلوا بين يديه ليعرضوا عليه أمرهم فأذن لهم بذلك ولما صاروا بحضرته شرحوا له المسألة بالتفصيل وطلبوا إليه أن يتوسل عنهم لدى السلطان بأن يقيلهم من تولية هذا الراهب رئيسًا عليهم لعدم أهليته ولا سيما لأن دياناتهم وقوانينهم لا تجيز تولية من لا تجتمع كلمتهم عليه وأبانوا له مايعود من الفشل لو أرغموا على قبول من لا يرغبوا أن يكون رئيسًا متسلطًا عليهم لعدم صلاحيته وأهليته لمثل هذه الوظيفة .

فطيب خاطرهم ووعدهم بإجابة طلبهم فإنصرفوا من عنده شاكرين . ولما إنصرف الجمع على هذا الوعد قام في الحال الملك الكامل وذهب إلى قصر أبيه الملك العادل و أخبره بالأمر وعدم إجتماع كلمة الأمة ورؤسائها على تولية هذا الراهب بطريركًا عليهم لأسباب قانونية وأن بعض الأساقفة محجوزون بالقوة بمصر القديمة لقصد إرغامهم على رسمه إعتمادًا على أمر الملك الذي بيد الشيخ أبي الفتوح . فلما علم الملك بذلك داخله ريب في صداقة أبي الفتوح وتجاربه على غشه بقوله له أن الأمة

ورؤساءها راضون به وكاد أبو الفتوح يقع في شر أعماله لو لم يستعمل الملك الحزم والتأني فإنه أمر بإرسال جند ليحضروا الأساقفة المحجوزين بمصر القديمة ليتحقق الخبر منهم. وبينما كان إبن صدقة وجماعته يدبرون المسألة لهذه الكيفية كان أبو الفتوح وجماعته يهتمون بتنفيذ الأمر بسرعة فبادروا بأخذ داود بن لقلق من القاهرة إلى مصر القديمة في فجر يوم الأحد وفيما هو سائرون به لاقاهم الجند في الطريق وكان قد تبعهم جمع غفير من الناس فإنقضوا عليهم وأثخنوهم ضربًا وشتتوا شملهم وفرقوا جمعهم وطلبوا داود ليفتكوا به فهرب وإختفى عن عيونهم وهكذا نجا من أيديهم. ولما رأى الجند ذلك خافوا سوء العاقبة فتركوا المهمة التي جاؤا من أجلها وأخذوا في تفريق الجمع وإعادة النظام ولم يتمكنوا من ذلك إلا بجهد عظيم.

ولما بلغ الملك خبر هذا الحادث أمر أن لا ينصب بطريرك إلا من يرضى به الجميع وتجتمع كلمة الأمة عليه وحاول أبو الفتوح مرة أخرى تولية داود فلم ينجح في مسعاه ولم يسمح هو وجماعته بتولية غيره ولكن لم تضعف هذه الخيبة عزم داود بل ما إنفك يبذل جهده ويسعى ليلاً ونهاراً في الحصول على بغيته

فكان تارة يطرق باب الحيلة والتحايل وأخرى يترامى على رجال الحكومة ويقدم لهم العطايا والهدايا حتى نفد كل ما عنده من المال وهكذا بقي كرسي الرئاسة خاليًا بسبب هذا الخلاف مدة عشرين سنة مات في خلالها معظم الأساقفة وغيرهم من الذين كانوا من أقوى المعارضين لداود بن لقلق الذي كان كلما يسمع بموت أحدهم يفرح ويسر ويعتقد أن أجل التوقف له كاد ينقضي وزمان نوال مرغوبه قد دنا . وفي أثناء ذلك إشتد الحال بمصر بسبب مضايقة الإفرنج وأصبحت الحكومة في إحتياج شديد للنقود وكان يوجد راهب يسمى عماد وصفه بعضهم بالخبث والفساد ومعاكسة كبراء وأغنياء الأمة وأئمتها وإلقائهم في ورطات لم يستطيعوا التخلص منها إلا بدفع غرامات طائلة حتى إنفضح حاله أخيراً للسلطان فقبض عليه وعاقبه بما يستحق وقيل أنه طلب أن يسلم فلم يقبل منه فإجتمع هذا الراهب بداود بن لقلق وإتفق معه أن يسعى له على شرط أن يتعهد بدفع ثلاثة آلاف دينار لخزينة الحكومة . وكان الملك العادل قد توفي وتولى مكانه الكامل ولده الذي خذل إبن لقلق في الأول وكان بين رجال الملك وحاشيته أمير يعرفه عماد الراهب يسمى فخر الدولة مسموع الكلمة عند الملك فقصده وأخبره بالأمر فوعده بنوال مرغوبه

وبواسطته صدر أمر الملك بتنصيب داود على الشرط المذكور فتولى البطريركية وسُمى كيرلس الثالث فلم يجسر أحد على مخالفة ما رسم به الملك. غير أنه لم يمض زمن حتى نفرت قلوب الناس منه بسبب إستبداده وسوء تدبيره وشراهته ومحبته للمال وتحصيله إياه بطرق غير جائزة وكانت أكثر الأبروشيات قد خلت من الأساقفة فصار لا يولى أسقفًا إلا ممن ينقده مبلغًا أكثر من سواه بغير مراعاة الأهلية والإستحقاق فتكدرت خواطر الشعب ونفرت قلوبهم من جهته ونصحه بعضهم على إنفراد فلم ينتصح. ولسبب لا نعلمه قبض عليه الملك وألزمه بدفع ألف وخمسمائة دينار فإتخذ هذه الغرامة ذريعة للتمادى في غيه أكثر وأصدر أمرًا إداريًا بإتباع جميع الديارات له مباشرة وفرض عليها مبالغ تدفع له سنويًا ونزع أيضا بعض البلاد من أبروشياتها وأتبعها له وربط عليها عوائد تدفع ليده خاصة فكدر بذلك خواطر الأساقفة فنقموا عليه هم ورؤساء الديارات وصاروا يترددون عليه ويعاتبوه فتركهم وذهب إلى الإسكندرية وأقام بها ولم يكتف بكل هذا بل ساقه سوء التدبير إلى التعدي أيضًا على حقوق بطريرك أنطاكية (السريانى) بأن عين مطرانًا قبطيًا

سماه مطران سوريا وأرسله إلى مدينة القدس ليقيم بها بدعوى أنه يوجد في سوريا كثير من الأقباط لايعرفون اللغة السريانية التي يصلى بها السريان في كنائسهم فأفسد بهذا التعدي العلاقات الودية القديمة وفصم عرى الإتحاد الذي كان بين السريان والأقباط أما بطريرك السريان فقابل الشر بالشر بأن عين هو أيضاً مطراناً من عنده إلى الديار الحبشية ليكون حسكاً في عيني كيرلس فكثر سخط الناس عليه ونصحه الشيخ أبو الفتوح وغيره من كبار الأمة ورجال الإكليروس مرة بعد أخرى أن يعدل عن خطته فلم يقبل نصيحتهم فإجتنبوه وإعتزلوا بالمرة ولم يعد أحد منهم يدنو منه أو يجتمع به . أما هو فإتخذ هذا العرض فرصة للإستبداد والتصرف في مصالح الأمة بما لا يليق فأكثر من الطلاق والزواج والتوريث بما لا ينطبق على القوانين والشريعة ولكي لا يبقى بغير مدافع أو مناضل عنه إشترى له أخصاء من رعاع الناس بمال الظلم وقربهم إليه . ولم يسمع الحكام شكوى في حقه لأنه كان يواسيهم ولاسيما والى القاهرة فإن كيرلس أعمى بصيرته بالعطايا والهدايا .

ولما مات الملك الكامل خاف كيرلس سوء العاقبة فأخذ

يتظاهر بالإعتدال والإمتناع عن الخطة السيئة التى كان يسلك فيها ولكن لم تمض أيام حتى عاد إلى ما كان عليه وأشر.

وبسبب هذا التقلب وعدم الثبات والتلاعب بمصالح الأمة قام عليه عماد الراهب الذي كان خصيصاً به وهيج خواطر الناس وبعض رجال الإكليروس ضده فتعصبوا عليه وطلبوا منه أربعة أمور رئيسية:

أولاً: الإقلاع عن السيمونية والرشوة.

ثانيًا: إحترام حقوق بطريرك السريان. وألا تتجاوز سلطة المطران الذي عينه في مدينة غزه.

ثالثًا: عزل رجال الإكليروس الذين قلدهم الوظائف الدينية بغير إستحقاق.

رابعًا: تعيين أحد الأساقفة الشيوخ المتدربين وكيلاً للدار البطريركية.

أما كيرلس فلم يكتف بعدم إجابة هذا الطلب فقط بل سعى لدى الحاكم ورمى عماد بكل كريهة فألقى القبض عليه وزجه في السجن. ولما طفح الكأس قام أربعة عشر من الأساقفة وحضروا إلى الدار البطريركية بالمعلقة بمصر القديمة وألزموا البطريرك بالحضور من مدينة الإسكندرية ولما وصل كلفوه أن يعقد مجمعًا

مؤلفًا من الإكليروس وكبار الأمة للنظر في إصلاح الأحوال التي إختلت بسبب طمعه وسوء تدبيره فلما رأى منهم الإصرار لم يسعه إلا الاجابة وكانوا قد أعدوا مشروعًا فلما إجتمع المجمع قدموه له وطلوبا منه أن يمضى عليه ويتعهد بتنفيذه.

ومن أهم مواضيع هذا المشروع الدستوري: التحذير من بيع الوظائف الدينية بثمن. وألا يقلد أسقفًا إلا من كان مشهوداً له بالعلم والمعرفة وحسن التدبير فضلاً عن الأهلية والإستحقاق والتقوى والورع ورضاء الناس به. وألا يقبل القضاة الدينيين عطايا أو هدايا من المتقاضين على أي حالة كانت ومن يخالف ذلك يقطع. وأن يجمع البطريرك في كتاب مخصوص بمساعدة أجدر وأمهر الأساقفة قوانين للفصل بمقتضاها في القضايا والدعاوى المختصة بالزواج والمواريث والوصاية وغيرها وتوزع على جميع الأبروشيات والكنائس التي في الديار المصرية. وأن يعقد في الأسبوع الثالث وأعلم رجال الإكليروس وأفاضل الرجال للنظر في شئون الأمة ومصلحتها. وأن يبقى مطران دمياط في وظيفته. وأن الكنائس التى خصها البطريرك لشخصه ترد إلى

الإبروشيات التي كانت تابعة لها في الأصل. وألا تقبل شكوى في حق أي راهب بدون تحقيق. وأن الفصل في قضايا الرهبان لا يكون بمعرفة العالمانيين. وألا يقطع أي أسقف لأي سبب كان ولابدون أن ينذره البطريرك ثلاث دفعات إثنان بالكتابة وأخرى بالمشافهة. وألا يكون للبطريرك حق في النذور التي يقدمها الناس في الكنائس في أيام الأعياد. وألا يجوز قطع أحد المؤمنين أو حرمه بعلة كونه حضر الصلاة في أحد أيام الأعياد في كنيسة غير كنيسة الأبروشية التابع لها.

ومن فحوى هذه المواضيع يعلم أن حالة داخلية الأمة ومصالحها كان قد وصل في الفساد إلى حد لم يُستطع إحتماله.

وحاول كيرلس الإمتناع من أن يكون مقيداً بهذه القيود التي لم توافق مشربه فهدده الأساقفة بالإنفصال عنه وإجتنابه وقطع كلِ العلائق معه فإضطر أن يمضى بالرغم عنه.

وكلف الشيخ صفاء الفضائل المعروف بإبن العسال الذي تقدم ذكره بجمع القوانين المشار إليها في الدستور فجمعها وضبطها وقابلها على الأصل اليوناني وأضاف عليها من عندياته بعض قوانين فجاءت وافية المقصود. وبعد مراجعتها والإقرار عليها

وزعت على جميع الإبروشيات . وقد جمعها في تسعة عشر بابًا في كل باب خمسة فصول خص بابًا منها للعماد وسبعة للزواج وواحد بالوصاية والإيهاب وثمانية بالمواريث وواحد بالإكليروس وهي المعروفة للآن بقوانين إبن العسال .

ولكن إتفق بعد ذلك بقليل أن السلطان الذي كان مالكًا على مصر عزله أخوه المسمى بالملك الصالح فإختل النظام وأصبحت البلاد في حالة فوضى مدة من الزمن حتى إستقرت الأحوال فإنتهز كيرلس الذي كان يحاول التخلص من هذا التقييد وإعادة الإستقلال إليه هذا الإختلال الذي لحق النصارى منه ولا سيما الأقباط ضرر ليس بقليل فرصة مناسبة وجاهر بنقض العهود فتجرد له في هذه المرة راهب عالمانيّ [ربما يقصد الكاتب شخص متبتل في العالم وليس في الدير] يسمي بطرس بنٍ التعبان ويعرف بالشيخ السني وكان هذا الراهب عالمًا كاملا وأستاذًا فاضلا مهابًا محبوبًا بالنسبة لعلمه وعقله وشيخوخته وأقام عليه الحجة وأثبت عليه إرتكاب ما يخل بمقامه ورتبته ومخالفته القوانين المرعية ونكثة العهود وإرتكاب الرشوة.وغير ذلك من الأعمال والخصال الذميمة . وشكاه للحكومة وشنع عليه وقال من كانت هذه خصاله لا يليق أن يكون رئيسًا وبسبب

تعدد الشكاوى عليه أصبح محتقرًا في عيون رجال الحكومة فهموا إلى عزله تخلصًا من الإشتغال بالقضايا والدعاوي التي كانت تقام عليه من وقت إلى آخر ونسبوا إليه معاملة البعض بالقسوة الزائدة وإستعماله معهم أنواع التعذيب الذي يقضي بهلاكهم فتوسط بعض الأساقفة وكبار الأمة لدى الحاكم فأطلق سبيله على شرط أن يدفع مبلغًا لخزينة الحكومة فكان هذا داعيًا لزيادة تفننه في تحصيل المال بحسبما يلوح له وإذا عورض في ذلك تعلل بما فرض عليه لخزينة الحكومة وإستمر على هذه الحالة السيئة إلى أن مات بعد أن أمضى عليه في الرئاسة ثمان سنوات لم ير في خلالها راحة يومًا واحدًا ولما مات شكر الناس الله على ذلك فكانوا يهنئون بعضهم بعضًا على خلاصهم منه.

وخلا الكرسى بعده سبع سنين وستة أشهر وستة وعشرين يومًا والناس في سكوت غير مهتمين بإنتخاب غيره بسبب الأتعاب التي لاقوها منه قبل توليته ومدة رئاسته.

وفي خلال ذلك كان بين نصارى صعيد مصر الأقباط طبيب يسمى تيودورا أسلم في أيام الملك الكامل وخدم عند الملك الفائز إبراهيم بن الملك العادل فنسب إليه وسمى بالأسعد

شرف الدين أبي القاسم هبة الله بن صاعد الفائزي ولما آلت المملكة للملك الصالح نجم الدين الأيوبى ولاه نظر الدواوين بإسرها وبعد قليل غضب عليه فسافر إلى دمشق ودخل في خدمة الأمير جمال الدين يغمور نائب السلطة بها ولما مات الملك الصالح نجم الدين وحضر ولده الملك المعظم توران شاه ليتولى مملكة مصر بعد موت أبيه في سنة ٦٤٧ هـ، قدم معه الأسعد شرف الدين.

وكان الملك الصالح نجم الدين الأيوبي قد أكثر من شراء المماليك الترك وإتخذهم حرسًا خاصًا له وجعل منهم أمراء دولته فقويت شوكتهم وزاد عددهم وتألف منهم جيش مخصوص عظيم تسبب عنه قلاقل عظيمة في سائر المملكة المصرية . ولما ضاقت المدينة بهم لكثرتهم إبتنوا لهم بيوتًا فسيحة وقصورًا منيعة في جزيرة الروضة التي قبال مصر القديمة وإذ كانت أهم مصالح الدولة في أيديهم وأمنع حصون البلاد في قبضتهم وكانوا كثيري العَدد والعِدد طمعوا في الإستقلال والإنفراد بالملك ومما زادهم طمعًا في ذلك ما أظهروه من البسالة في مقاتلة الصليبيين بجهة المنصورة التي كانوا قد وصلوا إليها من دمياط عن طريق

لم يكونوا يعرفونها ولكن أخبرهم عنها ودلهم عليها بعض من غدروا من المسلمين وخانوا ملكهم ووطنهم فساروا إليها عن هذا الطريق وهاجموها بغتة فحصل بين الفريقين قتال عنيف كاد يفضى بهزيمة المسلمين لولا المماليك فإنهم دافعوا دفاعًا عظيمًا .

وفي أثناء ذلك وصل الملك المعظم توران شاه آتيًا من دمشق ليستلم المملكة بعد موت أبيه فإشتد عزم المسلمين بوجوده وهاجموا الإفرنج وإنتصروا عليهم وأسروا منهم جملة مراكب فقصد الإفرنج التقهقر إلى دمياط فتعقبهم المصريون حتى أدركوهم بالقرب من فرسكور وإنقضوا عليهم وأثخنوهم قتلاً وأسرو لويس ملك فرنسا وكثيرًا من ضباطه وكبار جيشه .

ولما إنتهت هذه الواقعة بغلبة الإفرنج بايع المصريون الملك المعظم توران شاه لكنه لم يُحسن التصرف فعزل من كان بيدهم زمام الحكومة وكان معظمهم من المماليك وولى مكانهم رجالاً ممن جاءوا معه من سوريا لثقته بهم أكثر من غيرهم فحقد المماليك عليه فقبضوا عليه وذبحوه . وفيما هم مشتغلون بقتله إنتهز لويس ومن معه فرصة التخلص من الأسر فهربوا من بينهم ونزلوا في مراكب كانت في إنتظارهم ونجوا بحياتهم .

وبموت الملك المعظم إنتهت الدولة الأيوبية وقامت دولة المماليك وكانوا يسمون بالمماليك البحرية لإقامتهم وتحصنهم بجزيرة الروضة الواقعة في وسط النيل الذي كان يسمونه بالبحر الأعظم وتمييزًا لهم من دولة أخرى إستولت على مصر بعدهم تدعى دولة المماليك الشراكسة.

الأقباط في عهد المماليك البحرية

لما قُتل الملك المعظم قامت بتدبير المملكة شجرة الدر إحدى نساء الملك الصالح وأم الملك المعظم المقتول وكان بين الأمراء المماليك رجل يسمى عز الدين أيبك كان أعظمهم جاهًا وأقواهم نفوذًا وقيل بأن كانت بينه وبين شجرة الدر علاقات ودية منذ أيام الملك الصالح زوجها فتواطأت معه وبمساعدته تمكنت من مبايعة الأعيان لها ولقبت بعصمة الدين أم خليل وعينت عز الدين نائبا لها ثم أخذت تعمل على جذب قلوب أرباب الدولة ووجهاء البلاد إليها فصارت تخلع عليهم الخلع الثمينة وتمنحهم المناصب والرتب وخفضت الضرائب وحكمت في الرعايا بالعدل والإنصاف غير أن جميع هذه المساعي لم تأتها بفائدة فلم

يمكنها حفظ مركزها لعدم سبق مثل هذا في الإسلام أي أن يكون الملك بيد إمراة فألجأها الأمراء إلى الإستقالة فإستقالت .

وفي سنة ٦٥٨ هـ سنة ١٢٥٠م إستقل عز الدين أيبك الذي كان نائباً لشجرة الدر بمملكة مصر ولقب بالملك المعز وتزوج بها .

ومن ذاك الحين أخذ نجم القبط في الأفول فحلت بهم المصائب تباعًا وكانت أول مصيبة حاقت بهم على يد شرف الدين أبو القاسم هبة الله بن صاعد الذي كان قبطيًا وأسلم فإنه لما عاد من دمشق تعلق بخدمة الأمير عز الدين أيبك وبقي في خدمته إلى أن تسلطن وتلقب بالملك المعز فولاه الوزارة وتمكن من الدولة تمكنًا زائدًا وحينئذ أظهر ما دل على خسته ودناءة أصله فأحدث مظالم كثيرة بين الناس وأول مظلمة بدأ بها أنه تصدى للأقباط فحصّل منهم الجزية مضاعفة وقرر على التجار وذوي اليسار منهم أموالاً يدفعونها في كل سنة وأحدث التقويم والتصقيع على الأملاك ورتب مكوسًا على الخيل والبغال والحمير وسائر الحيوانات وعلى الرقيق من العبيد والإماء وعلى سائر المبيعات وضمن الخمر والمزر والحشيش وبيوت الزواني بأموال

سماها بالحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية ولم يكتف بكل هذا بل خرج بنفسه إلى أعمال مصر وشدد على الناس وصار يحصل الأموال منهم وكان ينوب عنه في الوزارة مدة غيابه رجل يسمى زين الدين يعقوب وكان يعرف اللغة التركية فصار يضبط له مجالس الأمراء ويعرفه بما يدور بينهم من الكلام. ولما قتل المعز أيبك بدسيسة من شجرة الدر وقام من بعده إبنه الملك المنصور وكان الأمراء قد سئمت نفوسهم من الأسعد شرف الدين الوزير لما كان يأتيه كل يوم من ذميم الأعمال ولم يستطيعوا مقاومته خوفًا من الملك لميله إليه فإنتهز تلك الفرصة بعض أعدائه للإيقاع به فسعوا ضده وإتهموه بأنه يستخف بالسلطان نظرًا لصغر سنه (لأنه لما تولى المملكة كان عمره خمسة عشر سنة) وشهدوا عليه أنه قال أن المملكة لاتقوم بالصبيان الصغار وأنه خير للملك الناصر صاحب الشام أن يتولى مملكة مصر وأنه عزم على السير إليه ليعرض عليه هذا الأمر وهو يساعده على أخذ المملكة فبلغت هذه التهمات أم السلطان فخافت منه وقبضت عليه وحبسته بقلعة الجبل وأخذت منه صك بمائة ألف دينار فقبضوا على سائر أمواله وأملاكه ثم خُنق في سنة

٦٥٥ ولف في نخ ودُفن.

وبعد قليل رزئت الأقباط برزيئة أخرى كانت أشد وقعًا وأكثر تأثيرًا فيهم من المصيبة التى نالتهم على يد الأسعد شرف الدين الوزير القبطي المرتد عن دينه وذلك أنه في سنة ٦٦٣ هـ حصل بمدينة القاهرة حريق هائل إتخذه بعض المبغضين للنصارى وسيلة للإيقاع بهم فوشوا للملك وهو إذ ذاك الظاهر بيبرس البندقدارى أن هذا الحريق من فعل النصارى واليهود ولكي يزيدوا نار غضب الملك على النصارى إنتحلوا له سببًا لايبعد على بيبرس تصديقه بأن قالوا له أنهم في كدر منذ علموا بغلبة الإفرنج وإنتصار المسلمين عليهم في سوريا وصاروا يحسنون له في القول حتى جعلوه يصدق إختلاقاتهم وتمويهاتهم التي لا أصل لها ومع أن هذا الملك كان موصوفًا بصفات حميدة إلا أنه كان عجولاً سريع الغضب وكان في نفسه شيء من جهة كتاب الدواوين فحمي غضبه وأمر بجمعهم وإخراجهم خارج المدينة وإلقائهم في حفرة ليحرقوا وكان بين رجال الدولة رجل يسمى فارس الدين إقطاى رئيس العساكر فرثى لحالهم وصار يتوقع على الملك حتى سمح بالعفو عنهم بشرط أن يدفعوا إلى بيت

المال خمسين ألف دينار نظير الأملاك التي أتهموا بحرقها .

ويحكى أنه لما جمعت النصارى واليهود وأخذوا ليحرقوا بظاهر القاهرة على مشهد من الملك وأمرائه برز إليه من بين الجمع رجل يهودى يسمى إبن الكازرونى كان صيرافيًا في أحد الدواوين وقال للسلطان سألتك بالله لا تحرقنا مع هؤلاء الكلاب الملاعين أعدائنا وأعدائكم أحرقنا ناحية وحدنا فضحك السلطان والأمراء وحينئذ تقرر الأمر على ما ذكر . وقد ذكر هذه الواقعة المقريزى ولا أرى إلا أنها من مبالغات الكتاب .

ولما مات السلطان بيبرس خلفه ولده برقة خان وبعد سنتين وثلاث أشهر قام عليه الأمراء وخلعوه ونفوه ثم قتلوه وبايعوا أخاه سلامش في سنة ٦٧٨ هـ ولقبوه بالملك العادل وإذ كان عمره لايزيد عن سبع سنوات وبضعة أشهر أقاموا الأمير سيف الدين قلاون وصيًا عليه وبعد ثلاثة أشهر قام عليه هذا الوصي وخلعه ونفاه وإستلم زمام الأحكام وإستقل بها ولقب بالملك المنصور قلاون وكان أول شيء عمله أنه أصدر أمرًا بطرد جميع الكتاب النصارى من ديوان الجيش وإستخدام بدلهم من المسلمين .

وفي سنة ٦٨٢ هـ تمرد عليه المماليك وهموا إلى نبذ طاعته

فغضب لذلك غضبًا أعمى بصيرته وأفقده صوابه فلم يميز بين المجرم والبريء والطائع والمتمرد والضعيف والقوي فساق جميع الرعية بعصا واحدة وأخذهم بذنب واحد وأعمل فيه السيف ثلاث أيام متوالية حتى غصت الشوارع والطرق بجثث القتلى رجالاً ونساءً وأطفالاً فجاء إليه العلماء متوسلين أن يرحم الناس ويرفع عنهم هذا البلاء فإنتبه من غفلته وفطن لما أتاه من الإستبداد فندم على ما فرط منه وأراد أن يكفر عن ذلك فبنى تكايا للمساكين ومستشفيات لمعالجة ذوي الأسقام وأضاف على هذه الحسنات ما ظنه من مقتضيات التكفير بأن ضيق على النصارى وإشتد عليهم فأمر بأن لا يركبوا خيلاً ولا بغالاً وألزمهم بأن يركبوا الحمير ويشدوا الزنانير على أوساطهم وألا يحدث نصراني مسلمًا وهو راكب ولا يلبسوا ثيابًا مصقولة وغير ذلك من أنواع الذل والهوان.

ولما مات هذا السلطان بعد أن ملك نحو إثنتي عشر سنة وتولى بعده إبنه الملك خليل ظن النصارى أن أيام ذلهم قد إنقضت فعادوا إلى ركوب البغال والخيل وأخذوا في تغيير هيئاتهم وملابسهم وكان كثير منهم كتابًا عند الأمراء ولهم الكلمة

المسموعة عندهم لمحافظتهم على أموالهم وضبط حسا باتهم وتسيير أعمالهم على أحسن حال وأكمل منوال حتى نالوا ثقتهم بهم فداخل بعضهم الغرور معتمدين على جاه مخدوميهم وحمايتهم لهم فدفعتهم هذه الأوهام إلى الترفع والتعاظم والتأنق في المعيشة والتجمل بلبس الثياب المصقولة فساء هذا بعض المتعصبين الذين كانوا يرتاحون لإذلال النصارى فصاوا يهزأون بهم ويقطبون وجوههم فيهم وينظرون إليهم شزراً وغير ذلك مما جرأ العامة على إهانتهم والإستخفاف بهم. وإتفق أن نصرانيًا يسمى عين الغزال كان كاتبًا عند أحد الأمراء صادف يومًا وهو ذاهب إلى دار مخدومه سمساراً كان مطلوبًا منه مبلغًا من النقود ثمن غلة إشتراها من شون الأمير فطالبه الكاتب بما عليه فإعتذر وطلب إليه أن يمهله أيامًا فلم يقبل منه وأصر على أن يدفع له ما هو مطلوب منه أو يذهب معه إلى دار الأمير وأمر غلمانه أن يقبضوا عليه ويأخذوه بالرغم عنه فإجتمع الناس وتوسطوا له وطلبوا من الكاتب أن يُخلي سبيله فلم يرض فتكاثروا عليه وألقوه عن حماره وأطلقوا السمسار وصاروا يصفعونه ويضربونه وإذ كان قريبًا من دار أستاذه ذهب غلامه إليه ليأتيه بمن ينجده فأتته

طائفة من غلمان الأمير ورجاله فأنقذوه من يدهم وهو في حالة
سيئة مما ناله من شدة الضرب والأذى وهموا إلى القبض عليهم
فخافوا وولوا الأدبار مستغيثين بالسلطان وكانوا كل مامروا في
طريق ينضم إليهم جماعة حتى كثر عددهم فجدوا مسرعين إلى
القلعة حيث كان الملك الذي لما سمع صياحهم وضجيجهم
أرسل يسأل عن الخبر فعرفوه بما جرى وشنعوا في القول مدعين
على النصارى بالتعاظم والقساوة وسوء معاملة المسلمين وإشتكوا
من حماية الأمراء لهم ومعاونتهم على إذاهم والتحكم فيهم فهال
تجمهر الناس السلطان وخشي سوء العاقبة فغضب ولم يتدبر
من حيلة لإطفاء هذه الفتنة إلا بإهلاك الكتاب النصارى فأمر
بجمع كبار كتاب الأمراء وإحضارهم بين يديه ليقتلهم فتواقع
عليه الأمير بدر الدين بيدرا النائب وأمير آخر إسمه سنجر
الشجاعي وإستعطفاه ومازالا به حتى عفا عنهم بشرط ألا
يستخدم أحد من الأمراء نصرانيًا ولا يهوديًا وأن يعرضوا عليه
الإسلام فمن إمتنع كان هو الجاني على نفسه ومن أسلم إستبقوه
ونودي بذلك في القاهرة ومصر (القديمة) فإنتهز رعاع المسلمين
ومن كان في نفسه حاجة من جهة النصارى هذه فرصة مناسبة

فتتبعوهم أينما كانوا وهجموا على بيوتهم ونهبوها وقتلوا جماعة منهم وأخرجوا النساء مسبيات وإشتد غضب السلطان على كتاب ديوانه النصارى وأمر بإحراقهم قائلاً إني لا أريد أن يكون في دولتي ديوانًا نصرانيًا فتقدم الأمير بيدرا نائبه ليشفع فيهم ومازال بالسلطان حتى سمح بأن من يسلم منهم يستقر في خدمته ومن إمتنع يقتل فخرج إليهم الأمير وأعلمهم بذلك فآثروا الإستسلام على القتل وبذلك نجوا بحياتهم وكتبت شهادات عليهم بذلك وأخذها بيدرا ودخل بها إلى السلطان فأمر بالخلع عليهم وإبقائهم في خداماتهم وفي عصارى اليوم أخذوهم إلى مجلس النائب وقد إجتمع به القضاة فجددوا إسلامهم بحضرتهم.

وكان بين الذين إستسلموا رجل يسمى المكين بن السقاعي كان فصيحًا طلق اللسان قال المقريزى: فلما خرج الأمير بيدرا من عند السلطان وأخبرهم بالعفو عمن يسلم وقتل من يصر على البقاء على نصرانيته قال له إبن السقاعي: «وأبنا قواد يختار الموت على هذا الدين والله دين نقتل ونموت عليه يروح لا كتب الله عليه سلامة قولوا لنا الذي تختارونه حتى نروح إليه» فغلب بيدرا الضحك وقال له ويحك أنحن نختار غير دين الإسلام فقال له «ياخوند (كلمة تركية للتعظيم) قولوا ونحن

نتبعكم» . ولما خرجوا بهم إلى مجلس الوزير للإشهاد على إسلامهم بدأ بعض الحاضرين بالمكين بن السقاعي وناوله ورقة ليكتب عليها وقال متهكمًا خذ يا قاضى هذه الورقة وأكتب عليها (أنك أسلمت) فقال له «والله يا بنى ما كان لنا هذا القضاء في خلد» اهـ . فأنظر رعاك الله كيف كان القبط قد وصلوا في هذا الزمن إلى التمكن من معرفة اللغة العربية حتى كانوا يتكلمون بها بمثل هذه الفصاحة .

كان كل هذا والعامة مستمرون على الهجوم على البيوت ونهبها . وعم نهبهم جميع بيوت النصارى حتى اليهود لم يسلموا من أيديهم ولما رأى الأمير بيدرا ما كان من أمرهم والفظائع التى يرتكبونها ولا رادع لهم أوعز إلى والى القاهرة أن يمنع الناس عن النهب فلم يستطع ذلك إلا بعد أن ضرب بعضهم وشنق بعضهم .

وإنتهت هذه الحادثة الفظيعة بإستسلام كل الكتاب النصارى ونهب بيوتهم وبيوت غيرهم وسبي نساءهم كما شرحه المقريزى في خططه والعهدة عليه . ولم يستحسن عقلاء المسلمين إكراه النصارى على الإسلام فقالوا أن إستسلامهم موجب لإذلال المسلمين والتسلط عليهم بالظلم الذي كانت تمنعهم نصرانيتهم من

إظهاره وربما كانوا مصيبين في هذا الفكر لشدة مالاقوه من شرف الدين بن صاعد الذي تقدم خبره .

ولم ينته هذا القرن السابع للهجرة إلا بمصائب عظيمة وويلات كثيرة بعضها من الله وبعضها من الناس أما الذي من الله فالقحط والطاعون والجوع الشديد بسبب قلة زيادة النيل والذي من الناس الحروب الداخلية والخارجية والفتن والقلاقل بسبب إنقسام المماليك إلى أحزاب فكان القبط أعظم ضحية لهذه المصائب والبلايا وإضطهاد الحكام لهم وإلزامهم في هذه الأيام الصعبة بدفع غرامات طائلة وزيادة الجزية عليهم فمات خلق كثير وأسلم كثير بعضهم أملاً في التخلص من المظالم وبعضهم طمعًا في التقدم في الدواوين والمناصب العالية رغمًا عما كانوا يشاهدونه من الغدر بالمتقدمين في الحكومة وضبط أموالهم وقتلهم والإستيلاء على جميع ممتلكاتهم ومقتنياتهم ولكن الإنسان ميال بالطبع إلى حب التقدم والطمع في الإرتقاء إلى المناصب وقل من يعتبر بغيره .

ولم يكن القرن الثامن أقل مصائب من غيره فإنه كان يجبي من كل من الأقباط دينار في كل سنة علاوة على الجزية المضروبة

عليه برسم نفقة الجنود وهذا غير ما كان يجنى منهم بالإشتراك مع المسلمين مما كانوا يسمونه زكاة الدولة ونفقات الإحتفال بوفاء النيل وما كان يجمع من سكان القاهرة وضواحيها بغير إستثناء إذا أتى مبشر بفتح حصن أو غيره فإنهم كانوا يأخذون من الناس كل واحد على قدر طاقته فإذا أتى بشير يبشر بفتح مدينة ونزعها من يد الإفرنج مثلاً في أيام حروب الصليبيين لا يستطع النصارى الإمتناع عن الدفع مهما كان المبلغ المفروض عليهم جسيما لئلا يتهموا بالتشيع للنصارى أمثالهم فيقعوا في مصيبة عظمى.

ومن حوادث هذا الجيل أيضاً أنه كان للنصارى عادة أن يقيموا إحتفالاً سنويًا في اليوم الثامن من شهر بشنس في ناحية شبرا[1] يسمونه عيد الشهيد وكانوا يزعمون أن النيل لا يفي إذا لم يلق فيه تابوت من خشب فيه أصبع من أصابع الشهيد الذي كانوا يقيمون له هذا الإحتفال السنوي الذي يستمر ثلاثة أيام فكان عند إقترابه ترحل إليه النصارى وغيرهم من جميع القرى والبلاد وينصبون الخيام على شاطىء النيل. وبقي هذا العيد

(1) وبالقبطية ϣⲱⲡⲣⲏ. وهي مركبة من كلمتين ϣⲱⲡ مدينة وⲣⲏ شمس.

مستمرًا إلى سنة ٧٠٢ هـ . والسلطان يومئذ الملك الناصر محمد بن قلاون والقائم بتدبير الدولة الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير أستادار السلطان وكان إليه أمور ديار مصر والسلطان ليس له في المملكة إلا الإسم فقط فقصد الأمير بيبرس أبطاله بدعوى أنه يحصل في أيامه من السكر والمجاهرة بإرتكاب المعاصى والفجور ما لايليق بالأدب ومن الفتن والعربدة والمشاجرات التي تؤدى أحيانا إلى القتل ما يخل بالنظام فكلف والي القاهرة وحجابه بمنع الناس من الإجتماع بشبرا على عادتهم وكتب إلى جميع الولاة في الجهات بإجهار النداء بذلك في سائر الأقاليم .

قال المقريزى في خططه فشق ذلك على أقباط مصر كلهم ممن أظهر الإسلام منهم وزعم أنه مسلم وممن هو باق على نصرانيته ومشى بعضهم إلى بعض وكان منهم رجل يعرف بالتاج بن سعيد الدولة يعانى الكتابة وهو يومئذ في خدمة الأمير بيبرس وقد إحتوى على عقله وإستولى على جميع أموره كما هى عادة ملوك مصر وأمرائها من الأتراك في الإنقياد لكتابهم من القبط وما زال الأقباط بالتاج إلى أن تحدث مع مخدومه الأمير بيبرس وخيل له من تلف مال الخراج إذا بطل هذا العيد فإن أكثر خراج شبرا إنما يتحصل من ذلك وقال له إذا لم يعمل العيد لا

يطلع النيل أبدًا ويخرب إقليم مصر لعدم طلوع النيل ونحو ذلك من هيف القول وتنميق المكر فثبت الله الأمير بيبرس وقواه حتى أعرض عن جميع ما زخرفه له من الكلام وإستمر على منع عمل العيد وقال للتاج إن كان النيل لايطلع إلا بهذا الأصبع فلا يطلع وإن كان الله سبحانه وتعالى هو المتصرف فيه فنكذب النصارى فبطل العيد من تلك السنة ولم يزل منقطعًا إلى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة للهجرة اهـ.

فعبارة المقريزى هذه مع مافيها من ألفاظ التحامل التي لا ننسبها إلا لحشو النساخ كما هي عادتهم تدل على أن حكومة ذاك العصر لم تراع عوائد البلاد كما كانت الحكومات التي قبلها بل كانت مستبدة وغير عالمة بطرق السياسة وكيفية حفظ النظام ولو كانت على غير ذلك لما نسب لمصر الدخول في الإنحطاط المستمر منذ تسلط المماليك عليها خصوصًا وأن الإحتفال بعيد الشهيد لم يكن من الأمور المستحدثة في زمن بيبرس أو دولته حتى كان يُلتمس له العذر في إبطاله بل كان قديمًا كغيره من المواسم التي كانت تعمل بمصر منذ دخول العرب مثل النيروز وعيد الصليب والغطاس وعيد الميلاد وغيرها ولم

يخالج صدر أى ملك أو خليفة من الدول المتقدمة أن يمنع أهل البلاد عن الإحتفال بها بل المقريزى ذاته يشهد أن الملوك السالفين ما كانوا يقتصرون على عدم المعارضة فيها ومنع الناس من إقامتها فقط بل كانوا يشجعونهم عليها ويوزعون على أرباب الدواوين في كل موسم منها عطايا وهدايا مقررة مع توجيه عناية أولي الأمر على حفظ النظام ومنع ما يخل به وبالآداب في أيام الإحتفال بها وهذا شأن كل حكومة عادلة تعرف قيمة راحة رعاياها وإحترام عوائد البلاد التي تحت حكمها وما يعود على الناس من الفوائد خصوصاً رواج البيع والشراء في مثل هذه المواسم السنوية . قال المقريزى أيضا وفي سنة ٧٣٨ هـ . (لما تخلص الملك الناصر من نير بيبرس وقبض عليه وقتله) طلب منه إثنان من أمرائه أن يأذن لهما بالخروج إلى الصيد ويغيبا مدة فلم تطب نفسه بذلك لشدة غرامه بهما وتهتكه في محبتهما وأراد صرفهما عن السفر فقال لهما نحن نعيد عمل عيد الشهيد فيكون تفرجكما عليه أنزه من خروجكما إلى الصيد وكان قد قرب أوانه فرَضَيا منه بذلك وأشيع في الأقاليم إعادة عيد الشهيد فلما كان اليوم الذي كانت العادة بعمله فيه ركب الأمراء

النيل في الشخاتير وإجتمع الناس من كل جهة وبرز أرباب الغناء وأصحاب اللهو والخلاعة فركبوا النيل وتجاهروا بما كانت عادتهم المجاهرة به من أنواع المنكرات. وتوسع الأمراء في تنوع الأطعمة والحلاوات وغيرها توسعًا خرجوا فيه عن الحد في الكثرة البالغة وعم الناس منه ما لايمكن وصفه لكثرته وإستمروا على ذلك ثلاثة أيام وكانت مدة إنقطاع عمل عيد الشهيد منذ أبطله الأمير إلى أن أعاده الملك الناصر ستًا وثلاثين سنة وإستمر عمله في كل سنة بعد ذلك إلى أن كانت سنة ٧٥٥ تحرك المسلمون على النصارى وعملت أوراق بما قد وقف من أراضى مصر على كنائس النصارى ودياراتهم وألزم كتاب الأمراء بتحرير ذلك وحملت الأوراق إلى ديوان الأحباس. فلما تحررت الأوراق إشتملت على خمسة وعشرين ألف فدان كلها موقوفة على الديارات والكنائس فعرضت على الأمراء القائمين بتدبير الدولة في أيام الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون وهم الأمير شيخو العمرى والأمير صرغتمش والأمير طاز فتقرر الحال على أن ينعم بذلك على الأمراء زيادة على إقطاعاتهم وألزم النصارى بما يلزمهم من الصغار وهدمت لهم عدة كنائس.

فلما كان العشرة الأخيرة من شهر رجب من السنة المذكورة خرج الحاجب والأمير علاء الدين على بن الكورانى والى القاهرة إلى ناحية شبرا الخيام [1] وهدما كنيسة النصارى وأخذا منها أصبع الشهيد في صندوق وأحضراه إلى الملك الصالح فأحرقه بين يديه في الميدان وذّرى رماده في البحر حتى لا يأخذه النصارى فبطل عيد الشهيد من ذاك اليوم إلى هذا العهد (اهـ) .

واقعة هدم الكنائس وإحراق الجوامع

مما تقدم يعلم القارىء أن مصر كانت في عهد دولة المماليك هذه في أسوأ حال لعدم معرفة ملوكها كيف تساس البلاد ولا الطرق المؤدية إلى راحة العباد فأصبحت مصر في أيامهم ميدان قتال وفتن وحروب داخلية فعزَّ الأمن وإستولى الفشل وتعطلت الأعمال وحل بالناس الويل والبلاء والفقر خصوصاً وأن المماليك

(1) ϣⲱⲡⲣⲏⲡϫⲏϣⲓ ويعني شبرا مصر والعرب حرفوها فقالوا الخيام وشبرا الخيمة.

كانوا منقسمين إلى أقسام وأحزاب شتى يحاول كل حزب منهم الإستيلاء على عرش المملكة فكثرت بينهم المنازعات والمخاصمات والقتال وإذا تغلب حزب على آخر وظفر به وإستولى زعيمه على السلطنة لايكون في مأمن إلا إذا أذل الحزب المخاصم له وأضعف شوكته وأستولى على ما لرجاله من الإقطاعات وأعطاها لمحاربيه أما معاملتهم للرعية فكانت بالجور والعسف والقساوة ظنًا منهم أن الإشتداد عل الأهالى وقتل الكثير منهم على أقل سبب يزيد في هيبتهم ويوقع الرعب والخوف في قلوب الناس من جهتهم وهكذا يكونون في أمن على مراكزهم من جهة الرعايا الوطنيين وعلى حذر من سائر الأمراء والمماليك الذين من غير الحزب الحاكم.

وبسبب هذه السياسة العقيمة وتعطيل الأعمال لا سيما الزراعة لأن معظم الأراضى وأجودها كانت قد نُزعت من يد أصحابها وأُعطيت للأمراء فقلت في وجوه الناس أبواب الرزق وإستولى على كثير منهم الفقر والإحتياج فإزداد عدد العامة والأوباش ولا سيما في مدينة القاهرة.

ولما كثر إقبال الأقباط على الإسلام ليحفظوا بذلك

مراكزهم أساؤوا معاملة المسلمين بأن شددوا عليهم في الأحكام وجمع الأموال والضرائب فإشتكى المسلمون من النصارى الذين أسلموا والباقين على دينهم فصدر أمر السلطان بأن يعقد مجلس بحضرته يحضره الأمراء والقضاة وبطريرك الأقباط وحاخام اليهود لمحاجتهم أمامه وإلزامهم بما يلزمهم بمقتضى العهد فإستقر الرأى على إبعادهم من ديوان السلطان وسائر دواوين الحكومة والأمراء وألا يبقى فيهم أحد ولو أسلم وألا يكرهوا على الإسلام منعًا للإنتقام لأنفسهم بواسطة إسلامهم وتوليهم الوظائف العالية وإذا أسلم أحد منهم من تلقاء نفسه فلا يبرح باب أحد الجوامع بل يعيش من إحسان المسلمين أهل الخير. وقد كان هذا الحكم الصارم موجبًا لطمع عامة المسلمين في النصارى فهجموا على بيوت الموسرين منهم الذين فقدوا جاههم بطردهم من خدمة الحكومة ونهبوها ولكن لم يمض زمن حتى دعت الضرورة إلى إعادتهم للخدمة ولا يبعد أن يكونوا أساؤوا معاملة أصاغر المسلمين تشفيًا لهم وعموا على مكايدة غيرهم بالتظاهر بالأبهة والإفتخار. والظلم كما يقال كمين في النفس القوة تخرجه والضعف يخفيه.

أما حادثة هدم الكنائس وحرق الجوامع فكانت في أيام

الملك الناصر قلاوون ومع أن هذا الملك كان موصوفًا بالعقل وحسن التدبير والشهامة لم يستطع إطفاء نار الفتنة رغمًا عن الإحتياطات التى إتخذها لمنع إمتدادها فكان يقسو على المسلمين تارة والمسلمين والنصارى معًا تارة أخرى حتى إضطره إحتدام المسلمين بنار الغضب والهياج الذي أخذ منهم كل مأخذ إلى التسليم لهم في نهب بيوت النصارى وقتلهم وسلب أموالهم .

وتحرير الخبر أن هذا السلطان الذي طالت مدة حكمه نحو ثلاثين سنة رأى في أثنائها من تقلبات الأحوال ما لم يره غيره من سلاطين المماليك الذين إستولوا على عرش مملكة مصر والشام من قبله والذين حكموا البلاد من بعده فأكثر من العمارات وبناء القناطر والجسور رجاء تشاغل العامة بذلك عن العربدة وتشويش راحة الحكومة وطمعهم في أموال الموسرين وكلّف الأمراء المثرين أيضًا ببناء دور واسعة وقصور شاهقة لهذا الغرض بعينه . ومن جملة الأعمال التي قصدها أنه شرع في بناء ميدان فسيح بالجهة المعروفة الآن بالناصرية وفي وسطها فسقية واسعة على شبه بركة فسيحة وكان في الموضع الذي إختاره لذلك كنيسة للأقباط تسمى كنيسة الزهرى واسعة الأطراف محكمة البناء

فلم يُرد أن يأخذها منهم بالرغم عنهم وكذلك هم لم يخطر ببالهم أن يتنازلوا عنها إكرامًا له أو إبتغاء مرضاته ولو فعلوا هكذا لما حل بهم ما حل. فأمر أن يتركوها ويحفروا حولها طمعًا في سقوطها من تلقاء ذاتها وإذ كانت على جانب عظيم من المتانة لم تسقط فعد المسلمون هذا التساهل من قبل السلطان ميلاً للنصارى وتصميم النصارى على عدم التنازل عن الكنيسة للسلطان وقاحة منهم. فلما كثرت العمارات بالعاصمة وكانت تحتاج إلى أنقاض وأخشاب ورخام وكانت جميع هذه متوفرة بكنائس النصارى وإذا هدمت واحدة منها جددت أو قامت غيرها أعظم وأحسن من الأولى تواطأ المسلمون وبعض الأمراء على هدم الكنائس وإستخدام إنقاضها وأدواتها في العمارات التى كُلفوا بإقامتها وإنتقامًا من النصارى على تعنتهم وعدم تفكرهم في إهدائها للسلطان حال كونهم لايجهلون إحتياجه إليها. وفي أحد أيام الجمع بينما كان الناس يصلون في الجوامع قام فقير عند نهاية الصلاة ونادى بصوت عال قائلاً «الله أكبر هيا بنا نهدم كنائس النصارى» فلم يشعر النصارى إلا والهدم دائر في كنائسهم وسلب ما بها من الأوانى والمقتنيات وبعضهم

هجم على البيوت ونهبوها فعلاً الضجيج والصراخ وإرتفع الغبار في الجو وهاج الناس وماجوا ووصل الصياح آذان السلطان وأرسل يسأل عن الخبر فقيل له أن الناس يهدمون كنائس النصارى ويقولون أن هذا بأمرك فإندهش غاية الإندهاش وتعجب من الإفتراء عليه بهذه التهمة الباطلة وفيما هو يفكر فيما يجب عمله لمنع هذا التعدي وصل إليه خبر أن الناس محيطون ببابلون التى كان يسكنها أكثر الأقباط وأغنياء القوم ويشددون في حصارها ولا قدرة لمن بها على مقاومة المحاصرين فإذا لم يُسعفوا يهلكون عن آخرهم ولاسيما أن رئيس الحرس أراد أن يمنعهم فرجموه بالحجارة فأمر السلطان أميراً من أمرائه أن يقوم حالاً بفرقة من العساكر الخيالة ليخلص حياة من بها ولما وصل الأمير إلى تلك الجهة وجد الناس يستعدون لحرق البوابة لأنهم لم يستطعوا فتحها فجرّد الأمير ومن معه سيوفهم ونادى على الناس أن يبعدوا وألا يقتلهم بالسيف فإمتنعوا ثم نادى عليه بأعلى صوته أن من يبقى منهم هناك بعد ساعة يُقتل فإنصرف الجمع وتفرق الناس وبقى هناك إلى وقت العشاء خيفة أن يعودوا إلى الهجوم وقبل أن يبرح مكانه شدد على رئيس الحرس بالمحافظة على بابلون ومن

بها ولكي لا يكون له عذر ترك له مدداً مؤلفًا من خمسين جنديًا .

وأرسل السلطان أيضًا بعض الأمراء إلى جهات أخرى من مصر ليمنعوا الناس من هدم الكنائس وإبعادهم عنها ولكن هؤلاء لم يفعلوا كما فعل الأمير الأول بل توانوا وأبطأوا في السير حتى إذا ما وصلوا إلى الجهات المقصودة وجدوا الكنائس قد هُدمت عن آخرها ونهب الناس ما بها وهكذا لم ينج من الهدم والنهب إلا كنائس بابلون و البيوت التي بها . أما كنائس مصر والفسطاط فهدمت جميعها أو معظمها . وشمل الخوف جميع الأقباط الساكنين بمصر والفسطاط فلم يجسروا على الخروج من بيوتهم وبقوا محبوسين فيها أيامًا وبعضهم تركها وسكن ببابلون لحصانتها وعدم إمكان الهجوم والتغلب عليها بسهولة .

أما الطرق في يوم هذه الحادثة فكانت مريعة جداً لأنها كانت غاصة بالناهبين الحاملين منهوبات الكنائس وبيوت النصارى . والذي زاد غيظ السلطان مجاهرة هؤلاء المعتدين بقولهم أنهم لم يفعلوا ذلك إلا بإذنه وأمره وطلب الرجل الذى نادى في الجامع بهدم الكنائس فلم يجده فقال لا يمكن أن يأتي

الناس بمثل هذا بغير قصد وتواطىء ولاسيما لما وصلت الأخبار من مديريات الغربية والشرقية والإسكندرية ودمنهور والبهنسا وأسوان ومنفلوط والمنيا وقوص وغيرها بما يفيد أنه في يوم الجمعة بعد الصلاة هتف هاتف على الناس «أن أهدموا كنائس النصارى» فهدم كثير منها ومن الديارات . فأمر السلطان بالبحث على رؤساء العصابة التي أتت بهذا الفعل الذميم وإحضارهم لديه ليجازيهم بما يستحقون على هذا الإعتداء والإفتراء فخاف بعضهم إفتضاح الأمر وصاروا يتواقعون عليه ويترامون على قدميه أن يعفو عنهم قائلين إنما هذا قصاص من الله للنصارى لتجبرهم وتعاظمهم وتعنتهم وإرتكابهم ما لا تأمر به ديانتهم من المعاصي وما زالوا به حتى عفا عنهم وصرف النظر عن التشديد في طلبهم .

ولكن لم تمض ثلاثون يومًا من يوم حادثة هدم الكنائس حتى حصلت حادثة أخرى كانت أعظم هولاً من التي قبلها . ذلك أنه ظهر فجأة بمصر حريق هائل وصار يمتد بسرعة حتى كاد يلتهم جميع المدينة ويصبحها في خبر كان وظن بعضهم من أول وهلة أن هذا الحريق لابد أن يكون من فعل الأقباط نظير

هدم كنائسهم فصاروا يراقبون ذلك .

وبعد قليل قُبض على إثنين وُجدا خارجين من مدرسة عقب ظهور النار فأُعلم السلطان بذلك فأمر بتعذيبهما لتظهر الحقيقة وفيما هم سائرون بهما قُبض على رجل آخر وُجد بجامع الظاهر وبتفتيشه وجدت معه أكياس فيها نفط وقار وبتعذيبهم إعترفوا بأنهم رهبان نصارى من دير يعرف بدير البغل بجهة طرا وأنهم مع سبعة عشر راهب أُخر تعاهدوا على إحراق مصر والفسطاط إنتقامًا من المسلمين على هدم كنائسهم أما بابلون فقد آلوا على أنفسهم أن لايمسونها بضرر لأن جميع سكانها من النصارى ولم يصب الكنائس التي بها ضرر .

وفي أثناء ذلك ظهرت النار بدار من يدعى كريم الدين القاضى وهو من عائلة قبطية الأصل وأسلمت منذ مدة فأشار بما معناه أن بطريرك النصارى يعلم بما يجرى بين أمته وأنهم لايقدمون على أي عمل البتة بغير مشورته فوافق أن يدعى ويطلب منه أن ينصح أبناءه أن يكفوا عن العمل حتى ترتفع هذه النازلة عن المدينة قبل تدميرها وأن هذه أقرب طريقة وأسهل وسيلة للتخلص من هذه الغائلة . ولم يشر كريم الدين بهذا الرأي

إلا بعض مضي نحو أسبوع من إبتداء ظهور النار بمصر . فوافق هذا الرأي السلطان وأمر بإحضار البطريرك على الفور .

ولما جن الليل أرسل كريم الدين إلى البطريرك رئيس الشرطة ومعه فرقة من العسكر وطلب منه أن يحضر إلى داره ليتخابر معه في أمر ذي بال . ولدى وصوله أحضر كريم الدين الرهبان المتهمين بإشعال النار في الجوامع والدور وبسؤالهم إعترفوا صراحة أمام البطريرك بالتوافق على إحراق المدينة إنتقامًا من المسلمين على هدم الكنائس ولم يتما كلامهما حتى بكى البطريرك بين يدي القاضي قائلاً «إنما هذا فعل سفهاء المسلمين والنصارى ولا لوم على الحكومة إذا أدبتهم» فَسُرَّ كريم الدين بهذا الجواب الذي أزال الشك من جهة تواطىء النصارى عمومًا على إيقاع الأذى بالمسلمين وأمر بإعداد بغلة ليركبها في العودة إلى داره .

وكان رعاع المسلمين قد علموا بما لاقاه البطريرك من كريم الدين القاضي من الإكرام والحفاوة فتجمهروا وكمن بعضهم له في الطريق حتى إذا ما مر بهم يفتكون به ولكن لم يفت كريم الدين ذلك فأمر بإعداد فرقة من العساكر للمحافظة عليه حتى يصل

إلى داره آمنًا . فكان هذا سببًا آخر لإزدياد غيظ المسلمين .
وفي صباح الغد بينما كان كريم الدين سائرًا إلى الديوان حسب عادته إجتمع حوله المسلمون وأحاطوا به وأوسعوه سبًا وشتمًا لأخذه بناصر النصارى بعد أن ثبت له تجاريهم على إحراق بيوت المؤمنين فلم يعبأ بهذه المظاهرة ولا بهذه التهديدات وظل سائرًا في طريقه حتى وصل إلى دار السلطان وأعلمه بما تحققه من أن هذا الحريق لم يكن صادرًا إلا من بعض سفهاء النصارى .

فأمر السلطان بالتشديد في تعذيب الرهبان المقبوض عليهم ليعلم إذا كان هذا التجارى بموافقة ومشاركة بعض الأغنياء من الأقباط أو أصحاب النفوذ منهم أو هو قاصر على بعض الرهبان كما قالوا . ولما لم يتحولوا في إعترافهم عن قولهم الأول رغمًا عن شدة التعذيب أرسل السلطان من هجم على دير البغل المتقدم ذكره وأحضر جميع من فيه من الرهبان وأمر بإحراق أربعة منهم على مشهد من جمهور المسلمين . ولكن لم يكف هذا لتسكين هياجهم بل كان موجبًا لتجارىء العامة على الهجوم على بيوت النصارى ونهبها وقتل من بها بغير رحمة ومن هرب منهم قتلوه في الطريق ثم أدتهم الجراءة إلى معاتبة السلطان في

وجهه لكونه عامل النصارى بالرفق فتعاظموا وترفعوا على المسلمين وصاروا يبالغون في ذمهم وسوء تصرفهم في الدواوين .

وفي صباح يوم حينما كان السلطان نازلا من القلعة إلى الميدان على جارى عادته وجد الطرق غاصة بالناس فلما رأوه صاروا يصرخون ويستحلفونه بالله أن ينصر دين الإسلام . ولم يصل إلى الميدان حتى فاجأه رئيس الشرطة بخبر أن الناس قبضوا على رجلين مسيحيين كانوا يشعلون النار في أحد البيوت وإذ كان السلطان في كدر مما رآه في الطريق أمر بأن يحرقا أمام الجمهور بغير توان أو إمهال . وفيما هم ينفذون الأمر مر بهم كريم الدين القاضى وإذ كانت في النفس حاجة من جهته بالنسبة لكونه أحسن معاملة البطريرك حينما دعاه إلى داره كما تقدم القول وإتهامه بالجنح للنصارى إذلالاً للمسلمين لكونه قبطي الأصل وتغلبه على فكر السلطان حتى أحسن معاملتهم وردهم إلى وظائفهم في الديوان بعد أن طُردوا منها ومُنعوا من الإستخدام بها ولو أسلموا فلم يقع نظر العامة عليه وهو مار حتى سبوه وأهانوه وبعضهم رماه بالحجارة فتحول عن طريقه وذهب من طريق آخر فساروا خلفه يسبونه ويشتمونه حتى وصل إلى

الميدان حيث كان السلطان الذي لما سمع الغوغاء وعلم بما أصاب كريم الدين من الإهانة والقذف غضب غضبًا شديدًا ودعى إليه الأمراء ليتشاور معهم فيما يجب عمله لإطفاء نار هذه الفتنة التي ما كان يُنتظر أنها تصل إلى هذه الحالة فأشار أحدهم بأن يرسل السلطان مندوبًا ليسأل الناس عما يريدونه.

وقال آخر أن السبب في كل هذا كراهية المسلمين الموظفين النصارى فلا حاجة لإستعمال الشدة والأوفق أن يأمر السلطان بطرد جميعهم من دواوين الحكومة وفي هذه الكفاية لمصالحة أفكار الناس وتسكين هياجهم. فلم يعجب السلطان أي الرأيين وأحضر أربعة من الأمراء وأمرهم أن يطوفوا في المدينة بعساكرهم من الميدان إلى باب زويلة فباب النصر ويقتلوا كل من يجدوه من هؤلاء المعربدين وكذلك أمر رئيس الشرطة أن يذهب إلى باب اللوق وشاطىء النيل ويقبض بدون تمييز أو إستثناء على من يكون قاصدًا الفرار ويأتي به إليه في القلعة ولشدة غيظه أقسم أنه إذا لم يأتِ بالذين رَموا كريم الدين القاضي بالحجارة لابد من أنه يشنق بدلهم.

فلما سمع الناس بهذا الخبر إختفوا ولم يبق منهم واحد في

الطرق. أما رئيس الشرطة فعاد ومعه نحو مائتي رجل جمعهم من بولاق وشاطىء النيل فأمر السلطان بشنق بعضهم وقتل البعض وقطع أيدي الباقين فبكوا بكاء مراً وحلفوا بأيمان مُغلظة أنهم ليسوا ممن رموا كريم الدين بالحجارة وأهانوه بهذه الإهانة فلم يلتفت السلطان إليهم وأصر على مجازاتهم بما أمر فقطعت أيدى ثلاثة منهم بحضرته وعلق البعض وأمر أن يبقوا معلقين حتى يراهم الجميع فيرتدعون. أما الأمراء فارتعدت فرائصهم من هول هذا المنظر البشع وتحركت فيهم الشفقة ولكن لشدة غضب السلطان وجوره في هذا اليوم لم يجسر أحد منهم على مفاتحته في العفو عن الباقين خوفاً على حياتهم هم أيضاً.

وكان كريم الدين الذي إنتقم له السلطان بهذا الإنتقام غائبًا في ذاك اليوم فلما عاد ورأى جثث هؤلاء المنكوبى الحظ معلقة وبالقرب منها الذين قطعت أيديهم والذين تحت تنفيذ هذا الحكم بعينه عليهم دخل إلى السلطان وألقى عمامته إلى الأرض وترامى على قدميه قائلاً أنه لايبعد أن يكون هؤلاء صادقين في أقوالهم بأنهم ليسوا ممن رموه بالحجارة وصار يستعطفه ويتذلل إليه حتى سمح بتنزيل جثث المعلقين وإبدال قتل الباقين بالأشغال

الشاقة في الجسور والصناعات مدة حياتهم ولكن لم يبرح السلطان ديوانه حتى وافاه خبر بأن النار علقت بجامع أحمد بن طولون فصار الناس يشنعون على النصارى الذين لم يُرد السلطان أن يجيب طلب المسلمين بطردهم من دواوين الحكومة وأصر على عناده ببقائهم فيها كما كانوا . وقال المقريزى والعهدة عليه «أن في صباح الغد قبض بعض المسلمين على ثلاثة من النصارى وبإستنطاقهم إعترفوا جهاراً أنهم من العصابة التى آلت على نفسها بإحراق مصر والفسطاط» وسواء كان هذا الخبر صادقاً أو أنها تهمة لفقها بعض أصحاب الدسائس المبغضين للنصارى أو الحاسدين لهم فقد تسبب عنه تهيج الخواطر وعود الحال إلى ماكانت عليه بعد أن كادت تزول وإستمرت نحو أسبوع فإزداد غضب السلطان وصار يقتل كل من يجده نصرانيًا كان أو مسلمًا وكذلك المسلمون وصار كثر سخطهم على النصارى والنصارى متحصنون داخل بيوتهم لا يجسرون على الخروج منها وإذا دعت الضرورة أحدهم إلى مبارحة داره وعرفوه قبضوا عليه وإدعوا أنه كان يشعل النار في بيت أو جامع . وفي يوم سبت بينما كان السلطان نازلاً من القلعة وجد الميدان غاصًا بجماعات

المسلمين وكانوا نحواً من عشرة آلاف نفس فلما رأوه هللوا وكبروا قائلين «لا نريد في البلاد ديناً غير الإسلام. نصر الله دين الإسلام. أعنا يا أمير المؤمنين على النصارى ولا تأخذ بناصرهم علينا».

ولما رأى السلطان شدة الهياج وإزدياد نار الفتنة بهذا المقدار وأن ما أتاه من إحراق بعض المتهمين النصارى أحياءً ليس كافيًا لتسكين غضب المسلمين وإذ كان يعلم أن معظم هذه الفتنة مبنى أيضًا على الطمع في ما بين أيديهم وسلب أموالهم أرسل عندما وصل إلى ديوانه مناديًا ينادي في الناس أن من يجد نصرانيًا ويقدر عليه ويقتله فله ماله. وبما أن معظم الأقباط كانوا يسكنون بابلون ولحصانتها لم يقدروا على الهجوم عليها إقتصروا على نهب بيوت المساكين بمصر (القاهرة) وضواحيها.

وإستعمل السلطان الحكمة بأن أصدر في الحال أمرًا بالكف عن ذلك وعفواً عموميًا وأنه مشتغل بوضع قانون محكم ليسير النصارى بمقتضاه وأمر أيضًا بقفل جميع كنائس النصارى وبقيت مقفلة أكثر من سنة ونصف حتى توسط ملك القسطنطينية وملك أسبانيا فأذن السلطان بفتح كنيستين إحداهما للأقباط

والثانية للروم الأرثوذكس . والمقريزي يقول أنه لم يُجب طلب هذين الملكين إلا لكونهما بعثا إليه بهدايا عظيمة على يد مندوبين من قبلهم . وفي رواية أن الذي توسط هو ملك أسبانيا وحده . وهكذا إنتهت هذه الحادثة المشئومة التي أضرت كثيراً بالمسلمين والنصارى ومما تقدم يتضح أنه لم يخل الحال من وجود تواطىء وإتفاق سرى على إيقاع الضرر بالنصارى وبعضهم ينسب هذا إلى دسائس المماليك الذين كانوا يحسدونهم على ما بين أيديهم وما لهم من النفوذ في الدواوين فإستعانوا على تنفيذ مآربهم بالأوباش الذين كانوا في ضنك بسبب المظالم التي تقدم وصفها ووافقهم على ذلك بعض جهلاء المسلمين . أما عقلاؤهم فكانوا في كدر من جراء ذلك ولاسيما لعلمهم أن هذا الإضطهاد يجرهم إلى الإقبال على الإسلام ولإستعدادهم وأهليتهم دون سواهم يبقون في مراكزهم ويزداد نفوذهم فينتقمون لأنفسهم بغير مبالاة ولكن كانت هذه الأفكار السليمة قاصرة على بعض الأفراد . ولما إشتد الهياج لم يجرأوا على إظهارها لئلا يصيبهم أكثر مما أصاب كريم الدين وما نجم عنه من الأذى الذي حل بالذين لايبعد أنهم كانوا أبرياء .

ولما علم ملك الأحباش بما حل بنصارى مصر أرسل رسولاً

بكتاب منه إلى السلطان يعاتبه فيه على هدم الكنائس وقتل الأبرياء ويذكره بالمعاهدات التى بين سلفائه وملوك مصر السابقين وطلب منه أن يعيد بناء الكنائس التي خربت وألا يهدم كل جوامع المسلمين التى ببلاده. وإذ كانت الحادثة التى شرحناها قد خمدت ولم يرد أن يحرك فيها ساكنًا خوفًا من إعادة إشتعال نارها صرف الرسول بغير جواب. غير أنه لما هدأت الحال وعاد النظام لم يفت السلطان مصالحة أفكار النصارى بأن صرح لهم ببناء بعض الكنائس التي هدمت بناء على طلبهم ذلك منه على شرط أن لايتوسعوا فيها أو يزيدوا عليه شيئًا مما كانت عليه قبل الهدم غير أن بعضها هدم بعد تمام عمارتها بدعوى أنها لم تُبن على حالتها القديمة أو أنهم زادوا في زخرفتها وإعلاء بنائها. ومع أن هذا السلطان منع النصارى من التظاهر بالأبهة وركوب الخيل والتجمل بلبس الثياب المصقولة والعمائم البيضاء إلا أنه من جهة أخرى لم يُخل منهم دواوين الحكومة بالمرة لعدم إمكان تسيير أعمالها بدونهم ولاسيما الحسابية ولكن يظهر أنه جردهم من الرئاسة والوظائف الإدارية ومن ثم إقتصروا على الحسابية منها فتفننوا فيها وجعلوا لها قواعد وروابط

دقيقة لم يتسن لغيرهم إتقان معرفتها فصاروا يمارسونها للآن وبذا حفظوا لأنفسهم مركزًا مهمًا في الحكومة .

وكان بين الأقباط الذين أسلموا رجلان أحدهما يسمى موفق الدين والآخر كامل الدين صارا يتنازعان ويكدران راحة الحكومة بسبب طمع كل منهما في الوزارة والإستيلاء عليها وإختصاصه بها فألغاها السلطان وبذلك إستقل النصارى الذين في الدواوين بنوع ما بالأعمال الإدارية فكانوا في راحة لا منازع لهم في أعمالهم مدة باقى حياة السلطان الناصر وقليلاً بعده .

ولما هدأت الحال وزال الشقاق والخصام بين المسلمين والنصارى حول السلطان نظره إلى تحسين حال الحكومة ولكى لايحول دون تنفيذ مآربه حائل أشغل عامة الناس الذين لا شغل لهم ولا عمل في إقامة المبانى المشيدة فبنى عدة مدارس وجوامع ومارستانات ومستشفيات وقناطر وأعاد أيضًا فحت الخليج الذي كان يصل الإسكندرية بنهر النيل وقد تهدم بسبب إختلال الأحوال وأقام الجسور والسدود فراجت الحال وإنفتح باب الرزق في أوجه الناس ولم يبق بغير عمل وتوفرت أسباب المعايش فلم يشك أحد من الجوع أو ألم الفقر إلا من كان الكسل طبعه .

ولكن لم يُرض هذا بعض المماليك والأمراء الذين ألفوا السلب والنهب وإثارة الفتن والقتال فأشغلهم السلطان عن التمكن من مقاصدهم بأن أرسل الكثير منهم إلى الأقطار السودانية وبلاد النوبة لغزوها وتأييد سلطة المملكة المصرية عليها وبذا تمكن السلطان الناصر من تنفيذ أغراضه وبقي بغير منازع أو مقاوم باقي أيام حياته. ولما مات السلطان الناصر تولى المملكة بعده ولده الأكبر ولكن لم تمض أربعون يومًا حتى عاد أشرار المماليك وأمرائهم من الأقطار السودانية وعزلوه ونفوه وهتكوا أعراض نساء أبيه ونهبوا كل ماله. وكان للناصر ثمانية أولاد فصاروا يتولون المملكة واحد بعد الآخر ولم يكن لهم فيها غير الإسم فقط فوقعت البلاد في الفوضى بسبب قتال المماليك مع بعضهم ومحاولة كل فريق منهم الإستيلاء على البلاد والإستقلال بها أما أعمال الحكومة ودواوينها فكانت في قبضة يد الموظفين المصريين من النصارى الذين أسلموا والباقين على دينهم فقاموا بها أحسن قيام ولذا راشت حال النصارى وتمتعوا بما لهم من الحقوق الوطنية بمساواتهم بالمسلمين فعادوا إلى التظاهر والتجمل باللباس والتأنق في المأكل وركوب جياد الخيل وإتخاذ الخدم وشراء

العبيد والجواري .

وفي أيام سابع أولاد السلطان الناصر المسمى ناصر الدين حسن رزئت البلاد المصرية بوباء يُسمى الموت الأسود ففتك بأهلها فتكًا ذريعًا وإستأصل عائلات كثيرة وإذ لم يبق منها أحد كان نائب السلطان وغيره من الأمراء المماليك يستولون على متروكاتهم وأملاكهم مسلمين كانوا أو نصارى حتى اليهود ومما ذكره المقريزى يُعلم أن وطأة هذا الوباء كانت شديدة جدًا حيث قال أنه أهلك به في مدينة مصر وحدها في يوم واحد خمسة عشر ألف نفس فكان هذا الوباء مصيبة أخرى على مصر وأهلها .

ويقول مؤرخو الإفرنج أن في هذه الأيام أتى إلى مصر سائح إنجليزى يُسمى السير چون موندوڤيل وأقام بها مدة من الزمن وكتب عنها أشياء كثيرة لكنها لا تخلو من الخلط كما هى عادة الكتاب القدماء ومما قاله أن السلطان أحسن ضيافته وعرض عليه أن يزوجه إبنته لو أسلم وقال أيضًا أن السلطان قال له مرة أن النصارى بسبب معاصيهم لما إستطاع أحد أن يقهرهم

وأن المسلمين يعتقدون أنه يجيء زمن لما يُخلص النصارى النية نحو الخالق سبحانه وتعالى يسودوا على أرض مصر كلها .

ومما تقدم يعلم القارىء أنه بعد موت السلطان الناصر إختل النظام وفشل حال الرعية بسبب مطامع المماليك وتمردهم فسادت الفوضى وعز الأمن وإستمر الحال إلى أن زالت دولة المماليك البحرية وحلت محلها دولة أخرى تسمى بدولة المماليك الشراكسة التى إستمر حكمها إلى سنة ٩٢٣ هـ الموفقة سنة ١٥١٧م ولكن لم تكن هذه الدولة أحسن حالاً من الأولى بل كانت شراً منها فتم على يدها خراب البلاد وعم الشقاء جميع الرعية ونقص عدد المصريين نقصاً بيناً بسبب هذه البلايا المتوالية والطاعون والأوبئة والغلاء والقحط المستمر . أما عدد الأقباط فنقص كثيراً جداً بسبب مظالم الحكام والآفات الربانية من جهة وإقبال الكثير منهم على الإسلام إما طوعاً أو كرهاً من جهة أخرى . ولما كثر الإسلام بينهم نفر المسلمون منهم لأنهم كانوا يزاحمونهم في الوظائف الإدارية العالية فبغضوهم وهكذا لم يقدروا أن يرضوهم سواء أسلموا أو بقوا على دينهم ولذا آثر بعضهم الموت على هذه العيشة المرة . وقيل أن كثيراً من سكان

الأرياف أتوا إلى مصر ذات يوم ودخلوها بضجة عظيمة منادين على رؤوس الأشهاد أنهم عادوا إلى دينهم القديم وأنهم لايتحولون عنه ولو قطعت رقابهم فقبضوا على أكثرهم وقتلوهم وقبض أيضاً على بعض النساء وإشتكى عليهن بذلك فأمر القاضي بقطع أعناقهن. فإستقبح الناس حتى المسلمون هذا الحكم وعيروا القاضي به. وإدعى أيضا على آخر بأن جده كان أسلم وهو لايزال باقيًا على نصرانيته فحكم عليه بالقتل. وكان باقيًا من عائلة زنبور التي تقدم ذكرها رجل كان أسلم وسمى بعلم الدين حصلت بينه وبين أحد الأمراء منافسة فإدعى عليه بشهادة بعض الشهود الكاذبين أنه يدعى الإسلام وهو لا يزال باقيًا على نصرانيته وزوجته باقية على دين النصارى ولم يتركها أو يكرهها على الإسلام وإستفتى العلماء فأفتوا بأن من كانت هذه حاله فإنه يستحق الحرق لا محالة فقبضوا عليه وصاروا يعذبونه حتى مات وكان ذا ثروة طائلة فإستولوا على كل ماله ونهبوا داره وأحضروا زوجته وصاروا يضربونها بالسياط أمامه حتى ماتت وقتلوا إبنه أيضاً قبل موته.

وقيل أن سلاطين مصر إكتشفوا في خلال هذه المدة على إهتمام الأحباش بعقد محالفة مع ملوك الإفرنج لغرض محاربة

المسلمين وتخليص مصر وسوريا من يدهم وذلك بأن الأحباش يهاجمونهم براً والإفرنج بحراً وكان الذي أخذ على عهدته إتمام هذه المعاهدة السرية رجل تاجر نصرانى تزيّ بزي مسلم وخرج من بلاد الحبش ووصل إلى مصر ومنها أقلع إلى بلاد الإفرنج فبعد أن تمم الإتفاق مع ملوكها على الكيفية التي إقترحها ملك الحبش بأن يكون منقوشاً على ثياب العساكر سواء كانوا من الإفرنج أو الأحباش صلبان ولفظة «هاتى» (إسم ملك الحبش) أقل عائداً إلى مصر قاصداً البلاد التي خرج منها ولكن لدى وصوله إلى ميناء الإسكندرية أفشى سره عبد أسود كان معه فهجم حاكم المدينة على المركب الذي كان فيه وفتشه فوجد معه الثياب وبعض الأسلحة كما قال العبد فقبض عليه وإعتقله وأرسله إلى السلطان في القاهرة فأفتى العلماء والقاضى بقتله فأركبوه على جمل وطافوا به في شوارع القاهرة ومصر وبولاق وأمامه مناد ينادى «هذا جزاء كل خائن منافق يتلاعب بالأديان» وبعد ذلك ضرب عنقه بالسيف بحضور جمع غفير من الناس.

أما الأقباط الذين قد علمتهم التجارب ولا سيما ما لحقهم من حروب الصليبيين وما جرى لهم من الإفرنج كما تقدم القول

فإستعملوا الحزم والحكمة بأن قطعوا علائقهم مع الحبش بسبب هذه الحادث وظلت معطلة مدة من الزمن حتى كادت الأمتان تنفصلان عن بعضهما بالكلية لولا أن الأحوال تغيرت فعادتا إلى ما كانتا عليه حتى الآن.

وفي سنة ١٤٨٤ م هجم عرب الوجه القبلي على ديري أنطونيوس وبولا وقتلوا جميع من فيهما من الرهبان وبقيا خرابًا نحواً من ثمانين سنة وكان فيهما مكتبتان عظيمتان تحتويان على عدد عظيم من الكتب القديمة الثمينة فجمعوها وأحرقوها عن آخرها ولم يبق منها إلا ما خفي عن عيونهم.

وفي خلال هذا الجيل قويت شوكة المملكة العثمانية في أوروبا وإستولت على كثير من بلاد الروم ولما رأى ملك القسطنطينية أن لا إستطاعة له على مقاومتهم ولا سلامة لما بقى له من بلاده إلا بمساعدة ملوك الإفرنج والتقرب منهم خرج من بلاده وصار يطوف الممالك الغربية لقصد عقد إتفاقية مع ملوكها على إخراج المسلمين من أوروبا . وإذ كان هذا لا يتأتى إلا بزوال الخلاف الديني وإيجاد الإتحاد بين النصارى الغربيين والشرقيين فبعد مجهودات عظيمة ومخابرات طويلة إستقر الرأي على

عقد مجمع لهذا الغرض بمدينة فلورانسا من أعمال إيطاليا يحضره بابا رومية وبطريرك القسطنطينية وغيرهما من نواب الشعب الأرثوذكسي فكان النائب عن الأمة القبطية في هذا المجمع الحافل رئيس دير أنبا أنطونيوس الشهير لكنه وصل عقب إنفضاض الجلسة وقيام بطريرك الروم الأرثوذكس إلى بلاده بعد الإتفاق مبدئيًا على إتحاد الكنيستين الشرقية والغربية وعلى نية الإجتماع مرة أخرى. ولما لم ير هذا النائب بُدًا من العود إلى مصر طلب التصريح بقبوله نائب عن الكنيسة القبطية في المجمع المزمع إنعقاده فأجيب طلبه. ولذا يقول مؤرخو الكاثوليك أن الكنيسة القبطية خضعت لبابا رومية حينًا من الزمن. أما الإتحاد الذي كان يسعى فيه ملك القسطنطينية فلم يتم بسبب تجاوز البابا حد الإعتدال في طلباته.

وبسبب تتابع إغارات ملوك مصر على الأحباش سعى ملكها في عقد محالفة مع البورتغاليين الذين كانوا على مقربة من بلاده سعيًا في الإستيلاء عل الهند فأجابوا طلبه ودخل كثير منهم بلاده وتوطنوا بها مدة من الزمن. وفيما هم هناك لما رأوا أن المواصلات والعلائق بين الحبش وأقباط مصر معطلة كما

تقدم القول وأنهم باقون بدون رئيس ديني طلبوا من الملك أن يطلب من بابًا رومية أن يرسل مطرانًا من عنده فوقع إختياره على رجل برتغالي يسمى يواز بارمودز كان طبيبًا في الجيش فعينه مطرانًا على الحبش وسماه بطريرك الإسكندرية أيضًا فعد القبط والروم هذا تعديًا من البابا وأنكروا عليه الحق في ذلك وأبوا معرفة الشخص الذي عينه بأي الصفتين. ومؤرخو الأرثوذكس وغيرهم يقولون أنه لو كان ما يدعيه مؤرخو الكاثوليك صحيحًا من أن الكنيسة القبطية كانت قد خضعت لسلطة البابا فما كان هناك موجب لتسمية بطريرك لها غير بطريركها القبطي أو أنه كان يجب على البابا عزله قبل تعيين غيره وإذا لم يكن هناك داع لذلك فما سبب تسميته الرجل الذي عينه مطرانًا علي الحبش بطريرك الإسكندرية أيضًا.

ولما مات ملك الحبش وتولى مكانه ولده المسمى أقلوديوس أوقف بواز بارمودز عند حده وأعلنه أنه إذا أراد البقاء في بلاد الحبش فلا يعتبر نفسه أكثر من ضيف واجب إكرامه لأنه لا يريد أن يكون خاضعًا لغير بطريرك الأقباط ولا تابعًا لغير كنيسته وأرسل في الحال وفدًا من قبله إلى البطريرك غبريال

السابع وطلب منه أن يرسل له مطرانًا فوقع إختياره على رجل يسمى يوسف فرسمه وشيعه إليه مع الوفد فقابله الملك ورعيته بإكرام زائد وإنشراح خاطر وهكذا عادت العلائق بين الأقباط والحبش إلى ماكانت عليه قبلاً بعدأن تعطلت نحو ثمانين سنة أما المطران اللاتينى فعاد إلى بلاده وبقى فيها حتى مات .

ويصف المؤرخون أقلوديوس هذا بالشجاعة والبسالة وقيل أنه لما أحس بأن المسلمين قادمون لمحاربته خرج من بلاده لمقابلتهم ولما دار القتال بينه وبينهم إنذعر عساكره من شدة نيران العدو فتركوه وولوا الأدبار ولم يبق معه إلا عشرين نفرًا من خيالته وثمانى عشر جنديًا من البرتغاليين فصاروا يقاتلون حتى هلكوا عن آخرهم فقطع المسلمون رأسه وأخذوه وعلقوه وبقي معلقًا نحو ثلاث سنين حتى إشتراه رجل تاجر أرمني من إنطاكية وأخذه ودفنه بالإكرام اللائق .

ولما خابت مساعى ملك القسطنطينية في إيجاد الإتحاد بين الروم واللاتينيين حول بابا رومية نظره إلى ضم أقباط مصر إليه ولما رأى أنهم يقاسون من المسلمين العذاب أشكالاً ولاسيما منذ خضعت مصر لملوك العثمانيين فإن الولاة كانوا يفضلون الروم

عليهم إتخذ ذلك فرصة مناسبة لإخضاعهم لرئاسته وجعلهم تحت حمايته.

وفي سنة ١٥٨٣م حضر إلى مصر وفد من قبل البابا مؤلف من أكثر من واحد من علماء أكليروسه ونزلوا ضيوفًا بالدار البطريركية وكان البطريرك إذ ذاك يسمى يوأنس الرابع عشر فأحسن ضيافتهم وبالغ في إكرامهم وكان شيخًا متواضعًا محبًا للسلام والمسالمة فما زالوا به حتى أقنعوه بأن إنحيازه إلى كنيسة رومية يعود على إبناء طائفته بالخير العميم فضلاً عن كون البابا لا يطمع في شيء سوى الإعتراف له بالرئاسة العمومية على الكنيسة المسيحية وهذا ليس بشيء في جانب الفوائد التي تعود عليه وعلى إبناء طائفته أما هو فيبقى بطريركًا على جميع الأمة كما هو بدون نقص شيء من كرامته أو سلطته.

وأشاروا عليه أن يدعو جميع أساقفته ليقصوا عليهم الأمر ويعرضوا عليهم طلبات البابا ويشرحوا لهم الغرض منها ففعل كما أشاروا، ولما وصل الأساقفة إلى مصر أمر البطريرك بعقد مجمع في بابلون ولما كان اليوم المعين لذلك قام أحد الوفد وتكلم عن المهمة التي حضروا لأجلها وغاية البابا منها فأظهر جميع

الحاضرين الإرتياح التام والميل لإيجاد الإتحاد والألفة بين طوائف المسيحيين ولكن لما دار الحديث والبحث والمناقشة في أمر طلبات البابا علت الغوغاء وإشتد النزاع وقويت الحاجة والمعارضة فأظهر بعض الأساقفة الميل إلى إجابة الطلب وإستحسان عقد إتفاقية والبعض الآخر عارض أشد معارضة بدليل أن موافقتهم على طلبات البابا تضر في المستقبل بإستقلال الأمة الديني الذي إشتراه آباؤهم بسفك دمائهم وتجر إلى مشاكل وإضطرابات ومنازعات هم في غنى عنها بالكلية مهما تكن الحالة. أما البطريرك فلشيخوخته وبساطته وسلامة نيته مال إلى الفريق الموافق على عقد الإتفاقية والإتحاد ظنًا منه أن معارضة الفريق الآخر مبنية على حفظ الرئاسة لأبناء أمته فأثر على أفكار البعض بالموافقة وأمر بتحرير عقد الإتفاق بالمعنى الذي أشار به معتمدو البابا وهكذا إنفض المجمع على نية الإجتماع ثانيًا للتوقيع منه ومن الأساقفة على هذه المعاهدة ولكن إتفق أن البطريرك توفي في تلك الليلة تاركًا الدنيا وما عليها ففشل المجمع وذهبت كل هذه الأتعاب سدًى. ومؤرخو الكاثوليك ينسبون موته فجأة

على أثر الإتفاق إلى فعل فاعل ويقولون أنه مات مسمومًا . أما رسل البابا فألقى الوالي القبض عليهم كعيون غرباء وإتهمهم بإلقاء دسائس الفتنة بين الرعايا فزجهم في السجن فقام بعض أغنياء الأقباط وإشتروا إطلاق سراحهم بخمسة آلاف قطعة من الذهب ليعودوا إلى بلادهم بأمان فعد البابا هذا جميلاً منهم وشكرهم عليه ورد المال لهم .

ولكن لم تثن هذه الخيبة عزم بابا رومية عن إستئناف السعي في الحصول على بغيته في إمتداد سلطته على الأمة القبطية وإخضاعها لسلطانه ومع كونه أظهر كل التساهل والتودد في مخبراته مع البطريرك الذي أخلف يوأنس الرابع عشر إلا أنه لم ينجح في مسعاه بسبب دعوته جماعة الأقباط وبطريركهم إلى طاعته والخضوع لسلطته بدعوى أنه هو الرئيس العام على جميع المسيحيين وكذلك البطريرك وكبار إكليروسه ووجهاء الأمة لم يرق في عيونهم أن يبيعوا إستقلالهم الديني ويصبحوا متبوعين .

ولو كانت هذه المساعي صادرة عن غيرة دينية صحيحة مجردة من الأهواء الشخصية وحب الإستئثار من الطرفين الأمر الذي أوقع المسيحيين في مصائب شتى في كل زمان ومكان لما

كانت نتيجتها الخيبة والفشل ولو لم تكن المسائل التي ترتب عليها هذا التفريق والنفور طفيفة لا تضر بالدين ولا تنفعه لما عظمت مسئولية هؤلاء الأئمة.

وإستمرت هذه المخابرات جارية بين باباوات رومية والأمة القبطية بمصر مدة من الزمن ولكن بدون فائدة. وإتفق أن أحد البطاركة الذين كان يخابرهم بابا رومية وإسمه غبريال الثامن عزله الوالي. والكاثوليك ينسبون عزله إلى دسيسة من بعض كبار الأقباط لما رأى فيه من الميل إلى عقد إتفاقية مع البابا. وقد أدى رفض جماعة الأقباط لطلبات الباباوات إلى العمل على معاكستهم في بلاد الحبش فأنفذ بعضهم إليها راهباً من دهاة الطغمة اليسوعية يسمى پايز وكان على جانب عظيم من العلم والفصاحة.

ولما وصل پايز هذا إلى بلاد الحبشة بعد عناء عظيم وصرحت له الهيئة الحاكمة بالإقامة فيها عكف على درس اللغة الحبشية فعرفها جيداً وصار يتكلم بها بفصاحة تفوق فصاحة أعظم علماء أبنائها وبعد قليل أخذ في تأدية المهمة التي حضر من أجلها. ولما علم البطريرك بذلك أرسل يحذر الملك ورعيته

من الإغترار بأقواله وتمويهاته فقابل الناس وطغمة الإكليروس أمره بالطاعة والإمتثال. أما الملك فلم يعبأ بذلك لأن پايز كان قد غلب على فكره وعلمه وقوة براهينه على صحة العقيدة الكاثوليكية فأظهر إرتياحه لها وميله إلى الإنضمام إلى المذهب الكاثوليكي ووافقه على ذلك بعض رجال حكومته وأمرائه وهدده المطران بالحرم فلم يجد ذلك نفعًا فأعلن حرمه وقطعه من عضوية الكنيسة الأرثوذكسية فقامت عليه الرعية وأشهرت سلاح العصيان في وجهه وإنتشبت الحرب بينه وبينهم فانتصروا عليه ووقع قتيلاً في ميدان القتال. وتولى الملك بعده واحد من العائلة الملوكية يسمى شنوده والبعض يسميه سوسينيوس والبعض سلطام سيچيد فكانت الأحوال في بدء أيامه هادئة غير أن پايز الراهب اليسوعي لم يغفل طرفة عين في جذب قلب الملك إليه حتى فاز أخيراً. وكان الناس ينظرون في أول الأمر إلى تقربه منه بغير أهمية على ظن أن السوابق علمته أن لا يلقي بنفسه ورعيته في مهاوي المهالك ولكن جاء الأمر بخلاف ما كانوا يحسبون إذ علموا أنه ينوي إرسال وفد إلى رومية ليعرض على البابا خضوع الملك ورعيته له فهاجوا وماجوا وهموا إلى الدفاع

عن مذهبهم القديم وإستقلالهم الديني وكذلك المطران نادى بحرم التعاليم الباباوية ومن يتمسك بها فعمت هذه الفتنة جميع البلاد فوقعت في حرب وإرتباكات داخلية دامت ست سنين كانت نتيجتها الويل والخراب على الملك ورعاياه وكل مملكته وإنتهت بقطع دابر جميع الرهبان الكاثوليك وطرد كل متمذهب بالمذهب الكاثوليكي من بلاد الحبش ومنع دخول الغرباء إليها لغير التجارة وإكتساب المعايش بالكد والجد .

وقد أثرت أخبار هذه الإضطرابات والمشاكل في نفوس أقباط مصر تأثيرًا رديئًا وذكرتهم بالمصائب التي حاقت بهم أيام كانت البلاد خاضعة لدولة الرومانيين وما لحقهم أيضًا من الشدائد من الإفرنج وبسببهم في أيام حروب الصليبيين المشؤمة فلم يقبلوا من بابا رومية هناءً ولاعزاءً ولكنهم مع ذلك لم يبدوا أنفة من وجود الإفرنج وجماعة الكاثوليك بينهم لما حضر بعضهم إلى مصر وتوطنوا بها للتجارة بمقتضى المعاهدات الدولية التي عقدت منذ الجيل السادس عشر للميلاد بين ملوك أوروبا والدولة العلية .

ويذكر المؤرخون أنه وُجد في أواسط الجيل السابع عشر

للميلاد رجل قبطي من أهل الفضل والوجاهة يكنى بأبي دقن المنوفي وضع كتابًا باللغة العربية شرح فيه حال الأقباط في ذاك العصر وعوائدهم وأفرد فيه بابًا مخصوصًا للدفاع عن معتقد الأمة القبطية ومقابلة حالهم الدينية بحال غيرهم من المسيحيين ملتزمًا في كل أقواله وعباراته خطة الأدب وخلو الغرض وعدم التحاشي في تفضيل بعض الأمور والعوائد الدينية الجارية بين الكاثوليك على غيرها مما هو جار بين الأقباط. ويقول العارفون أن هذا الكتاب الجليل يوجد بإحدى مكتبات أوكسفورد ببلاد الإنجليز وقد تُرجم إلى اللغة اللاتينية ونشر بمدينة أوكسفورد في سنة ١٦٧٥ م وترجمه أيضًا باللغة الإنجليزية ونشره السير سادلير سنة ١٦٩٣ م وعسى تأخذ الغيرة بعض أهل الفضل للبحث عليه وطبعه ونشره لإظهار فضل مؤلفه وإحياء إسمه والإنتفاع به ومما جاء في هذا الكتاب أيضًا أن الأقباط إكتسبوا في ذاك الزمان بحسن خدماتهم وصدقاتهم ثقة المسلمين بهم فعززوهم وساووهم بالروم والإفرنج وأن معظم الصنائع كصياغة الذهب والفضة والحياكة كانت في أيديهم وكان منهم المهندسون والبناؤون والصباغون والخياطون والنقاشون وغير ذلك وكانت تدرس

في مدارسهم اللغتان العربية والقبطية والحساب والجغرافية والدين ولم ينكر أن حالة تربية وتعليم شبان الإفرنج أفضل بكثير من حالة تربية شبان الأقباط كما أنه لم ينكر أيضا أن جماعته أكثر زهداً وأقل شراهة في المأكل والمشرب من الإفرنج.

وفي أواخر الجيل السابع كان للفرنساويين بمصر قنصل يسمى الموسيو ميلييه حضر إليها في سنة ١٦٩٢ م. وأقام بها نحو ستة عشر سنة درس في أثنائها حالة البلاد جيداً وشرحها شرحًا كافيًا في كتاب وضعه باللغة الفرنساوية ولكي يتمكن من ذلك ويأخذ الأخبار من مصادرها تعلم اللغة العربية وأتقن معرفتها ولم يشأ أن يتعلم اللغة التركية مع أنه كان محتاجًا لمعرفتها . ومما قاله في كتابه أن عدد سكان القاهرة كان يبلغ نحو خمسمائة ألف نفس وقدر عدد سكان جميع القطر المصرى من أبريم إلى الإسكندرية بنحو أربعة ملايين. وقال في كلامه على الأقباط أنهم أقل جهلاً وغشومة من غيرهم ولكن نسب إليهم العناد وصلابة الرأي وعدم التحول عما يحسبه غيرهم أرتقة ومخالفة حيث قال أن المرسلين اللاتينيين مع ماكانوا عليه من المهارة والجدارة لم يستطيعوا أن يجذبوا إليهم واحدًا منهم رغمًا عن

طول مدة بقائهم بينهم وعمل كل ما في وسعهم عمله لإقناعهم .
ولكنه في الوقت ذاته لم ينكر على الأقباط إحترامهم لهؤلاء
المرسلين وإكرامهم وتعزيزهم وشكرهم على عنايتهم .

وقال في كتابه أيضاً أنه لما لم يستطع المرسلون الكاثوليك
إجتذاب القبط إليهم بالإقناع إرتأوا تدبير حيلة بأن صاروا
يوزعون صدقات نقدية على من يحضر منهم إلى كنيستهم
فصادفت هذه الحيلة نجاحًا عظيمًا في أول الأمر وصار يحضر
إليها جمع غفير من الفقراء ولكن لما تغير رئيس الدير الذي دبر
هذه الطريقة بآخر وألغى الإحسان والتصدق بهذه الكيفية لعدم
ملائمتها إنقطعوا ولم يعد أحد منهم يقرب من كنيسة الإفرنج .
ومع أن الموسيو ميلييه (القنصل) شهد للقبط بكونهم أكثر دراية
ومعرفة وأعظم إقبالاً وإستعداداً للتعليم من غيرهم غير أنه لم
يقدر أن يكظم غيظه من جهتهم بأن رماهم بالعناد وصلابة
الرأي وما هذا إلا لأن ملك فرنسا المسمى لويس الرابع عشر
طلب منه أن ينتخب من بين الأقباط ثلاثة شبان أذكياء من
عائلات طيبة ويبادر بإرسالهم إلى فرنسا ليتربوا ويتعلموا في
مدارسها على نفقة الحكومة الفرنساوية فلم يجد بين الأغنياء

حتى ولا الفقراء من يرضى بذلك. وكان المرسلون اللاتينيون قد فتحوا مدارس لتعليم الشبان فبمجرد إشاعة هذا الخبر منع الأقباط أولادهم عنها فأصبحت خاوية خالية.

وفي هذا الكتاب أقوال وأخبار كثيرة عن الأقباط وليت تأخذ الغيرة بعض الأدباء الغيورين فيستخلص منه كل ذلك ويجمعه في كتاب وينقله إلى اللغة العربية وينشره تعميماً للفائدة. ومن الحوادث التي حصلت في أيام الموسيو ميلييه أنه كان بدار القنصلية الفرنساوية قسيس يسمى كليمنت ريكوليه إتهمه بعض الفرنساويين القاطنين في مصر بالخيانة وأنه يبدد أموال الكنيسة المخصصة للإحسانات فخاف القسيس وفر هارباً إلى الوالي في القلعة وطلب منه أن يقبل إسلامه وكان ذلك على ماروواه المويسو ميلييه في اليوم الثالث والعشرين من شهر إبريل سنة ١٧٠٣.

وفي اليوم التالي أرسل إليه القنصل مستحلفاً إياه بمن يعبد أن يعود قبل فوات الفرصة واعداً إياه أن يقاصص الذين إفتروا عليه بهذه التهمة وإذا سأله أحد يقول أنه كان سكراناً فاقد الصواب ولم يع ما قال وبهذه الوسيلة يخلص من يد الوالي ولكن كان الخوف متمكناً منه فلم يطع القنصل في ما أشار عليه به. ولما

حضر بين يدى الوالي بعد يومين وطلب منه تأييد إسلامه على يد الشهود قال أنه نصراني ويعيش نصرانيًا . وفي اليوم الثامن والعشرين من الشهر المذكور ختنوه بالرغم عنه وقدموا له ثيابًا وعمامة فلبس الثياب وألقى العمامة على الأرض فضربوه ضربًا مبرحًا حتى كادت روحه تفارقه وزجوه في السجن وبقي فيها أيامًا . وبينما كان القنصل يسعى لدى الوالي في خلاصه وإطلاق سبيله وصله كتاب منه يطلب فيه أن يتركه ليكفر عما حصل منه ويموت شهيدًا . وفي اليوم السابع عشر من شهر مايو من السنة المذكورة الموافق يوم عيد الصعود ضرب عنقه على مشهد من الناس وسلموا جثته للقنصل فأخذها ودفنها في مدافن الأقباط بدير الخندق . وقال الموسيو ميلبيه وقد كان لهذه الحادثة تأثير شديد عند القبط والروم حتى أنهم عزونا على موته بأن صاموا وصلوا إلي الله ثلاثة أيام متوالية ليقبله في نعيمه الدائم .

ولما رأى اللاتينيون عدم نجاح مساعيهم في مصر حولوا إلتفاتهم مرة أخرى إلى الحبش . فأشار قسوس اليسوعيين على لويس الرابع عشر ملك فرنسا أن يرسل إليها عن طريق السودان

طبيبًا يسمى دورول ليدبر بحسن سياسته مع ملكها تمهيد الطريق لهم في قبولهم ببلاده. وكان مع دورول ترجمان سوري يسمى إلياس فلما وصلا إلى سنار قبض عليهما الحاكم وحجزهما وبعد ذلك صرح للترجمان أن يذهب إلى الملك ويستأذن منه عن دخولهما ببلاده ويحضر منه أمرًا بما يريده وأبقى دورول عنده كرهينة حتى يعود.

وبعد أيام عاد إلياس الترجمان ومعه مكتوب من الملك هذا تعريبه حرفًا بحرف.

هذا كتاب من الملك المعظم والإمبراطور المفخم سيد جميع الأمم. ظل الله على الأرض. أشهر الملوك المتدينين بالدين المسيحي. أقوى ملوك النصارى. حامي الإيمان. الذي تحت حمايته حدود الإسكندرية (؟). القابض على راية العدل القاضي بالإنصاف بين المسلم والنصراني. الذي هو من نسل داود وسليمان النبيين العظيمين. السلطان تكلا هيمانوت بن السلطان آدم سيجيد بن السلطان أولاف سيجيد لازال مباركًا وملكه مؤيدًا بقوة جيشه الظافر.

إلى العالِم الشهير المبجل دورول الفرنساوي السوري

الآتي إلينا بقلبه وشخصه حفظه الله من كل شر ورفع مقامه آمين . لقد وصل إلى بلاطنا الملوكي إلياس ترجمانك الذي أرسلته إلينا . فسررنا بقدومه . وقبلناه بحضرتنا وقد علمنا منه أنك مُرسَل إلينا من قِبل أخينا ملك فرنسا ولكن صار حجزك بسنار وعليه فقد كتبت إلى السلطان بادي أن لايمنعك ويسمح لك بالحضور . وأن لا يهينك بل يعاملك بالإكرام والتبجيل أنت وجميع الذين معك لما بيننا وبينكم من الرابطة الدينية والإيمان الواحد مثل إلياس السوري رسولك وكذلك جميع الآتين معك اللهم أن يكونوا تجاراً أو سفراءً من قبل أخينا ملك فرنسا أو وكيله بمصر . وهكذا تكون معاملته لجميع المرتبطين معنا بالإيمان الذين تجمعنا وإياهم الجامعة الدينية الواحدة . لأننا يجب أن نكون مرتبطين برباط المحبة والإتحاد والألفة مع الجميع ما عدا الذين يخالفونا في الإعتقاد والناموس مثل يوسف (الراهب اليسوعي) وجماعته الذين طردناهم من بيننا فإننا لا نسمح لهم بالدخول في بلادنا لأنهم يثيرون الخواطر ويزرعون الشقاق بيننا . أما أنت فقد صرحنا لك بالمجيء إلينا ولك منا الإكرام والإحسان اهـ .

قال الراوي إلا أن سلطان سنار داخله ريب من جهة دوورول فبعد أن حجزه عنده ثلاثة أشهر قتله .

حال المصريين عمومًا والقبط خصوصًا

في عهد الدولة العثمانية

لم تكن حالة مصر في عهد الدولة العثمانية أحسن مما كانت عليه في أيام دولتى المماليك البحرية والچراكسة فأنه لم يكن للولاة هَمٌّ سوى إستنزاف أموال الناس بأية طريقة كانت وبدون إستثناء ولا تمييز بين مسلم ولا نصراني ولا سيما لأن الولاة الذين كانوا يأتون إليها من القسطنطينية لم تطل مدة ولاية الواحد منهم أكثر من سنة وإذا سمح له بالبقاء في منصبه أكثر من ذلك لا يكون إلا ببذل الأموال الطائلة طمعًا في تحصيل ما يزيد عما دفعه أضعافًا . وزيادة على ذلك إنقسام المماليك على ذاتهم وقيامهم على بعضهم تارة وعلى الوالى تارة أخرى وإنتهاز أهل الفساد ولاسيما العرب المعروفين بالهوارة هذا الإختلال فرصة للسلب والنهب وسفك دماء الذين لالهم ولا عليهم .

وبينما كان المماليك يقاتلون بعضهم في مصر أو يحاصرون

الوالي في القلعة كان العرب يهجمون على البلاد وينهبون البيوت ويقتلون الرجال ويسبون النساء . وإنتهزوا هذه الفرصة مرة فهجموا على مدينة إخميم في الوجه القبلي وكان معظم سكانها من النصارى أهل الكد والعمل ونهبوها وخربوها وقتلوا كثيراً من أهلها . وقد أفاض الكلام على هذا الإختلال وسوء تصريف الولاة والحكام الموسيو ميلييه قنصل فرنسا والجبرتي والرحالة بوكوك الإنجليزي الذي أتى إلى مصر صائحًا في سنة ١٧٣٧م وأقام بها بضعة أشهر وإذ كانت الحال فيها هادئة تمكن من الطواف في جملة بلاد منها ولكنه قال في كتابه أنه قلّما كان يمضى يوم لم يسمع فيه بموت أحد الأمراء وزعماء المماليك مسمومًا ولذا لم يأمنوا لبعضهم. ولا يخفي على القارىء ما تكون عليه البلاد في مثل هذه الأحوال السيئة فلا غرابة إذا سمعنا أن أهل مصر عمومًا لم يأمنوا في ذاك الزمن على أعراضهم ولا أموالهم وأن الفقر ضرب أطنابه في جميع البلاد .

أما حال القبط فكانت هادئة نوعًا في أول أيام هذه الدولة لرفع الإضطهاد عنهم وتشاغل المبغضين لهم من المسلمين بسبب الكوارث التي كانت تتساقط عليهم من وقت إلى وقت

عن تحريض الحكومة ورجالها على الإيقاع بهم أو إكراههم على الإستسلام وعاشوا كل هذه المدة مع إخوانهم المسلمين على أحسن حال مشاركين لهم في السراء والضراء غير أنهم كانوا يزيدون عنهم في المصائب من جراء الجزية التي صارت تسمى بالجالية أو الجوالى وإستعمال طرق الجور والعسف في تحصيلها وعلى كل فلم يخصوا بمصيبة مخصوصة تذكر سوى أنه في سنة ١١٤٦هـ الموافقة سنة ١٧٣٣م صدر أمر السلطان للوالى بزيادة الجزية عليهم وعلى اليهود وجعلها ثلاث درجات الأولى أربعة دنانير والثانية إثنان والثالثة واحد ففرضت على جميع الذكور منهم بدون إستثناء وألزم البطريرك بدفعها عن القسوس وخدام الدين . ولما فسدت الحال وإختل النظام وإستولى عرب الهوارة على معظم بلاد الوجه القبلى إنتمى القبط إليهم فأدخلوهم في ذمتهم وحماهم فصار القبطي يخاطب العربي المنتمى إليه «ببدويي» والعربي يسمي القبطي الذي تحت حمايته «بنصراني» . وهكذا كانت عيشتهم في هذه المدة راضية نوعًا لايكدرهم إلا الحوادث والرزايا التي كانت تطرأ أحيانًا بسبب إختلال الأحوال كما تقدم القول فتعم النصارى والمسلمين على

السواء . وكذلك الكشاف الذين هم أشبه بالمديرين الآن
والصناجق . وكبار المسلمين وعظماؤهم فضلا عن الولاة والحكام
جعلوهم موضع ثقتهم وسلموهم إدارة مصالحهم وأشغالهم
وحساباتهم فقاموا بها أحسن قيام وكثيراً ما كانوا يكنون بأسمائهم
فيقال مثلا المعلم غبريال السادات والمعلم يوسف الألفي والمعلم
منقريوس الموره لي وغير ذلك نسبة لمخدوميهم ولما أنسوا منهم
الصداقة والأمانة أودعوهم أسرارهم فحفظوها وإستشاروهم
في بعض أمورهم المهمة فوجدوا في آرائهم خيراً وصواباً حتى
أدى ذلك إلى إعتقاد أنهم يحسنون علم التنجيم وكشف المعميات
ومعرفة المستور ويدل على ذلك ما قيل من أنه ظهر في خلال
هذه المدة رجل قبطي من أهل التخيلات الفاسدة فقال أن أجل
الدنيا ينتهي يوم الجمعة المقبل فإنتشر هذا الخبر بسرعة في جميع
أنحاء البلاد فترك الناس أعمالهم وأشغالهم وأخذوا يستعدون
للبلاء . ولما جاء اليوم المعهود ومضى في خير ولم يحصل شيء
مما قال عنه هذا المشعوذ لم يكذبه الناس بل قالوا أن الأولياء
توسلوا لدى المولى سبحانه وتعالى أن يرحم عبيده ويطيل عمر
الدنيا فأجاب سؤالهم ورفع عنهم هذه النازلة ولم يكذبوا المنذر
بزوال العالم بقولهم أن النصارى واليهود صادقون في أنبائهم .

وعرف عقلاء المسلمين أهمية الأقباط والإحتياج إليهم فقدروهم حق قدرهم وأدخلوهم في حمايتهم ومنحوهم ميزة المساواة بالإفرنج وغيرهم الذين كانوا يعيشون في مصر تحت حماية دولهم كما قال أبو دقن في كتابه المتقدم ذكره.

ولما كثر عدد المرسلين الكاثوليك في أثناء الجيل الثامن عشر للميلاد وتوطنوا في بعض بلاد الوجه القبلي إنضم إليهم بعض الأفراد من إبناء الأمة القبطية فنتج من ذلك حصول نشوذ بين أفراد العائلات وإنقسام بسبب التركات والزواج فإشتكى كبار الكتاب لمخدوميهم الأمراء من سوء تصرف قسوس اللاتين وتعديهم على حقوق بطريركهم فعقد لذلك مجلس بحضورهم وحضور البطريرك وقسيس اللاتين الكاثوليك بالمحكمة الكبرى الشرعية وبعد سماع أقوال المشتكين وإحتجاج المشتكى عليهم تقرر التصريح لبطريرك الأقباط بإستعمال سلطته الدينية على إبناء أمته والتصرف فيهم بما توجبه قوانينه المرعية وعدم التعرض له أو التعدى على حقوقه وتحررت بذلك حجة من المحكمة وسلمت ليد البطريرك. وقد عثر صاحب جريدة مصر على

هذه الحجج ونشرها في أحد أعداد جريدته .

وكذلك القبط إلتزموا خطة الإعتدال في سلوكهم وأقلعوا عن التباهي والفخفخة ولا سيما ما كانوا يتهمون به من الترفع الذي جلب عليهم في الأيام السالفة مصائب عظيمة كما تقدم شرح ذلك في بابه . وعاشوا مدة في أمان وسلام مع إخوانهم المسلمين كإخوان تجمعهم الجامعة الوطنية لهم مالهم وعليهم ماعليهم صابرين على الشدائد وتقلبات الزمان .

ولكن نقول مع الأسف أن بعض كبار مشايخ المسلمين لم يشأوا أن يكون الأقباط مساوين لهم في حرية إستعمال عوائدهم والتمتع بالحقوق الوطنية . قال أبو دقن المتقدم ذكره :

«وإذا قصد أحد الأقباط زيارة الأراضي المقدسة كان لابد له من دفع غرامتين نظير التصريح له بذلك إحداهما للحكومة المصرية قبل قيامه والثانية عند وصوله إلي المدينة المقدسة . وبسبب فداحة هذه الغرامات إمتنع الكثير منهم عن تأدية هذه الفريضة» .

ولأسباب أخرى لم نقف على حقيقتها مُنع نصارى مصر مدة من الزمن عن زيارة الأراضي المقدسة .

وفي سنة ١٧٥٣م (سنة ١١٦٦هـ) سعى الأقباط بواسطة بعض كبارهم في تجديد هذه العادة السنوية ومع كونهم لم يجدوا معارضة من الحكومة تصدى لهم بعض كبار المشايخ فخابت مساعيهم.

قال الجبرتى والعهدة عليه «ومن حوادث هذه السنة أيضا أن النصارى الأقباط قصدوا الحج إلى بيت المقدس وكان كبيرهم إذ ذاك نوروز كاتب رضوان كتخدا فكلم الشيخ عبد الله الشبراوي في ذلك وقدم له هدية وألف دينار فكتب له فتوى وجوابًا ملخصه أن أهل الذمة لا يُمنعون من دياناتهم وزياراتهم فلما تم لهم ما أرادوا شرعوا في قضاء أشغالهم وتشهيل أغراضهم وخرجوا في هيئة وأبهة وأحمال ومواهي وتختروانات فيها نساؤهم وأولادهم ومعهم طبول وزمور ونصبوا لهم عرضيًا عند قبة العزب وأحضروا العربان ليسيروا في خفارتهم وأعطوهم أموالاً وخلعًا وكساوي وإنعامات وشاع أمر هذه الحادثة في البلد وإستنكرها الناس. وحضر الشيخ عبد الله الشبراوي إلى بيت الشيخ البكري كعادته وكان علي أفندى أخو سيدي بكري متمرضًا فدخل إليه يعوده فقال له (أي شيء هذا الحال يا شيخ الإسلام (على سبيل التبكيت) «كيف ترضى وتفتي النصارى

وتأذن لهم بهذه الأفعال ألكونهم أرشوك وهادوك فقال لم يكن ذلك قال (بل أرشوك بألف دينار وهدية وعلى هذا تصير سُنّة ويخرجون في العام المقبل بأزيد من ذلك ويصنعون لهم محملاً ويقال حج النصارى وحج المسلمين وتصير سُنّة عليك وزرها إلى يوم القيامة) فقام الشيخ وخرج من عنده مغتاظاً وأذن للعامة في الخروج عليهم ونهب ما معهم وخرج كذلك معهم طائفة من مجاوري الأزهر فإجتمعوا عليهم ورجموهم وضربوهم بالعصى والمساوق ونهبوا ما معهم وجرسوهم ونهبوا أيضاً الكنيسة القريبة من دمرداش (دير أبي رويس) وإنعكس النصارى في هذه الحادثة عكسة بليغة وراحت عليهم وذهب ما صرفوه وأنفقوه في الهباء» .

وفي نحو منتصف القرن الثامن عشر للميلاد لما إستولى بنيديكتوس الرابع عشر على كرسى البابا وية قفل باب المخابرات الودية التي إستمرت جارية مدة طويلة بين باباوات رومية وأئمة الأمة القبطية ولكن بدون فائدة . وكان بمدينة القدس قس قبطي كاثوليكي يسمى أثناسيوس فرسمه مطراناً على مصر غير أنه لم يحضر إليها بل بقي كل أيام حياته بأورشليم وكان النائب عنه

في مصر يسمى يسطس المراغلي . وكان بين التلامذة إبناء الأقباط الذين إنضموا اللمذهب الكاثوليكي وأرسلوا إلى رومية ليتعلموا تلميذ يسمى رفائيل الطوخي فرسمه البابا أسقفًا على أنصنا بالوجه القبلي ولكن لم يستطع الإقامة بمصر بسبب تصدي ومعاكسة الأقباط الأرثوذكس له وكان قد تربى تربية حسنة في مدارس رومية وتقدم تقدمًا باهرًا في العلوم والمعارف فدعاه البابا إلى رومية وأناطه بالمساعدة في طبع ونشر الكتب القبطية الموجودة منها نسخ كثيرة قديمة بخط اليد في المكتبة المعروفة بمكتبة الفاتيكان . وعدا ذلك ترجم جملة كتب من اللغتين اليونانية واللاتينية إلى العربية والقبطية .

وفي أواخر القرن الثامن عشر فاز الكاثوليك فوزًا عظيمًا بإستمالة أحد كبار أئمة القبط الأرثوذكس إليهم وإنضمامه إلى مذهبهم وهو أسقف جرجا فقام عليه جماعته وكذلك المسلمون والحكام لم يستحسنوا عمله ولابد أن يكون قد لقي منهم بعض التصدي أو المعاكسة فهرب إلى رومية وبقي هناك حتى مات سنة ١٨٠٧م . وربما كان هذا سبب تشكي الأقباط وعقد مجلس بحضرة قاضي الإسلام وتقرير ماصار إثباته في الحجة

التي ذكرناها قبلاً .

(المعلم رزق والمعلم إبراهيم الجوهري)

وفي النصف الثاني من الجيل الثامن عشر للميلاد ظهر بمصر رجل من كبار المماليك يسمى علي بك كان شديد البأس عالي الهمة وإذ كان ذا ثروة طائلة (معظمها من الجور والنهب) أكثر من شراء المماليك فإشتد أزره وطرد الوالي من مصر وإستقل بالأحكام والرئاسة . وكان بين الكتاب النصارى رجل يسمى المعلم رزق كان كاتب الجمارك يظهر أنه كان لعلى بك معرفة به من قبل وبينهما مودة قديمة فإنه لما إستقل بالأحكام وصار هو الآمر الناهي بمصر رقاه وجعله ناظرًا على دار الضرب ورفع مقامه فكان مسموع الكلمة عنده ويعول عليه في سائر أحواله وأموره ويعمل بحسب إشارته . وفي أيامه أيضا ظهر المعلم إبراهيم الجوهري المشهور صاحب المآثر الجميلة والأيادى البيضاء . والجبرتى يقول أنه في أيام علي بك هذا إرتفع شأن النصارى بهذين الرجلين . وكان بمدينة دمياط رجل تاجر مشهور يسمى الحاج عمر بن عبد الوهاب طرابلسى الأصل إتفق أنه حصل بينه وبين أحد النصارى التجار بالثغر منافسة أدت إلى

السب والشتم فإغتاظ لذلك الحاج عمر وحضر إلى مصر لينتقم منه وإدعى أن النصراني سب دينه وإستفتى بعض المشايخ فأفتوا بحرقه. وعلى أثر حضور الحاج عمر حضر النصراني فإشتغل مع جماعة أحد المشايخ بمعونة كبار النصارى بمصر وتواقعوا عليهم وقدموا لهم هدايا فسبكوا الدعوى في قالب آخر وقالوا أن النصراني لم يسبه بالألفاظ التي إدعاها وأنه بعد التسايب صالحه وسامحه فخابت مساعي الحاج عمر وعاد إلى دمياط ولم يبلغ قصده. وبعد هذه الحادثة بقليل إنتهت رئاسة مصر إلى علي بك فقبض على الحاج عمر ونهب داره وأمواله وأنزله في مركب مع نسائه وأرسله إلى طرابلس الشام منفيًا وبقى فيها إلى أن مات علي بك وإستقل بإمرة مصر محمد بك الشهير بأبي الذهب فتوسط له بعض المشايخ وكلمه في شأن رجوعه إلى دمياط فوعده أن ينظر في ذلك فيما بعد. والجبرتي ينسب نفي الحاج عمر إلى دسائس النصارى إنتقامًا للنصراني الذي كان يسعى في إيقاعه في التهلكة بقوله «أن النصارى إرتفع شأنهم في أيام علي بك المعلم رزق والمعلم إبراهيم الجوهري فعملوا على نفيه من دمياط» على أن الحاج عمر هذا ليس بأول من وقع في مخالب علي بك الذي تتبع

كثيرين من أمراء وأغنياء مصر مسلمين ونصارى وهدر دماءهم طمعًا في الإستيلاء على أموالهم وأملاكهم والظاهر أن قول الجبرتي «أن النصارى إرتفع شأنهم في أيام علي بك» مبني على كونه بصفته حاكمًا لم يسمح بإيقاع الأذى بالنصارى بمجرد إرادة أصحاب الأغراض أو بالنسبة لإنتفاع الوطن والحكومة بخداماتهم بالنظر لما إمتازوا به من الإقتدار على ضبط الحسابات وتسيير أعمال الدواوين بما لم يستطع غيرهم القيام به فكان هذا موجبًا لحسدهم والغيرة منهم كما أننا لاننكر أنهم كانوا دون المسلمين في إتقان معرفة اللغة وعلومها . ومع ذلك لم ينج القبط من جور علي بك فإنه فضلاً عن المغارم التي فرضت عليهم بالإشتراك مع المسلمين خصهم بغرامة مقدارها مائة ألف ريال .

وكان المعلم رزق عارفًا بعلم الفلك . وفي أيامه وصل إلى مصر رحالة إنجليزى يسمى بروس قاصدًا التسوح في بلاد الحبش فألقى رجال الجمرك بالإسكندرية القبض على أمتعته فإستصدر المعلم رزق أمرًا من على بك بعدم التعرض له في شيء والإفراج عن أمتعته بغير دفع رسوم جمركية عليها . ولما وصل بروس إلى القاهرة أرسل إلى المعلم رزق هدية مالية نفيسة

في نظير المعروف الذي صنعه له فردها إليه مع هدية أخرى من عنده وطلب منه أن يسمح له بمقابلته بعد إستراحته من عناء السفر ويريه ما معه من الآلات والمعدات الفلكية وكيفية أستعمالها وأعد له محلاً لائقًا بجهة بابلون بمصر القديمة ليقيم به مدة إقامته في مصر وقام له بتقديم كل مايلزم لراحته ولما قصد الرحيل إلى بلاد الحبش جهزه بكتاب من البطريرك لملكها بالتوصية عليه وتأدية ما يلزم له . وفي أثناء وجوده في مصر قدمه إلى علي بك فقابله بأحسن مقابلة وأكرمه .

ولما قام محمد بك أبو الدهب مملوك علي بك على أستاذه وقاتله ونزع الرئاسة من يده وإختص هو بها عزل المعلم رزق ويقال قتله وأمر أن لا يتعامل بالنقود التي ضربت على يده في أيام علي بك .

أما المعلم إبراهيم الجوهري فأبقاه في وظيفته . ولما مات محمدبك أبو الدهب إستقل بالإمارة ثلاثة من الأمراء أصلهم من مماليك على بك وهم إسماعيل بك ومراد بك وإبراهيم بك ولكن لم يلبثوا أن وقعت النفرة بينهم فعمل إبراهيم بك ومراد بك على معاكسة إسماعيل بك وكان خيرهم وإذ لم يقدر عليهما فر

من أمامهما فخلا لهما الجو وإقتسما الأحكام فإختص مراد بإمارة الحج أما إبراهيم بك فقام بمشيخة البلد فولى المعلم إبراهيم الجوهري رئاسة كتاب جميع القطر المصرى وكان سليم النية طبعًا صادقًا أمينًا محبًا لعمل الخير لايميز في أعماله الخيرية بين مسلم أو نصراني فأحبه إبراهيم بك حبًا زائدًا وعززه وأكرمه ولما مات أسف عليه ومشى في جنازته إكرامًا له وإظهاره لما كان له عنده من علو المنزلة . وإشترى في حال حياته أملاكًا كثيرة وأوقفها على الكنائس والديور وأصلح كثيرًا مما كان تخرب منها ولم تزل غرر مآثره موجودة في كل جهة ومكان حتى في مدينة القدس . ومن محاسنه التي تذكر أنه كان يقابل السيئات بالحسنات ومما يحكى عنه أن أخاه وهو المعلم جرجس الجوهري شكا إليه يومًا من رجل من صغار المسلمين أنه يسبه ويشتمه كلما مر به وقد تكرر ذلك منه حتى أنه كره المرور من ذاك الطريق وليس هناك طريق آخر يمر منه فقال له المعلم إبراهيم لا شك في أن هذا أمر لا يجب السكوت عنه ولابد من مجازاة هذا الرجل بقطع لسانه وأخذ يبحث عنه وعن حاله وجهة سكنه وأرسل إليه قمحًا وسمنًا يكفي لمؤنة عياله نحو سنة

فصار كلما مر به المعلم جرجس يقوم له ويصافحه ويدعي له ولأخيه بخير وبذا قطع لسانه عن البذاء وأطلقه بالثناء .

ومع ماكان عليه من سعة الرزق ورفاهية العيش ورفعة المنزلة وعلو الجاه لم تخل حياته من شوائب الزمان ونوائبه المكدرة التى يتمنى معها الإنسان لو لم يُخلق ويوجد في هذه الدنيا ذلك أنه كان له ولد وحيد كان يرجو أن يكون خير خلف له ولكن شاء الله غير ذلك فإغتالته يد المنية وهو في ريعان شبابه فحزن عليه حزنًا شديداً ولم يهنأ له حال بعده وبقي منغص العيش حتى لحق به . وكان له محل مخصوص مجهز بأحسن المفروشات والأوانى الثمينة فأغلقه أبوه على مافيه وكسر السلم الموصل إليه حتي لا يصعد إليه أحد ولا ينزل منه شيء وبقي مغلقًا إلى أن نهبه حسين باشا قبطان كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه .

وكلما إقتسم مراد بك وإبراهيم بك الأحكام وإستبدا بها بغير مبالاة صارا يقتسمان أيضًا الأموال التي كانا يحصلانها بالجور والعسف ويعتذران للسلطان من عدم إمكانهما دفع المرتب السنوى بدعوى أن الإيرادات لم تكف النفقات التي لابد منها .

وكان نائب الدولة العثمانية في مصر يسمى محمد باشا فأطلع

السلطان على تصرفهما في الأموال وأبان له كذبهما وتلفيقاتهما وكيف أنهما يخفيان عنه الحقيقة فأنفذ إليهما جيشاً بقيادة حسن باشا قبطان فقاتلهما وإنتصر عليهما في عدة مواقع وأخيراً هربا من أمامه إلى الصعيد الأعلى وهناك أخذا يعيثان في الأرض فساداً ويذيقان أهل البلاد من أنواع العذاب أشكالاً .

مصائب أخرى

لما إنهزم مراد بك وإبراهيم بك دخل حسن باشا القاهرة فائزاً ولم يستقر بها حتى أتى بأعمال تنفر منها الطباع السليمة ذلك أنه هجم بيوت مراد بك وإبراهيم بك ومن هرب معهم من البيكاوات الأخر والمماليك ونهب كل مافيها وباعه بالمزاد بأبخس الأثمان وأخرج أيضاً حريمهم وأولادهم ومماليكهم ليباعوا بالمزاد العمومى كما بيعت الأمتعة فطلب إليه المشايخ أن يستثنى من ذلك الأولاد والنساء الحوامل والزوجات فإنتهرهم حسن باشا وتهددهم قائلاً «سأكتب للأستانة أنكم تخالفون أوامر السلطان وتعارضونها» فأجابه الشيخ السادات «أنك إنما أرسلت لمعاقبة

شخصين مجرمين وليس لهتك الشرائع فأكتب ما شئت» فعند
ذلك خاف حسن باشا وأمر بإستثناء الأولاد والمحظيات الحوامل
من البيع . أما معاملته للمسيحيين فكانت أردأ من ذلك وكأنه لم
يأت إلى مصر إلا لينتقم منهم على غير موجب فإنه فضلاً عن
إرتكاب عساكره ما تأباه النفس وينكره العقل من وطئهم بيوتهم
وإنتهاكهم حرمة الأدب أمر أن لايركبوا الدواب ولا يستخدموا
المسلمين ولا يشتروا الجوارى والعبيد ومن كان عنده شيء من
ذلك باعه أو أعتقه وأن يعودوا إلى شد الزنار على أوساطهم
وأمر بالكشف على جميع ما أوقفه المعلم إبراهيم الجوهري على
الديور والكنائس من أطيان ورزقه وأملاك فطمعت العامة وصغار
الناس في النصارى وتسلطوا عليه بالإيذاء فضجر عقلاء المسلمين
لهذه المعاملة السيئة ولاسيما لأن رذائل العسكر كانت تزداد
يومًا فيومًا مع جميع سكان القاهرة بدون تمييز فتدارك الأمر بأن
نادى على النصارى بالأمان وعدم التعرض لهم بالإيذاء .

وجميع تجار المسلمين والإفرنج والأقباط وفرض عليهم مبلغًا
طائلاً كسلفة على قوله وأمهلهم ثلاثين يومًا ليحضروها فردوها

على أفرادهم بحسب حال كل منهم وجمعوها وأعطاهم سندات بها ولكن راحت كلها عليهم.

وبعد قليل أمر بإحضار ما عند النصارى من الجواري والعبيد بشرط أن يكون ذلك حالاً بغير تأخير أو إمهال فهجمت العساكر على بيوتهم وأخرجوهم منها وأحضروهم إليه فأمر ببيعهم بالمزاد.

وكان بين الكتاب المباشرين المشهورين رجل يدعى المعلم واصف فقبض عليه وحبسه وضربه وطالبه بالأموال. قال الجبرتي: «وواصف هذا أحد الكتاب المباشرين المشهورين ويعرف الإيراد والمصاريف وعنده نسخ من دفاتر الروزنامة ويحفظ الكليات والجزيئات ولا يخفي عن ذهنه شيء من ذلك ويعرف التركي».

وبسبب إختلال الأحوال وعدم إئتمان الناس على أموالهم وأرواحهم وأعراضهم إختفت زوجة المعلم إبراهيم الجوهري في بيت أحد الأغاوات الذي كان لزوجها عليه مآثر فقبضوا عليها وأجبروها على أن تخبرهم عن مخابىء زوجها فدلتهم عليها وأخرجوا منها أواني ذهب وفضة وغير ذلك فباع ما باعه

وأخذ ما أخذه وغمز بعضهم على مكان إبن المعلم إبراهيم المذكور الذي كان أغلقه أبوه حزنًا علية كما تقدم القول فصعدوا إليه وأخرجوا كل ما كان فيه من فرش وأمتعة وأواني ذهب وفضة وصيني وأتوا بها إلى حسن باشا فباعها بين يديه بالمزاد وكانت شيئًا كثيرًا فإستغرق بيعها عدة أيام.

وفرض على بيوت النصارى الذين خرجوا مع مخدوميهم الأمراء صحبة مراد بك وإبراهيم بك غرامة بلغ مجموعها خمسة وسبعون ألف ريال ولا يخفى ما حصل للحريم من الإهانة في تحصيلها حال غياب أزواجهن الرجال.

وأمر بإحصاء جميع بيوت النصارى ودورهم وما هو في ملكهم وقرر علية عوائد سنوية تدفع في كل عام ثم قرر عليهم أيضا غرامة مقدارها خمسمائة كيس فوزعوها على أفرادهم فحصل لهم ذلك ولا سيما الفقراء منهم الضرر الزائد وأخيراً فرض على كل شخص جزية غير الجزية الديوانية المقررة عليهم مقدارها دينار العالي كالدون فنالهم من ذلك مضايقة شديدة. وأمر أيضًا أن لا يسموا بأسماء الأنبياء مثل موسي وإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف فغير كثير منهم أسماءهم.

وبعد هذا كله حل بمصر وباء شديد مات به من سكانها الألوف المؤلفة وممن مات به إسماعيل بك خصم مراد بك وإبراهيم بك الذي قلده حسن باشا قبطان مشيخة البلاد قبل عودته إلى الأستانة ومات به أيضاً كل أهل بيته فسماه الناس بوباء إسماعيل. أما مراد بك وإبراهيم بك فإنهما إنتهزا هذه الفرصة وعادا إلى مصر وإستلما أحكامها كما كانا وبقيا بها إلى أن نزعتها من قبضتهما العساكر الفرنساوية على يد نابوليون بوناپارت قائدهم.

الحملة الفرنساوية

لما كثرت مظالم مراد بك وإبراهيم بك بإختلاسهما أموال الرعية بغير حق وتطرقا بتصرفهما السيىء إلى الأجانب القاطنين بمصر شكوا إلى دولهم من جراء تعدياتهما عليهم فطلبت منهما أن يعدلا عن هذه الخطة الذميمة ويحسنا معاملة رعاياهم فلم يسمعا نصيحتها فإتخذ نابوليون بونابارت هذا الأغضاء وسيلة لتنفيذ ما كان يخالج صدره من إفتتاح مصر وضمها إلى مملكته

فعرض هذا الرأى على مجلس الإدارة الذي كان قائمًا بتدبير شؤون المملكة وشرح لهم ما يعود على فرنسا من الخير العميم لو فتحوا مصر وما زال بهم تارة بالإقناع وتارة بالتهديد بالإستعفاء حتى وافقوه فجهز جيشا مؤلفًا من سبعة وثلاثين ألف مقاتل من نخبة العساكر وأمهر القواد وجماعة من أهل العلم وأرباب الصنائع.

وفي يوم ١٩ مايو سنة ١٧٩٨م بارح بعساكره فرنسا وفي يوم أول يوليه وصل الإسكندرية وإحتلها وبعد أن إستولى عليها ترك فيها حامية وخرج منها بباقي عساكره قاصداً القاهرة على طريق البر الغربى من نهر النيل.

ولما شاع الخبر أن عساكر الفرنسيس قادمة وإشتغل الأمراء بالأستعداد لمقابلتهم إختل النظام وسادت الفوضى وكثرت اللصوص وقطاع الطرق في البلاد وهاج سكان القاهرة وماجوا وهجموا على بيوت وكنائس النصارى الأقباط والسوريين والإفرنج والأروام بدعوى البحث عما فيها من الأسلحة. وأتخذ أهل الفساد والطمع هذا ذريعة فنهبوا بيوت الذين لا قدرة لهم على المقاومة وأشار البعض بقتل جميع النصارى عن آخرهم فعارضهم في ذلك إبراهيم بك وقاومهم ومنعهم وإحتمى بعض النصارى

الإفرنج وغيرهم في داره فقبلتهم زوجته وآوتهم وقبضوا على قنصل الفرنسيس وبعض التجار الإفرنج وحبسوهم في القلعة وبقوا فيها إلى أن دخلت عساكرهم القاهرة فأطلقوا سبيلهم. وهجم رعاع الناس على بيوت البكاوات والأمراء الذين فروا من أمام الفرنسيس ونهبوها.

وكان مراد بك قد بنى بيتًا واسعًا بجهة الأزبكية يطل علي البركة ولم يسكنه لإشتغاله بالحرب. ولما إنتصر عساكر الفرنسيس على المماليك في إمبابة وعادوا إلى بولاق كلف المعلم جرجس الجوهري رئيس المباشرين أن يعد هذا البيت لنزول نابليون فيه ففرشه وجهزه ولما دخل القاهرة أقام به ومن ذاك الحين عرف نابليون المعلم جرجس الجوهري وأهداه جبة مزركشة بالقصب ليلبسها في أيام التشريفات.

(ترجمة المعلم جرجس الجوهري)

هو أخو المعلم إبراهيم الجوهري المتقدم ذكره. لما مات أخوه قلده إبراهيم بك زميل مراد بك منصبه وبقي فيه إلى أن أتى حسن باشا قبطان وحصل ما حصل ففر إبراهيم بك مع

زميله إلى الصعيد الأعلى وتقلد شياخة البلد إسماعيل بك كما تقدم القول .

وليست شهرة المعلم جرجس الجوهري فقط في علو المنصب وعظم المكانة بل لما إمتاز به من العقل وكرم الأخلاق وعمل المعروف للجميع بدون تمييز بين مسلم ونصراني وعدم التداخل في ما لايعنيه وعظم النفس والصداقة حتي نال ثقة جميع مرؤسية على إختلاف أجناسهم ومشاربهم .

وكان بين الكتبة النصارى الذين تحت إدراته رجل يسمى يوسف كساب من عائلة سورية الأصل سولت له نفسه الأمارة بالسوء أن يسعى به عند مخدومه وهو إذ ذاك إسماعيل بك إتهمه بما ليس فيه وإذ كان المعلم جرجس محسوبًا على إبراهيم بك خصم إسماعيل بك صدق كلام الواشي وغضب علي المعلم جرجس وأنزله من منصبه وعينه بدله رئيسًا على الدواوين ولكن لم تمض أيام حتى ظهرت لإسماعيل بك خيانة يوسف المذكور فقبض عليه وأمر بتغريقه في نهر النيل وإعادة المعلم جرجس الجوهري إلى منصبه كما كان وخبر ذلك أنه كان على العساكر الأرنود رئيس يسمى صالح أغا تواطأ مع الأمراء الفارين

في الصعيد على أنه يسلمهم المراكب والقلاع التي بناحية طرا والجيزة وكان الواسطة في ذلك هو يوسف كساب المذكور ولما إنكشف الأمر لإسماعيل بك قبض عليه وألزمه بالمبلغ الذي كان أعطاه له الأمراء في نظير هذه الوساطة وأخذ منه سنداً به وحصله من ممتلكاته التي أوقع الحجز عليه وبعد ذلك أمر بتغريقه في النيل أما صالح أغا فطرده من مصر منفياً .

وهذا ما قاله عنه الجبرتى في كتابه المسمى عجائب الآثار في التراجم والأخبار في كلامه على الذين ماتوا في سنة ١٢٢٥هـ ولهم ذكر قال :

« ومات المعلم جرجس الجوهري القبطي كبير المباشرين بالديار المصرية وهو أخو المعلم إبراهيم الجوهري . ولما مات أخوه في زمن رئاسة الأمراء المصرية تعين مكانه في الرئاسة على المباشرين والكتبة وبيده حل الأمور وربطها في جميع الأقاليم المصرية نافذ الكلمة وافر الحرمة وتقدم في أيام الفرنسيس فكان رئيس الرؤساء وكذلك عند مجيء الوزير والعثمانيين وقدموه وأجلسوه لما يسديه إليهم من الهدايا والرغائب حتى كانوا يسمونه جرجس أفندي . ورأيته يجلس بجانب محمد باشا خسرو وبجانب شريف أفندي الدفتر دار ويشرب بحضرتهم الدخان وغيره ويراعون جانبه ويشاورونه في الأمور وكان

عظيم النفس ويعطى العطايا ويفرق على جميع الأعيان عند قدوم شهر رمضان الشموع العسلية والسكر والأرز والكساوي والبن ويعطي ويهب. وبنى عدة بيوت بحارة الونديك والأبكية وأنشأ دارًا كبيرة وهى التي يسكنها الدفتر دار الآن ويعمل فيها الباشا (محمد علي) وإبنه (إبراهيم باشا) الدواوين عند قنطرة الدكة. وكان يقف على أبوابه الحجاب والخدم. ولم يزل على حالته حتى ظهر المعلم غالي وتداخل في هذا الباشا وفتح له الأبواب لأخذ الأموال والمعلم جرجس يدافع في ذلك وإذا طلب الباشا طلبًا واسعًا منه يقول له هذا لا يتيسر تحصيله فضاق خناق المعلم جرجس وخاف على نفسه فهرب إلى قبلي ثم حضر بأمان كما تقدم وإنحط قدره ولازمته الأمراض حتى مات في أواخر شعبان وإنقضى وخلا الجو للمعلم غالي وتعين بالتقدم ووافق الباشا في أغراضه الكلية والجزئية وكل شيء له بداية وله نهاية والله أعلم.

أما سبب خوفه وهربه إلى قبلي فإنه لما كثرت معارضته لمحمد علي باشا وتوقفه له في تحصيل النقود التي كان في غاية الإحتياج إليها قبض عليه ومن معه من الأقباط بحجة أنه متأخر عليه مبالغ من حساب إلتزامه وحجزهم ببيت كتخداه وأحضر المعلم غالي الذي كان كاتبًا عند الألفي (أحد كبار المماليك

وعدو محمد علي باشا الألد) وعينه رئيسًا مكانه وكلفه بعمل حساب إلتزامه عن الخمس سنين الماضية . وبعد سبعة أيام أمر بالإفراج عنه ومن معه على شرط أن يدفع أربعة آلاف وثمنمائة كيس فقام هو بدفع مبلغ عظيم من هذا المقدار ووزع الباقي على الكتاب والصيارف ما عدا المعلم غالي وشخص آخر يقال له المعلم فلتاؤوس لأسباب إختلفت فيها الأقوال نضرب صفحًا عن ذكرها فحصلت له ولهم مضايقات شديدة إضطرته إلى التنازل عن أفخر أملاكه ولاسيما التي كانت على بركة الأزبكية وقنطرة الدكة ولم تزل باقية في وقف القصر العالي للآن ومن ذاك الحين أخذ نجم المعلم جرجس في الخفوت ونجم المعلم غالي في الظهور والصعود فلم يسعه غير الهرب إلى الوجه القبلي حيث كان الأمراء المماليك . ثم نزع محمد علي باشا البلاد التي كانت تحت إلزامه وطرحها في المزاد على الراغبين فأخذها القادرون . وفي رواية أنه لم يهرب بل أن محمد علي باشا نفاه إلى الصعيد .

وقبل قيامه إلى الصعيد إما هاربًا أو منفيًا كما قيل جمع كل حجج أملاكه وسلمها في البطركخانة لتنفق من ريعها على أهل بيته فوضعت اليد عليها وبقت في حوزتها للآن .

وبعد أربع سنين صرح له الباشا أن يعود بأمان إلى القاهرة فوصلها في اليوم الثالث عشر من شهر شوال سنة ١٢٢٤ هـ قال الجبرتى ولما حضر «ذهب إلى الباشا فقابله وأكرمه ونزل في بيته الذي بحارة الونديك وفرشه له المعلم غالي وقام له بجميع لوازمه وذهب الناس مسلمهم ونصرانيهم وعالمهم وجاهلهم للسلام عليه. وفي سنة ١٢٢٥هـ مات ودفن بمصر العتيقة بدير مارجرجس ولا زال قبره موجوداً ولكنه قد تخرب وليس من يفكر في إصلاحه.

ومما يذكر بالثناء عن الفرنسيس مدة إستيلائهم على مصر إعتبارهم جميع الوطنيين بمساواة واحدة وإحترامهم عوائد البلاد وديانة أهلها. ولما إستقروا بمصر شرعوا في ترتيب ديوان للنظر في قضايا التجار والعامة فكان مركبًا من إثنى عشر عضواً ستة منهم من النصارى القبط وستة من تجار المسلمين وجعلوا المعلم ملطي القبطي رئيسًا له. ولا نعرف شيئًا عن هذا الرجل سوى أنه كان في الأصل كاتبًا عند أيوب بك الدفتردار ثم ترقى في أيام الفرنسيس إلى أن صار رئيسًا لهذا الديوان ولما خرج

الفرنسيس من مصر قبض عليه الوالي العثماني وقتله . ومما يدل
على إحترامهم عوائد البلاد أن نصرانيًا جاهر مرة بشرب الدخان
على قارعة الطريق في شهر رمضان نكاية في المسلمين فأخذت
الحدة أحد المشايخ فزجره وضربه ولما وصل الخبر إلى الحاكم
وعلم أن هذا بخلاف العادة أدب النصراني وأمر بالمحافظة على
العادة الجارية من قبل . وكانوا إذا مر أحدهم على الجامع الأزهر
ينزل من على حصانه ولا يمر به راكبًا غير أن بعض الجهلاء الذين
لاينظرون في عواقب الأمور إتخذوا ما قرره الفرنسيس من
ربط عوائد على الأملاك ذريعة لإثارة فتنة فتعصبوا وتسلحوا
وخرجوا عن حد الطاعة والإنقياد لأوامر الحكومة ووافقهم
على ذلك رعاع الناس ولم يقتصروا على مخالفة أوامر الحكومة
والعصيان عليها بل هاجموا على بيوت المسلمين والنصارى
ومحلات التجار ونهبوها وإرتكبوا ما يغضب الله والناس فحول
الفرنسيس مدافعهم على المدينة ولاسيما على الجامع الأزهر وما
يجاوره وضربوا على المنازل فسقطت على من فيها ودخلت
العساكر الجامع وعملوا فيه مالا يعمل . ولما إنتهت الفتنة فرضوا
على الناس مغارم لم يخل الحال من إستعمال الشدة في تحصيلها

لجسامتها وألزموهم بدفع مبالغ تزيد كثيراً عما أوجب هذه الثورة .

يعقوب الجندي والجيش القبطي

وأخذ القبط الحذر من عود الجهلاء إلى مثل ما حصل فبعضهم قووا جدران بيوتهم ورفعوا أسوارها إلى حد يتعذر على الهاجمين الصعود إليها وبعضهم كسا أبوابها بمسامير حديد كبيرة ذات رؤوس جافية متلاصقة بعضها حتى لا تؤثر فيها الآلات الحادة . وكان بينهم رجل يسمى يعقوب يظهر أنه لم يحترف بحرفة الكتابة في الدواوين مثل باقي عظماء إبناء أمته بل كان من أصحاب الأملاك والتجارة ولما دخل الفرنسيس مصر تدخل فيهم وعرف من لغتهم ما قدر عليه . فلما حصلت هذه الثورة عمل إتفاقًا مع قائد العساكر الفرنساوية على تأليف جيش من الأقباط وجمع من الصعيد نحو الألفين من الشبان الأقوياء القادرين على حمل السلاح فقبلوهم منه وزيوهم بزيهم وعلموهم وأعطوهم مايلزمهم من البنادق والسلاح وكذلك هو تعلم الحركات العسكرية ورأسهم وبنى قلعة بجهة الجامع الأحمر بالأزبكية وسماها قلعة يعقوب وقد شاهدنا آثارها قبل هدمها في أيام المرحوم إسماعيل باشا خديوي مصر الأسبق .

وسار يعقوب هذا في خطة تخالف ما كان عليه إبناء جنسه من حيث الهدوء والسكينة والصبر والإحتمال وفداء أرواحهم وأعراضهم في بعض الأحوال ببذل المال والعطايا فإنه فضلاً عن مخالفته لهم في الزي والحركات إتخذ له إمرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية

على أن رجال الدين ولاسيما البطريرك لم يكونوا راضين عن تصرفاته وأحواله . وسمعت من بعض شيوخ الأقباط المسنين أن البطريرك نصحه المرات العديدة بالعدول عن هذه الخطة وأن يعيش كسائر إخوانه فلم يقبل وعاوده بالنصيحة مرة أخرى فجاوبه جوابًا عنيفًا فسخط عليه . وسمعت من آخر أيضًا والعهدة عليه أن ماكان بينه وبين البطريرك من المنازعة والمشاحنة دفعه إلى التجارىء على الدخول في الكنيسة مرة راكبًا جواده ورافعًا سلاحه وطلب منه أن يناوله السر المقدس وهو على ظهر حصانه معتذراً عن هذه الجسارة بأن من كان جنديًا مثله يلزم أن يكون على الدوام في أهبة وإستعداد وهذا لا يمنعه من تأدية الفرائض الدينية وربما كانت هذه الرواية من قبيل المبالغة في النقل . ومما رواه الكتاب ولا سيما الجبرتي الذي كان معاصراً ليعقوب يعلم أن ما إعتقده البطريرك مخالفًا وحسبه تهوراً وخروجًا عن الحد كان سببًا في حفظ حياته وحياة كثيرين من الأقباط ولا سيما سكان الأزبكية حينما إختل النظام عند إستعداد الفرنسيس للجلاء عن مصر ودخول عساكر العثمانيين وتحريض نصوح وقيل (ناصيف) باشا قائدهم على الفتك بالنصارى .
ولما حصل الإتفاق على خروج الفرنسيس من مصر نهائيًا ورحلوا منها عائدين إلى بلادهم خرج معهم كثير من المسلمين والنصارى الذين كانوا موالين لهم مدة إقامتهم بها خوفًا على حياتهم وخرج معهم أيضًا يعقوب المذكور وبقي في فرنسا إلى أن مات بها غريبًا بعيداً عن أهله وأوطانه في سنة ١٢١٨ هـ ولما مات طلبت زوجته الإستيلاء على ما يخصها في تركته فعارضها أخوته بدعوى أنها ليست زوجة شرعية . وممن خرج مع الفرنسيس أيضًا بقطر وإسمه إليوس بقطر صاحب القاموس الفرنساوى

والعربى المشهور والبعض يقول أنه إبن أخي يعقوب .

وكان لا يزال الباب العالي يسعى في تخليص مصر من يد الفرنساويين فأرسل إليها حملة لهذا الغرض فحاربها نابليون وإنتصر عليها . ثم وردت إليه رسائل من فرنسا تنبىء بحصول إضطرابات في المملكة فأسرع في القيام إليها تاركاً قيادة العساكر العامة في مصر إلى الجنرال كليبر .

وكان الجنرال كليبر ممن لا يريدون البقاء في مصر أو إحتلالها . فلما سافر نابوليون وإستلم هو أزمة القيادة العمومية بادر إلى إطلاع فرنسا على حالة مصر وحراجة مقام الفرنساويين فيها وطلب التصريح له بالمخابرة مع الباب العالي على الإنسحاب منها بكيفية لا يكون فيها عار على دولته . وكان الباب العالي سعى مرة أخرى في نزع البلاد من يد الفرنسيس بالقوة فأرسل تجريدة ثانية بقيادة يوسف باشا الصدر الأعظم عن طريق البر وتجريدة أخرى عن طريق البحر في عمارة إنجليزية تحت قيادة السرسدنى سميث بوفاق مع إنجلترا . ولما وصل يوسف باشا يافا أخذ يتخابر مع الجنرال كليبر وإنتهى الأمر على خروج

الفرنساويين من مصر في أجل معين غير أن إنجلترا أبت إلا إذلال الفرنساويين بتسليمهم أنفسهم وسلاحهم كأسرى والتخلي عن كل المراكب والمؤن التي لهم في الإسكندرية ومازالت بالباب العالي حتى أصدر أوامر بذلك للسير سدنى سميث فإستشاط الجنرال كلابير غضبًا عند وصوله هذا الخبر وأبي إلا الحرب. وكان قد أخلى الطوابي التي خارج القاهرة فأسرع إلى إحتلالها وتعزيزها بالعدة والرجال.

وبينما كان الجنرال كلابير يقاتل الوزير ومن معه في ضواحي القاهرة دخل نصوح باشا القاهرة من باب النصر وباب الفتوح ثم قال للعامة أقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم فعند ما سمعوا منه ذلك صاحوا وهاجوا وصاروا يقتلون من يصادفونه منهم وذهبت طائفة إلى حارات النصارى وبيوتهم التي بناحية بين الصورين وباب الشعرية وجهة الموسكي فصاروا يكبسون الدور ويقتلون من يصادفونه من الرجال والنساء والصبيان وينهبون ويأسرون حتى إتصل ذلك بالمسلمين المجاورين لهم.

قال الجبرتي وحضر أيضًا رجل مغربي وإلتف عليه طائفة من المغاربة وفعل أمورًا تنكر عليه لأن غالب ما وقع من النهب وقتل

من لايجوز قتله يكون صدوره عنه فكان يتجسس على البيوت التي فيها الفرنسيس والنصارى فيكبس عليهم ومعه جمع من العوام والعسكر فيقتلون من يجدونه منهم وينهبون الدار ويسحبون النساء ويسلبون ما عليهن من الحلي والثياب ومنهم من قطع رأس البنية الصغيرة طمعًا فيما على رأسها وشعرها من الذهب اهـ .

وقتلوا أيضًا النصارى الذين كانوا في بولاق ونهبوا بيوتهم وعلى كل لم ينج من أيديهم من النصارى في هذه الفتنة سوى الذين تسلقوا السور وفروا إلى معسكر الفرنساويين والذين إفتدوا أنفسهم بالمال وسكان الأزبكية فإن يعقوب صاحب القلعة المتقدم ذكره أخذ على عهدته حماية تلك الجهة والمدافعة عنها فإستعد بالعساكر الأقباط والسلاح وتحصن قلعته وهدم بعض الدور التي بآخر شارع القبيلة من جهة قنطرة الدكة وجعلها حصنًا وأقام بها العساكر المستعدة فكانت جهة الأزبكية التي يسكنها النصارى الأقباط من الدور المهدومة من الجهة الأخرى ووزع عساكره في نقط مختلفة وكان المحارب له وواقف أمامه برجاله رجل يسمى

حسن بك الجداوي فكان يهجم على تلك الجهة المرة بعد الأخرى فيصده يعقوب ويدفعه عنها فيعود خاسراً وإستمر على هذه الحال إلى أن إنتهت الفتنة وخرج عساكر العثمانيين من القاهرة بالرغم عنهم من شدة قوة مدافع الفرنساويين ونيرانهم ولحقوا بيوسف باشا الوزير الذي فر هاربًا من أمامهم وهكذا نجا النصارى سكان الأزبكية من الخطر الذي كان يحدق بهم ولاسيما البطركخانة فإنها كانت مطمح أنظار أهل الفساد وما الفضل في ذلك إلا ليعقوب ورجاله. وقيل أن بعض الثائرين هجموا على جهة شارع القبيلة المعروف الآن بالسوق الكبير وسوق النصارى من نقطة كانت مهملة ودخلوا درب الجنينة وأغلقوا البوابة ووضعوا وراءها أحجاراً فأسرع يعقوب لإنقاذ من بها بطريقة لم تكن تخطر على البال ذلك أنه أخرج من معاصره ومعاصر غيره التي بجهة الجامع الأحمر جميع فحول الجواميس التي كانت فيها وأوقفها أمام بوابة الدرب وحصرها بين قوتين من العسكر وأمرهم أن يرشقوا أجسامها بأسّنة الرماح فتراحمت على البوابة وتقوت عليها فتزحزحت الأحجار التي وراءها وإنفتحت فدخل العسكر وقبضوا على الثائرين.

وفي أثناء هذه الثورة إختل حال القاهرة إختلالاً لامزيد عليه وتجاوز أهل الفساد الحد بأن خربوا ونهبوا حتى بيوت ومحلات التجار المسلمين وتعدوا أيضاً على كرامة علمائهم ومشائخهم وأهانوهم إهانةً يخجل الكاتب من ذكرها ووصفها .

ولما إنتهت هذه الثورة قبض الجنرال كلابير على جملة من كبار ومشائخ المسلمين وألزمهم بدفع غرامة مقدارها إثنى عشر مليونًا من الفرنكان وفوض ليعقوب تحصيلها فإستعمل الشدة والعسف .

ولكن لم تثبط هذه الخيبة همم الإنجليز والعثمانيين عن إخراج الفرنسويين من مصر فبعد قليل حضر جيش إنجليزى عثمانى وهجم على رشيد ونزعها من يد الفرنساوية وحاربهم في الإسكندرية وكان الجنرال كلابير قد قتل مطعونًا بيد رجل مأجور وتولى القيادة العمومية رجل آخر يسمى مينو فلم يكن على شيء من السياسة والجدارة وكان ممن يفضلون البقاء بمصر فتظاهر بالإسلام طمعًا في إستجلاب خواطر المصريين وسمى نفسه عبد الله وكان له ولد فسماه سليمان . وظن أيضًا أن إمتهانه النصارى وهضم جانبهم يحبب المسلمين فطرد الأقباط

من خدمة الحكومة وجباية الأموال وعوض عنهم بأناس من المسلمين ولكن لم يجد كل هذا نفعًا .

ولما ضايق العثمانيون والإنجليز الفرنساويين وسدوا عليهم المسالك من كل جهة وكان عددهم قد نقص كثيرًا فضلاً عن تفرقهم في جهات مختلفة آثر الجنرال مينو الإتفاق على الإنسحاب وإخلاء مصر من الفرنساويين فأخلوها فإحتلتها العساكر العثمانية وقبضوا على المعلم ملطي الذي كان رئيس الديوان وآخر سورى وقتلوهما وقيل أنهم قتلوا أيضًا أنطون أبا طقية ذبحًا في داره بحارة السقائين ونهبوا داره وكان من كبار الملتزمين وأغنيائهم .

وكان بين الجنود العثمانية الذين حضروا لمقاتلة الفرنساويين ذلك البطل المشهور محمد علي باشا الكبير جد العائلة الخديوية الحالية أتى إلى مصر بوظيفة مساعد لرئيس فرقة مؤلفة من ثلثمائة نفر ولشجاعته وبسالته وحسن تدبيره وسياسته أخذ يرتقي في المناصب العالية إلى أن صار واليًا على مصر . ولما طهر البلاد من المفسدين وقطع دابر المماليك المتمردين عن آخرهم شرع في تحسين حال البلاد وإذ كان كل هذا يحتاج إلى نفقات ومصاريف ليست بقليلة إضطر بحكم الضرورة إلى الإستعانة

على ذلك بمصادرة الأغنياء وأصحاب الثروة. وكان أول من صادره من عظماء الأقباط وأغنيائهم هو المعلم جرجس الجوهري كما تقدم القول. ويؤخذ من عبارة الجبرتي أن مصادرته لم تكن خالية من دسيسة من المعلم غالي وفلتاؤس وجرجس الطويل فإنهم إتهموه بالتأخير في حسابات إلتزاماته وعدم حفظها بإنتظام حتى أنه أناطهم بعمل حسابه عن الخمس سنين الماضية. وإذ كان كل مقصوده هو الإستحصال على النقود لإحتياجه إليها إكتفي بتحصيل ما ألزمه به وأفرج عنه وكان من أمره ما كان كما تقدم القول.

(المعلم غالي)

كان في الأصل كاتب الألفي ولم نعلم سبب تركه مخدومه وتعلقه بخدمة محمد علي باشا وكان على جانب عظيم من الذكاء والنباهة ويعرف من أين يؤكل الكتف فلم يظهر للباشا معارضة في أوامره بل كان يساعده على تنفيذ أغراضه بتسهيل الأمر له ولاسيما فيما يختص بتحصيل الأموال وقيل أنه كان يعرف اللغة التركية ويتكلم بها فأحبه ورفع منزلته وعول عليه في

الأعمال المالية وركن إليه وعمل برأيه وفكره فيها .

ولما قصد محمد علي باشا تأسيس حكومة منتظمة وكان لايخفي على المعلم غالي أنه توجد أراضٍ كثيرة يزرعها أصحاب الإقتدار بغير دفع أموال عليها شرع في مساحة عموم أراضى القطر المصري فأظهر جملة أراض فربطت عليها الأموال وبذلك تمت الإيرادات فكانت هذه خدمة وطنية عظيمة قام بها وقسم أطيان كل بلد إلى حيضان وقبائل وجعل لكل بلد زمام مخصوص وغير ذلك مما لاتخفي فائدته فلا حاجة لإطالة الشرح فيه .

ولما نكب المعلم جرجس الجوهري وأسندت رئاسة الكتاب إليه طلب منه الباشا ألف كيس فوزعها على المباشرين والكتبة وجمعها في أقرب وقت . ولكن كان جمعها بسرعة موجبًا لغير ما كان يتوقعه المعلم غالي وسببًا في جلب الضرر عليه وعلى غيره فإن الباشا بعد قليل أوقع الحوطة على بيته وبيت المعلم جرجس الطويل وحنا أخيه وفرنسيس أخي المعلم غالي والمعلم فلتاؤوس وإثنين آخرين وأخرجوهم منها بصورة منكرة وسمروا دورهم وأخذوا دفاترهم فلما حضروا بين يديه قال لهم أريد حسابكم بموجب دفاتركم هذه وأمر بحبسهم وإلا

يدفعوا ثلاثين ألف كيس وبعد أيام أفرج عنهم بواسطة شخص يسمى حسين أفندى الروزنامجى على شرط أن يدفعوا سبعة آلاف كيس فقاموا بدفعها ولكن لم تمض سبعة شهور حتى قبض عليهم ثانيًا وحبسهم في القلعة وختموا على دورهم ثم أنزلوا المعلم غالي والمعلم فلتاؤس في مركب ليسافرا إلى دمياط كمنفيين وكان رئيسًا على ديوان الجمرك رجل يقال له المعلم منصور صربمون ومعه كاتبان آخران يسمى أحدهما بشارة والآخر رزق الله الصباغ والبعض يقول أن الثانى من عائلة المعلم جرجس الجوهري فأحضر الباشا المعلم منصور وقلده مباشرة الدواوين ثم سعى الساعون في مصالحة المعلم غالى ورفقائه فقبل الباشا العفو عنهم والرضا عليهم بشرط أن يدفعوا أربعة وعشرين ألف كيس . ولما حضر المعلم غالى من دمياط طلع إلى القلعة وقابل الباشا فخلع عليه وألبسه فروة سمور ونزل له عن أربعة آلاف كيس وأمر أن ينزلوا به إلى داره وأمامه الجاويشية بالعصي المفضضة وأعاده إلى الرئاسة كما كان أما المعلم منصور فجعله كاتبًا لإبنه إبراهيم باشا .

وتكرر حصول ذلك من الباشا فكان يغضب عليه تارة ويعزله ويقلد غيره من رفقائه ويرضى عليه أخرى فيرده إلى

منصبه بعد دفع مبلغ طائل لا يستطيع القيام به من ماله الخاص فيختص هو بجانب منه ويوزع الباقي على زملائه وغيرهم من رؤساء الكتبة فنتج من ذلك أنه داخل بعض رفقائه الغيرة منه فإنفكت رابطتهم وتفرقت كلمتهم وكان هذا غاية مقصد الباشا .

وإتفق أن الباشا كان قد توجه إلى الإسكندرية لمهمة وإحتياج لنقود فحول على المعلم غالى صرف ستة آلاف كيس كانت باقية عليه فإعتذر بعدم الإقتدار على أدائها في الحال بدعوى أنها بواقي على أربابها وهو ساعٍ في تحصيلها فلم يقبل هذا العذر منه وأرسل إلى كتخداه في مصر بالقبض عليه وعلى أخيه فرنسيس وأمينه المدعو المعلم سمعان وسجنهم في القلعة حتى يدفعوا هذا المبلغ . وخاف المعلم جرجس الطويل وحنا أخوه سوء العاقبة وكان في نفسهما شيء من جهة المعلم غالي فأخذا يحطان عليه ووسوسا للباشا أنه إذا حوسب يظهر عليه ثلاثون ألف كيس وتعهدا بأنه إذا فوض لهما عمل حسابه ولم يظهر عليه هذا المقدار يكونا ملزمين بأدائه للخزينة فإشتد غضبه عليه وعزله من رئاسة الكتابة وولى آخر مكانه يسمى المعلم

منقريوس البتانوني وضيق عليه في الحبس وأهانه إهانة شديدة وكرر الضرب على أمينه حتى أشرف على الهلاك وبعد ذلك أفرج عن أخيه وأمينه ليسعيا في التحصيل أما المعلم غالي فبقى في الحبس مدة.

وبعد قليل شرع الباشا في تغيير هيئة الدواوين وإستبدالها بغيرها تكون أنظم منها وتعود بالفائدة على الخزينة فرضى على المعلم غالي وأناطه بذلك فقسم البلاد إلى مديريات وأقسام والأطيان إلى أحواض وقبائل.

وبعد أن غاب المعلم غالي نحو سنة في الصعيد وهو يشتغل في ذلك عاد إلى مصر وكان المتولي إمارة الصعيد من يدعى محمد بك الدفتردار فلما قصد المعلم غالي العود إلى مصر ذوده بكتاب منه للباشا يمدح فيه نصحه وسعيه في فتح أبواب تحصيل الأموال للخزينة وأنه إبتكر أشياء وحسابات يتحصل منها مقادير وافرة من المال فقابله الباشا بالرضا وأثنى عليه ومن ثم إتخذه كاتبًا لسره وخصه بمباشرة الأعمال الحسابية التي إبتكرها فكانت يده فوق يد الجميع حتى حكام الأقاليم وإستمر في هذا المنصب الجليل إلى أن قتل في سنة ١٨٢١م لأسباب لا تزال حقيقتها

خافية علينا . وبقت جثته ملقاة في الخلاء بإحدى بلاد مديرية الشرقية يومين إلى أن إستأذن أحد الأقباط برفعها فأخذها ودفنها .

وكان للمعلم غالي ثلاثة أولاد ذكور وهم باسيليوس وطوبيا ودوس . ولما قتل دعا محمد علي باشا باسيليوس وقال له «إن أباك قد مات» فقال «حاشا لله يا سيدي فإنى لا أعرف لي أبا غير أفندينا» فُسّر الباشا لجوابه هذا وخلع عليه وجعله محاسبجى الحكومة المصرية وغمره بإنعاماته وإحسانه وأنعم عليه بالرتبة الثانية وهو أول من حازها من النصارى وبقي في هذه الوظيفة حتى مات . وكان محبوبًا مقبولاً عند الباشا ولما مات حزن عليه وأسف لفقده . ولا يزال إسمه يذكر بين النصارى والمسلمين بالثناء والتبجيل . وكان المرحوم محمد علي باشا يعول عليه كثيرًا في بعض الأمور ومما يحكى عنه أنه غضب عليه مرة وأمره أن يلازم بيته ولا يخرج منه وإتفق أنه كان جالسًا مرة مع ذوات حكومته فسألهم إذا كان يوجد نوع من الزرع يعطي الفدان منه أربعين أو خمسين أردبًا فقالوا لا يوجد فأرسل في الحال وأحضر باسيليوس بك وسأله هذا السؤال فقال نعم يوجد ما يعطي أكثر من ذلك بكثير جدًا وهو النخل والبصل

فُسّر الباشا لجوابه ورضى عليه.

حال القبط في ظل العائلة الخديوية

ليس من ينكر أن الأمة القبطية أخذت تظهر في عالم الوجود ثانية منذ أيام المغفور له محمد على باشا جد العائلة الخديوية فإنه رحمه الله أظهر من أول وهلة ما دل على إعتباره جميع المصريين على إختلاف مذاهبهم وأجناسهم بمساواة واحدة فأباح لهم التمتع بالحرية والحقوق الوطنية على حد سواء وكان يجرى عليهم الأحكام بالعدل والإنصاف والمساواة ووزع خدمة الوطن على أهله كل بما له من الأهلية فخص القبط بما إمتازوا به من الأعمال الحسابية وضبط الإيرادات والمصروفات حتى قال أحد الإنجليز الذي حضر إلى مصر في أيامه لقصد التسوح في تقرير رفعه إلى رئيس مجلس وزراء إنكلترا وعرض على البرلمان «أن الأقباط للقلم بمثابة الفلاح للمحراث» . وخص المسلمين بالمجالس والأعمال الإدارية والتحريرية واليهود المصريين بالإئتمان على خزائن الدواوين والمصالح والمديريات غير أنهم لم يلبثوا أن

تركوها لعدم رضاهم الشغل في يوم السبت فكان في تركهم الخدمة الخير العظيم لهم لأنهم إشتغلوا بالتجارة والمصارفة فنجحوا فيها نجاحًا عظيمًا وإستغنوا بذلك عن ذل الخدمة وما فيها من صغر النفس.

وبتوسع محمد علي باشا في المصالح والدواوين إزداد عدد الموظفين الأقباط في دوائر الحكومة وبعدأن كانت وجاهة الأمة تنحصر في بعض أفراد قليلين أصبح بينهم وجوه كثيرون في كل أنحاء القطر المصري. ولما أسندت الخديوية إلى عباس باشا الأول بعد موت محمد علي باشا قصد تقليل نفر الأقباط في الدواوين فإختار أربعة من طلبة المدارس الأميرية وسلم كل رئيس ديوان واحداً من كلى ومن جزئي بحيث يكونون بعد سنة قادرين على أن يقوموا مقامهم في الأعمال وإلا فيلقينهم في النيل غير أن المنية عاجلته قبل دنو هذا الأجل فصرف النظر عن هذا المشروع وبذا نجا المعلمون من هذه الورطة التي كانوا يخشون سوء عاقبتها ويحسبون لها حسابًا عظيمًا حتى أن بعضهم لما مضى عليه شهر أو شهران وتحقق في تلميذه عدم

الميل للتعلم قال أنه لم يبق من عمره سوى عشرة أشهر وهكذا كل ما مضى عليه شهر آخر فكان يتوقع الموت على الدوام ويستعد له.

وفي خلال ذلك أى في سنة ١٨٥٢م توفي الأنبا بطرس البطريرك بعد أن أقام في كرسى الكرازة المرقسية إثنين وأربعين سنة وتولى مكانه الأنبا كيرلس الرابع رغمًا عن معارضة البعض وتوقف بعض الأساقفة له ومن ثم دخلت الأمة القبطية في دور جديد بالنسبة للإصلاحات التي رمى أساسها في أيامه القصيرة التي لم تزد عن سبع سنين وسبعة أشهر.

كيرلس الرابع الكبير

ولد هذا الرجل الجليل في قرية حقيرة بمديرية جرجا بمصر العليا تسمى الصوامعة الشرقية وكان إسمه داود ومع أن والده كان مزارعًا أميًا لايعرف القراءة لم يغفل عن تربيته فتعلم القراءة والكتابة في اللغتين القبطية والعربية ومبادىء الحساب على قدر ما سمحت به مدارس تلك الأيام. ولما بلغ أشده

إختلط بالعربان المجاورين لقريته وتعلم منهم ركوب الخيل حتى صار يراكبهم ويسابقهم ويرافقهم في أسفارهم في الجبال والبراري . والذي علمناه عنه أنه لم يكن يهمه شيء من أعمال هذه الدنيا كأن العناية حفظته لخدمة أعظم . فلما بلغ الثانية والعشرين من عمره فارق والديه وأصحابه وخلانه وقصد دير القديس أنطونيوس في الجبل الشرقي لقصد الترهب فيه ولم يلبث هناك سنة حتى إشتهر بين رفقائه الرهبان بالعقل والتدبير وإصابة الرأى والهمة والنشاط والمواظبة على مطالعة الكتب المفيدة وكثيراً ما كان يجمعهم ويقرأ عليهم ويشرح لهم ويرغبهم في المطالعة . ولما توفي رئيس الدير بعد سنتين أجمع الرهبان كافة على إختياره رئيساً عليهم . وقد أظهر من أول أمره مادل على ميله للعلم والمعرفة وخدمة إبناء جنسه فخصص في العزبة بناحية بوش بمديرية بني سويف التي كانت ولاتزال مقر دير أنطونيوس مكاناً جمع إليه ما كان هناك من الكتب وضم إليها بعضاً آخر من كتب الدير وجعله قاعة للمطالعة والمفاوضة في المواضيع الدينية والأدبية والتاريخية . وأنشأ مدرسة لتعليم شبان بوش الأقباط اللغة العربية

بفروعها واللغة القبطية. وإعتنى هو في تعلم النحو والصرف فإكتسب منهما مايكفي لضبط القراءة والكتابة.

وحدث في أثناء ذلك خلاف بين مطران الحبشة وإكليروسهم إستفحل الخلاف بتداخل بعض رجال الحكومة هناك ومقاومتهم له. فلما علم البطريرك بذلك خاف العاقبة ولم يرَ بُدًا من ملاقاة الأمر بالحزم فبعث إلى القس داود فأسر إليه حقيقة الواقع وأظهر له أنه يخشى وقوع الإنشقاق في تلك البلاد بسبب ذلك وأنه لشيخوخته لايستطيع الذهاب إلى تلك الأصقاع البعيدة بنفسه كما هو الواجب عليه لتسوية الخلاف ولذلك فإنه لم ير من يليق لهذه المهمة أفضل منه وعهد إليه المسير بالنيابة عنه لما يعهد فيه من الدراية والحكمة والعزيمة. فأذعن القس داود لأمره وإستعد للسفر ولما ودعه في اليوم المعين للمسير قال له البطريرك على مسمع من الحاضرين «إنك إذا أديت هذه المهمة على وجهٍ مرضٍ تنال نصيبًا صالحًا عند عودتك مكافأة لك».

وبعد سنة من تاريخ قيام القس داود إلى بلاد الحبشة توفي البطريرك وكان ذلك في يوم ٢٨ برمهات سنة ١٥٦٨ الموافقة (١٨٥٢م).

وبعد وفاته بقليل جاء إلى العاصمة الأساقفة لكي يتحدوا مع الشعب في إنتخاب من يقوم مقامه كما جرت العادة وفي إجتماعهم الأول في دار البطريركية ذكر أسم القس داود في جملة المترشحين لهذا المنصب فإعترض بعضهم على إنتخابه بدعوى أنهم لايعرفون من أمر حياته شيئًا وأنهم سمعوا بخروجه من بلاد الحبشة منذ مدة ولم يحضر وألحوا على إنتخاب سواه وهكذا إنقضت هذه الجلسة بغير نتيجة. ومن غريب الإتفاق أنه قبل حلول ميقات الجلسة الثانية ورد من القس داود كتاب لبعض أصدقائه ينبئهم بوصوله حدود مصر فُسّر محازبوه لهذا الخبر وأشاعوه ولما أنعقدت الجلسة طلبوا إنتخابه وطلب جماعة آخرون إنتخاب أسقف إخميم فوقع الخلاف ولم يهتدوا على شيء ورفعت الجلسة بدون نتيجة.

وبقي النزاع مدة وصل في أثنائها القس داود إلى القاهرة فتقوى محازبوه وشددوا في إنتخابه.

أما محازبو أسقف أخميم فإنهم لما رأوا ميل الجمهور إلى القس داود عولوا على تنفيذ مآربهم بالحيلة بأن يجتمعوا ذات

ليلة ويسموا الأسقف بطريركاً فإذا أصبح الناس يرون السهم قد نفذ وكان في جملة المحازبين للأسقف جاد أفندي شيحا فقال أنه تحصل على أمر شفاهي من عباس باشا برسمه ولكنهم لم ينجحوا فإن أحزاب القس داود علموا بذلك ففاجؤوهم في الليلة التي عينوها وهجموا على الكنيسة وأخرجوهم منها بالقوة وأقفلوا أبوابها ووضعوا حراساً عليها . ثم إجتمعوا وعرضوا للحكومة يشكون سوء تصرف بعض الأساقفة في هذا الأمر فأحالت تسوية المسألة على الأنبا كبريل ورتبيت الأرمن إذ ذاك فخفق سعيه لتمسك كل من الفريقين برأيه وغرضه . وكان لكل فريق الحق في تأييد رأيه فإن حزب القس داود كانوا يفضلونه على غيره لما عرف به من شدة الميل إلى إصلاح الطائفة وسعة إطلاعه وحسن درايته . أما المتشيعون لغيره فكانوا يظنون أنه يكفي لرئيس الأمة والقابض على أزمتها أن يكون حسن السيرة ورعًا تقيًا وهذه الصفات كانت متوفرة في الأسقف كما أن القس داود جمع بينها وبين الميل لإصلاح الحال بما يناسب روح الوقت . وقد يلتمس لمنتخبي الأسقف العذر لأنهم لم يكونوا يعرفون للبطريرك عملاً غير الصلاح والفصل في بعض القضايا

الجزئية كتأييد الصلح بين رجل وإمراته ومصالحة متخاصمين أو ما شاكل ذلك أما مصلحة الأمة العمومية فلم يكونوا يفقهون لها ولا يعرفون ما هي.

ولما خابت مساعي المتشيعين للأسقف جعلوا يختلقون على القس داود أقاويل وأكاذيب لا أصل لها فإدعى عليه بعضهم أنه نقض عهد الرهبنة في بلاد الحبش وتزوج بإمرأة وله ولدان على قيد الحياة وكان المختلق لهذه الأكذوبة قسيسًا حبشيًا جاء إلى مصر لضغينة بينه وبين القس داود بسبب ماذهب إلى الحبشة من أجله وكان في عزم ذلك الحبشى أن يشي به للبطريرك فلما رأى البطريرك قد توفي والشعب قائمًا على القس داود إختلق عليه تلك الأكذوبة وإتهمه بالمداخلة في الأمور السياسية في الحبشة بما فيه خيانة الحكومة المصرية. وأشاع هذه الإختلاقات فتناقلها الناس وتحدثوا بها حتى وصلت إلى عباس باشا فتغير عليه ولاسيما بسبب مانسب إليه من المداخلات السياسية فأوعز إلى حسن باشا المنسترلي ناظر الجهادية تحقيق ذلك الخبر المهم فإتضح كذب القسيس الحبشي.

ومازال الخلاف قائمًا بهذا الشأن نحو عشرة أشهر حتى

إنتهى بتوسط ورتبيت الأرمن بتعيين القس داود مطرانًا على مصر ثم إذا إتضح أنه لائق بتقليد البطريركية فسمح عباس باشا بذلك وعليه سيم القس داود مطرانًا في يوم ١٠ برموده سنة ١٥٦٩ قبطية (سنة ١٨٥٣م).

ومن ذاك الحين أخذ يباشر أعمال البطركخانة وكان أول عمل باشره بناء مدرسة وهي أول مدرسة أقيمت لتعليم شبان الأقباط فإشترى عدة منازل وهدمها وأقام على أنقاضها مدرسة فسيحة فكان بناؤها موجبًا لإجماع الجميع على إختياره وفي ليلة الأحد ١١ بؤونة سنة ١٥٧٠ قبطية الموافق (سنة ١٨٥٤م) سيم بطريركًا بحضور جميع الأساقفة ماعدا أسقفي إخميم وأبي تيج ولقب كيرلس الرابع.

فلما أصبح مستقلًا في عمله شرع في إخراج مقاصده من حيز الفكر إلى الفعل فأتم بناء المدرسة وأحضر لها أساتذة ماهرين وكان يقبل التلامذة فيها على إختلاف جنسياتهم ومذاهبهم ويصرف لهم الكتب والأدوات مجانًا وكان يباشر التعليم بنفسه فلا يمر عليه يوم لا يفتقد فيه حالتها مرة أو إثنتين أو أكثر ولمزيد الإعتناء بها إتخذ له محلًا فيها لإستقبال الزائرين فإذا أتى إليه

زائر من الأجانب أو غيرهم من ذوى المعرفة باللغات والعلوم وطرق التعليم يكلفه زيارة المكاتب وفحص التلامذة وإبداء ملاحظته فيما يعود بتحسين حالتها وتسهيل طرق التعليم فيها .

وكثيرًا ما كان يطيل الإقامة في المكتب مصغيًا لما يلقيه الأستاذ على الطلبة ثم يقول مخاطبًا التلامذة قبل خروجه «قد إستفدت معك اليوم فائدة لم أكن أعرفها قبلاً» وكان أحيانًا يلقي على التلامذة عبارات أدبية وتاريخية مما يناسب سنهم وإدراكهم . وقد جعل اللغة القبطية جبريًا وكان يلاحظ سير دروسها بنفسه .

ولما رأى أن بعض الطلبة يأتون من جهات بعيدة مثل حارة السقائين شفق عليهم وأنشأ مدرسة وكنيسة هناك .

ولكن مع كل التسهيلات التي أجراها وعدم تكليف الوالدين شيئًا لم يزد عدد التلامذة في أيامه بمدرسة الأزبكية عن مائة وخمسين تلميذًا مع أنه لم يكن بمصر واسطة لتعليم إبناء الأمة القبطية غير هذه المدرسة وكثيرًا ما كان يحمل الوالدين على إحضار أولادهم جبرًا ولكنهم مع ذلك كانوا يفضلون وجود

أولادهم بمكاتب العرفان القذرة الرديئة الهواء .

وكان معظم هؤلاء التلامذة من إبناء وجهاء القوم ومعتبريهم ولذا كان يعاملهم أحسن معاملة ويحث الأساتذة على تربيتهم التربية الحسنة وبذل الجهد في توسيع عقولهم وتثقيف أذهانهم بالنصائح الأدبية والروايات الحكيمة كما كان يفعل هو بنفسه في أكثر الأحيان .

وعهد إلى أحد قسوس كنيسة الأزبكية المسمى القمص تكلا المشهود له بإتقان فن الموسيقى والألحان الكنائسية أن ينتخب من بين تلامذة المدرسة الشمامسة عدداً معلومًا من ذوي الأصوات الحسنة وأناطه بتعليمهم التراتيل الكنائسية بطريقة مضبوطة وجعل لهم ملابس مخصوصة على طرز جديد لطيف يلبسونها أثناء وجودهم في الكنيسة في أيام الآحاد والأعياد والمواسم . فنتج من هذا التحسين الظاهرى فائدتان إحداهما إظهار فائدة المدارس وترغيب الأهالى في وضع أولادهم بها والثانية مواظبتهم على الحضور إلى الكنيسة وهم منشرحو الصدر من سماع التراتيل والأناشيد اللطيفة .

ولم يمض زمن حتى خرج من هاتين المدرستين عدة تلامذة وإتفق

إنشاء مصلحة السكة الحديد بالديار المصرية فإنتظموا في خدمتها وإنتشروا في جميع محطاتها وكانوا يؤدون أعمالهم باللغة الإنكليزية وبعضهم إستخدم في البنوك وعند التجار لمعرفتهم اللغة الطليانية .

وقد عرف المغفور له إسماعيل باشا الخديوي الأسبق مقدار هذه الخدمة الوطنية فإستدعى إليه الأنبا دمتريوس البطريرك خلف السعيد الذكر الأنبا كيرلس وأظهر إرتياحه للخدمة الوطنية التي قامت بها المدارس القبطية وأنعم عليه بألف وخمسمائة فدان ليتساعد بإيراداتها على توسيع نطاق المدارس ورتب لها أيضًا مائتي جنيه مصرى سنويًا ولكن هذه منعت فيما بعد بسبب عسر المالية وإضطرار الحكومة للإقتصاد .

وأنشأ أيضًا مطبعة إستحضر أدواتها من أوربا على يد المرحوم الخواجه رفله عبيد الرومي الأرثوذكسي وقبل إحضارها إختار من إبناء الأمة أربعة من شبان الأقباط ورتب لهم رواتب شهرية وملابس سنوية تصرف لهم من الدار البطريركية وتحصّل على أمر من سعيد باشا بقبولهم في مطبعة بولاق ليتعلموا صناعة الطباعة .

ومما يدل على شدة إحترامه للعلم ورغبته في نشره وتنشيطه

أنه لما علم بوصول أدوات المطبعة إلى الإسكندرية وكان في دير أنطونيوس بالجبل بعث إلى وكيل البطركخانة بمصر يأمره بإستقبالها عند وصولها بإحتفال رسمى يقوم فيه الشمامسة بالملابس الرسمية المختصة بالخدمة الكنائسية ويقابلونها من باب البطركخانة بالتراتيل والأناشيد . وتحدث الناس كثيراً بغرابة هذا الإستقبال ولما عاد من الدير وعلم بحديثهم قال لبعضهم انى أتعجب لإستغرابكم هذا الإستقبال مع أني لو كنت حاضراً لرقصت كما رقص داود أمام تابوت العهد . ولكن من الأسف أنه لم يذق من ثمرة أتعابه فإن التقادير لم تفسح له بالأجل حتى يرى بالعيان ماكان يتمنى أن يراه إلا من على بعد كما رأى موسى أرض الموعد .

وفي أواخر شهر مسرى سنة ١٥٧٢ قبطية (سنة ١٨٥٦م) بعثه المغفور له سعيد باشا بمهمة سياسية إلى الحبشة فقام إليها في صبيحة يوم بدون أن يشعر به أحد إلا الذين رافقوه في السفر وبعض خدام دار البطريركية وكان من جملة الذين سافروا معه إثنان من الأغوات الترك وقيل أنه إشتغل في أثناء سفره بتعليم اللغة التركية من أحدهما فتحصّل منها على فهم أقوال من

كان يتحدث بها أمامه لكنه لم يشع ذلك للجميع ربما لغرض وسمعته أنا يقول لأستاذ اللغة الإنجليزية بمدرسة الأزبكية أن من ضمن الوسائط التي إستعان بها على طول السفر إلى الحبشة الإشتغال بتعلم بعض الشيء من اللغة التركية. وبقى أيامًا قبل مبارحته مصر تلوح على وجهه علامات الإرتباك والفكر ولاسيما لأن الملك الذي كان متوجهًا إليه بهذه المأمورية هو ثيودور الجبار الذي كانت له الواقعة مع حكومة إنكلترا حتي إضطرت أخيراً أن تجرد إليه جيشاً بقيادة السر ناپير فحاربه وقهره ولما لم ير طريقًا للخلاص أو النجاة قتل نفسه.

ولما علم ثيودور ملك الحبشة بقدومه خرج لمقابلته في موكب حافل على مسير ثلاثة أيام من عاصمة مملكته. ومضى أكثر من سنة منذ خرج من مصر ولم يرد منه خبراً أو يسمع عنه شيء فقلق الناس لذلك. وبعد سنة وأربعة أشهر ورد منه مكتوب ينبىء بوصوله إلى الخرطوم ومعه إثنان من رجال حكومة الحبش أحدهما قسيس الملك الخاص والثانى أحد وزرائه فإطمأن الناس وفرحوا لوجوده على قيد الحياة بعد أن ظن بعضهم أنه مات لا محالة. وفي يوم ٧ أمشير سنة ١٥٧٤ قبطية وصل القاهرة فهرع

الناس لإستقباله فغصت بهم الأزبكية وشوارعها على سعتها وكان يومًا مشهودًا .

وكان السبب في تعويق كيرلس ببلاد الحبشة كل هذه المدة الطويلة أن بعض أخصامه ومن جملتهم رجل إنجليزى وشى الملك أنه لم يحضر إلى بلاده إلا ليؤدي خدمة لخديوي مصر تعود بالضرر على بلاد الحبشة وإتفق أن المرحوم سعيد باشا قام إلى السودان في جيش جرار كما كانت عادته فلما علم بذلك ثيودور الملك تأكد صحة قول الواشين وتوهم أن الباشا زاحف على بلاده لشن الغارة عليها فأوقع الحجز على البطريرك وكاد يفتك به في حال غضبه لولا أن زوجته طلبت إليه أن لايستعجل في ذلك حتى يقف على الحقيقة وتصادف أن سعيد باشا عاد من السودان فتحقق الملك براءة البطريرك من هذه التهمة وطلب منه أن يسامحه .

وقيل أن ثيودور ملك الحبشة تعدى على بعض جهات من إقليمى هرر وزيلع اللذين كانا تابعين إذ ذاك لحكومة الباب العالي مباشرة فأوعز السلطان عبد المجيد إلى سعيد باشا خديوي مصر أن يرسل بطريرك الأقباط إلى بلاد الحبشة لعقد إتفاقية مع

ملكها تعود على المملكتين بالراحة في المستقبل. وسمعت من بعض الشيوخ أنه قرأ هذا الخبر في أحد أعداد جريدة الجوانب التي كانت في الأستانة فذكرتها كما سمعتها منه والعهدة عليه.
ولما إرتاح من عناء السفر ووفود المهنئين بسلامة الوصول عاد إلى مباشرة أعماله. ونحو ثلاث أشهر أى في يوم ٢٩ برموده سنة ١٥٧٥ قبطية شرع في بناء كنيسة الأزبكية وإحتفل بتأسيسها إحتفالاً عظيمًا حضره جميع رؤساء الطوائف وأعيان البلاد ورجال الحكومة.

ورتب للقسوس ميقاتًا يجتمعون فيه كل سبت في مدرسة الأزبكية للمطالعة والبحث في الأمور الدينية وكان هو يحضر معهم في غالب الأوقات ويناقشهم وكثيرًا ما كان يطيل الشرح في الكلام على واجبات القسوس وآدابهم وما يكسبهم مقامًا رفيعًا بين الناس.

وكانت الأوقاف مهملة وأعمالها جارية بطريقة غيرمنتظمة لايعرف الفاقد منها والموجود فأمر بإنشاء سجل لحصر جميع الأوقاف به من واقع الحجج. وكانت إدارة البطركخانة مهملة

أيضًا وأعمالها سائرة بحالة غير مرضية فوجه نظره إلى تحسين حالتها وأنشأ لها ديوانًا وعين لها المستخدمين الأكفاء وقسم الإدارة إلى قسمين قسم يختص بالأعمال الدينية أو الشرعية وقسم يختص بالأوقاف والمكاتبات الرسمية وكلاهما تحت ملاحظته الشخصية.

وفي ليلة الأربعاء ٢٣ طوبه سنة ١٥٧٧ (قبطية ١٨٦١م) توفي إلى رحمة الله. وكان طويل القامة ممتلىء الجسم قوي البنية صحيح الأعضاء أسمر اللون حاد النظر والذهن كبير الرأس عريض الجبهة كثيف اللحية أسودها طلق الوجه واللسان سريع الإقدام على ماينويه كثير الأمثال في حديثه قلما يلقي عبارة لا يسندها إلى مثل. وكان عالي الهمة فطنًا سديد الرأى قريب الرضا سريع العفو كثير الإحترام للرهبنة محافظًا على أصولها كلفًا بمخالطة العلماء ومجالسة الفضلاء ومكالمتهم ومناظرتهم ولم يكن يستنكف من الإقرار بغلطة إذا إتضح له. ومن أفضل ما إتصف به حبه لرعيته وسهره على مصلحتهم ولو أمهلته المنية بضع سنين أخرى لجاء من الأعمال العظيمة بأضعاف ماجاءه ولكنها عاجلته فلم تدم مدة رئاسته أكثر من سبع سنين وبضع أشهر غاب منها نحو سنتين في بلاد الحبشة.

ولم تكن كل هذه التحسينات الظاهرية كل ما كانت تصبو إليه نفسه وتميل إليه عواطفه. أما المدارس التي كان كلفًا بها أكثر من غيرها وموجهًا إليها كل عنايته وإلتفاته لم يكن قصده من إنشائها ورغبته في تأسيسها وتشييدها إلا أن تكون سلمًا ترتقى به الأمة القبطية في المستقبل إلى ما يجعل لها مقامًا رفيعًا بين الأمم ويعيد إليه مجدها القديم. وسمعته مرة يقول لأحد الأساتذة «إنى أنتظر بفروغ صبر إستعداد تلامذة مدارسنا لتلقي العلوم العقلية كالمنطق والبيان وغيرهما من العلوم العالية التي يتسع بها العقل وتغزر به مادته» فشتان بين من كانت هذه فكرته ونواياه وغيره من الذين يظنون أن الغرض من المدارس تحصيل شبابنا من اللغات الأجنبية ما يكفي للإستخدام بإحدى المصالح ودواوين الحكومة مجاراة لغيرهم. وسمعته يقول أيضًا «أن إنتقالنا مما نحن فيه إلى ما يجعلنا في مصاف غيرنا يحتاج إلى أعمال وأتعاب كثيرة لها عمر نوح وصبر أيوب» أي زمن ومثابرة على العمل.

ولما كلفه المرحوم سعيد باشا بالتوجه إلى بلاد الحبشة في المهمة المتقدم ذكرها إنتهز هذه فرصة مناسبة بأن عرض عليه أن

الأمة القبطية بصفة كونها وطنية قامت من قديم الزمان ولا تزال إلى الآن قائمة بخدمة البلاد جديرة بأن تراعى لتكون عضواً عاملاً في جسم الوطن ومن العدل أن تمنح ميزة المساواة بوجود أعضاء منهم في المجالس المحلية كإخوانهم المسلمين مواطنيهم وكذلك الموجودن منهم في الخدمة العسكرية لايحرمون من أن يكون منهم ضباطًا ورؤساء وأن يقبل في المدارس الأميرية العالية كالمهندسخانة ومدرسة الطب وغيرهما شبان من طلبة مدارسه ويعاملوا في خدمة الحكومة كغيرهم من متخرجيها فوعده الباشا بالنظر في طلباته عند عودته من بلاد الحبشة.

وتوهم البعض أنه طلب من الباشا إعفاء بني الأقباط من الخدمة العسكرية على أن هذا بخلاف. وقال لي من كان كثير التردد عليه ومجالسته ولا أشك في صدقه أنه قال له في أثناء حديث جرى بينهما مرة. «يقول البعض أني طلبت من الباشا أن يعفي أولادنا الأقباط من الخدمة العسكرية فحاشا لله أن أكون جبانًا بهذا المقدار لا أعرف للوطنية قيمة أو أن أفتري على أعز إبناء الوطن بتجردهم من محبة أوطانهم وعدم الميل لخدمته حق الخدمة والمدافعة عنه فليس هذا ما طلبته ولا ما أطلبه».

أما سعيد باشا فصار يماطله ويسوفه بوعد النظر في طلباته مرة بعد أخرى فلما علم أن لافائدة في الإلحاح وأيقن خيبة الأمل ذهب إلى دير القديس أنطونيوس بالجبل وبقي فيه أكثر من ستة أشهر متشاغلاً عن ذلك بعمارة مهمة أجراها به وأخذ معه بطريرك الروم الأرثوذكس وكان من أعز أصدقائه فتقول الناس أقوالاً شتى من هذه العزلة ولاسيما بالنسبة لوجود بطريرك الروم معه . ولما شعر الموسيوسباتييه قنصل فرنسا في مصر بمطالبه عرض عليه إستعداده لمساعدته فيما يختص بمساواة الأقباط بالمسلمين في الوظائف العسكرية على شرط أنه يتحصل على تصريح من ملك الحبشة بدخول رهبان اليسوعيين في بلاده والتوطن بها فتخلص منه بالإعتذار من عدم إمكانه التغلب على فكر ملك عنيد صلب الرأى مثل ثيودور في هذا الخصوص .

وكان مسالماً لجميع طوائف المسيحيين وبينه وبين رؤساهم مودة عظيمة ولاسيما الروم الأرثوذكس ولما دعت الحالة لقيام بطريركهم إلى الأستانة فوض إلى صاحب الترجمة مباشرة أعمال بطركخانته وإدارة أشغالها حتى يعود من سفره . ويقول العارفون أنه سعى بعد ذلك في إيجاد الإتحاد والتوفيق بين الكنيسة

القبطية والكنيستين اليونانية الأرثوذكسية والأسقفية لأنهما أقرب إليها في العقيدة من غيرهما . والمتواتر على ألسنة الكتاب أن هذه المساعي كانت علة موته .

ولما مات صاحب الترجمة وتولى مكانه الأنبا ديمتريوس قال له سعيد باشا عند أول مقابلة له «لا تفعل مثل سلفك كلما يلزم لك قل لي عليه وأن مستعد لتأديته لك» وبعد قليل توفي سعيد باشا وتولي الخديوية المغفور له إسماعيل باشا الخديوي الأسبق فنال القبط في أيامه ما لم ينالوه في أيام غيره ولاسيما بالنظر لكثرة مصالحه وإحتياجه لعمال أكفاء يقومون بتأدية أعمالها الجسيمة .

ومع كل هذا لم ينج صاحب الترجمة من التنديد عليه بكونه بدد أموال البطركخانة وكثيراً ما كانوا يجعلون هذا موضوع حديثهم في سهراتهم ومجتمعاتهم ويذكرون مع الأسف فقد هذه الأموال بدون فائدة على ظنهم . وكان سعيد باشا قد ألغى في آخر أيامه دواوين الحكومة ومصالحها وأعطى لمستخدميها المرفوتين أطياناً ليزرعوها ويعيشوا منها ولكن لما تولى إسماعيل باشا وأعاد الدواوين والمصالح أخذ منهم الأطيان وإستخدمهم

فيها ولو بقيت في يدهم للآن لإستغنى كثير من الأقباط عن الخدمة في الحكومة وعاشوا عيشة راضية. ولكن ربما كان في هذا بعض الفائدة فإن تهافت الناس على خدمة الحكومة وإزدحامهم على أبوابها ولاسيما لما تغيرت هيئة الدواوين وأنشئت بها مصالح تحتاج لعمال يكونون عارفين غير ما كان يعرفه الموجودن من قبل وإعتياد كثير من الأقباط على العيشة من خدمة الحكومة وطمع البعض في الرفاهية ورغد العيش كل هذه الأحوال جعلت شبان الأقباط يجدون ويجتهدون في تحصيل مايمكنهم من هذا الغرض فتغيرت بذلك حالة التربية عندهم وهجروا (كتاتيب العرفان) القذرة وألفوا المدارس النظيفة الهاوية الفسيحة فتحسنت حالتهم الصحية وتقوت أجسامهم.

تاريخنا الحديث وحالتنا الحاضرة

كانت الأمة القبطية قد وصلت في أوائل الجيل التاسع عشر الحاضر إلى أقصى درجات الإنحطاط وإستحكام الجهل والفقر بسبب فساد الأحكام والمصائب المتوالية والنوائب المتتابعة

التى لو حلت بأمة غيرها ما أبقت منها بقية. ولما قيض الله لمصر الدولة المحمدية العلوية التي بذلت كل مرتخص وغال في إصلاح شأن البلد وراحة العباد على إختلاف أجناسهم عمت هذه الإصلاحات الأمة القبطية أيضًا ومن ثم أخذت تظهر في عالم الوجود بمظهر جديد. ولو قابلنا حالتها الحاضرة بالتي كانت عليها في أوائل هذا الجيل لوجدنا بين الحالتين فرقًا عظيمًا ليس في التربية فقط بل وفي الأخلاق والعادات واللباس والزي والمسكن. وما الفضل في ذلك إلا لعدل الحكومة أولاً والتربية والتعليم ثانيًا والإختلاط بالأجانب والتشبه بهم والنقل عنهم ثالثًا.

ومن محاسن هذا الزمن الأخير التي تذكر إحياء اللغة القبطية رغمًا عن عدم إظهار الميل لتحصيلها وبعد أن كان لا يعرفها من أبناء الأمة في كل أنحاء القطر المصرى إلا بعض أفراد يعدون على الأصابع ربما لا يزيد عددهم عن عشرة أشخاص صار الآن الذين يتكلمون بها ويكتبونها بالضبط يعدون بالمئات والألوف ونخص بالذكر منهم برسوم أفندي راهب مدرسها بالمدارس القبطية وأقلاديوس أفندي لبيب أحد طلبة مدرسة الآثار المصرية

الذي أتقن معرفتها وبرع فيها براعة لم يسبقه فيها غيره فألف فيها مؤلفات نافعة ولاسيما القاموس المطول المشتغل بجمعه وطبعه ونشره وقد تم منه جزء عظيم ومع كونه لم يجد إقبالاً من أخوانه إبناء الأمة بالإشتراك فيه لأجل تشجيعه على هذا العمل الجليل الخطير لم يقلل هذا عزمه عن إتمامه فلا يزال يواصل ليله بنهاره بالإشتغال في جمعه ونشره ولاشك أنه سيكون خدمة عظيمة تخلد له ذكرًا حسنًا عند الذين يقدرون أتعابه حق قدرها .
وفي هذا المقام يجب أيضًا أن نثني الثناء الجميل على سيادة الأنبا كيرلس الخامس بطريركنا الحالي فإنه لم يأل جهدًا في تشجيع هذا المؤلف وغيره في تعميم نشر الكتب المفيدة بهذه اللغة ولا سيما لأنه يحسن معرفتها فهي ولاشك مأثرة يمدح عليها . وليس هذا كل التغيير الذي طرأ على هيئة الأمة في المدة الأخيرة بل هناك تغييرات أخرى أهم من الأنواع الخارجية التي ذكرناها أوجدها التغيير الذي حصل في حالة التربية والتعليم داخل الأمة وخارجها ذلك أن أسباب المعيشة ووسائط الرزق والكسب التي كان يمارسها القبط إلى ماقبل الزمن الذي نحن بصدده كانت تنحصر غالبًا في الكتابة والزراعة وبعض الأعمال

العادية اليدبوية البسيطة كالنجارة والصباغة والصياغة وعمل السواقي والطواحين التي لا نستطيع تسميتها بصنائع لتجردها من كل إتقان ودقة وما كانت عليه من حالة البساطة والخشونة. وكذلك الكتابة التي هي أشرف هذه المهن كان يقتصر في تحصيلها على رسم الخط ورقم الأعداد. أما الآن فمنهم تجار معدودون وكتبة ماهرون ومترجمون ومحررون ومنشئون وشعراء خطباء واطباء وأجزخانجية وأصحاب معامل وقضاة ومحامون مشهورون ورؤساء في دواوين الحكومة مشهود لهم بالإقتدار وطول الباع نالوا مراكزهم التي يشغلونها فيها بالأهلية والإستحقاق وكذلك أصحاب الصنائع قلما يوجد بينهم من لايعرف القراءة والكتابة.

غير أن هذا التغيير وإن يكن ظاهراً بالنسبة للماضي لا يعد حقيقيًا بل ليس هو كل ما يرجوه محبو الإصلاح. وقد كان يمكن للأمة أن تتقدم أكثر لو لم تعترضها بعد السبع سنين الأولى عقبات وعراقيل أخّرت سيرها ولاسيما الحوادث الأخيرة ونتائجها المضرة التي لم يكن من شأنها تأخير سير الإصلاح فقط بل نتج عنها أيضا ما هو أضر من ذلك بكثير وهو إنقسام

الأمة على ذاتها وإلى أحزاب لا هم لكل منها غير إحباط مساعي الفريق الآخر والتعرض له في الفكر والعمل ولو كان صالحًا مفيدًا .

قلنا أن من أسباب هذا التغيير التربية والتعليم أو بالحري المدارس التي أنشأها سعيد الذكر الأنبا كيرلس الرابع [أبو الإصلاح كما تلقبة الكنيسة حاليًا] المتقدم ذكره. فهذه بعد أن مضي عليها في عالم الوجود نحو أربعة عشر سنة وهى بحالة واحدة بغير إدخال أي تحسين فيها بالنسبة لإستقلال الإكليروس بإدارتها مع عدم معرفتهم بأصولها ورفض كل نصيحة أو قول يختص بإصلاحها أصبحت دون المدارس الأخرى الأهلية التي أنشئت في مصر بعدها في النظام والإستعداد فآثر كثير من الآباء إخراج أولادهم منها وتربيتهم بالمدارس الأجنبية فإنحط بذلك قدر مدارسنا في عيون إبناء الأمة ولم يؤمها إلا إبناء من لا قدرة لهم على دفع المرتبات التي كانت تفرضها المدارس الأجنبية على التلامذة أو الذين يفضلون الإقتصاد على تربية أولادهم .

النهضة الأولى

وفي أثناء ذلك أخذت الغيرة بعض الشبان الذين تربوا في عهد كيرلس الرابع مؤسس الإصلاح وأخذوا أولاً يتأملون في حالة الأمة ويقابلونها بحال غيرها من الطوائف التي بين ظهرانيها وماذا تكون العاقبة لو إستمر الخلل فتوصلوا بهذا التأمل والبحث إلى إكتشاف خلل آخر وهو إهمال أمر المعوزين من إبناء الأمة الذين أحنى عليهم الزمان وحكم عليهم بالفقر والإحتياج وكيف أنهم متروكون يتضورون جوعًا وليس من يفكر فيهم أو يشفق عليهم بينما كان الغير يتمتع بإيرادات الأوقاف المحبوسة عليه ويتصرف فيها كيف شاء ويبددها بالصرف على غير مستحقيها وفي غير شؤونها .

ثم إنتقلوا من التأمل والبحث إلى وجوب الإهتمام بما يناسب المقام والزمان فأخذوا يبثون هذه الأفكار في أصحاب العقول السليمة ويستلفتون أنظارهم إلى الخطر المحدق بهم وبأولادهم .

وكان المتولى إدارة البطركخانة والقائم بشؤونها الأنبا مرقص

مطران الإسكندرية إلى أن تتفق كلمة إبناء الأمة والإكليروس على إنتخاب بطريرك بدل الأنبا دمتريوس الذي توفي بعد أن قام في الرئاسة سبع سنين وسبعة أشهر وإشتهر بطول الأناة ولين الجانب والتواضع وحب السلام.

ولما رأى هؤلاء المصلحون ميل الكثيرين إلى الإصلاح ألفوا جمعية سموها الجمعية الإصلاحية وكتبوا تقريراً ببيان رداءة الحال ورفعوه إلى المطران وطلبوا إليه أن يهتم بتنفيذ رغائب الأمة بإصلاح حال المدارس والفقراء بنفسه قبل أن تضطرهم تعاسة الأحوال إلى التداخل بالقوة.

فلما وصله التقرير دعا عقلاء أعيان الأمة بالقاهرة وأطلعهم عليه فقالوا له أن الطلب عادل وأنهم هم أيضاً يزيدون على ما تضمنه التقرير أن الفساد قد تطرق إلى الأوقاف والقضايا. والرأى عندهم أن يتلافي الأمر بحكمة ويعقد جمعية من إبناء الأمة بالعاصمة ويطلب منهم إنتخاب أربعة وعشرين شخصاً يؤلفون مجلساً لمعاونته وتعضيده في تسيير الأعمال على محور الإستقامة وإجراء الإصلاحات التي يقتضيها الحال. ولما تم ذلك طلبوا منه أن يلتمس من الحكومة صدور الأمر بإعتماد

المجلس بصفة رسمية فلبى طلبهم وعرض على الحكومة إلتماسًا يرجوها فيه الإقرار على تعيين مجلس إدارة للطائفة لمساعدته على تدبير الأمور فأجابت الحكومة سؤاله وصدر بذلك أمر عال بتاريخ ١٥ الحجة سنة ١٢٩٠ وسمى بالمجلس الملى.

ولما إرتقى إلى البطريركية (الأنبا كيرلس الخامس) الحالي طلب منه الأعضاء قبل كل شيء الإقرار على وجود المجلس والإعتراف به فأجاب طلبهم وظلت الأعمال سائرة مدة على أحسن حال والإتفاق سائدًا بين غبطته وبين الأعضاء ومن أعظم أعمالهم في هذه الفترة أنهم أنشأوا مدرسة للبنات ومدرسة إكليريكية وأحضروا لها رهبانًا أذكياء من الديور فإستبشر الناس خيرًا ولكن نقول مع الأسف أن ماحسبوه خيرًا كان سببًا في وقوع مشاكل جمة أدت أخيرًا إلى إنقسام جميع الأمة على ذاتها فإنه لم يمض زمن حتى داخل بعض الأعضاء حب الإستئثار ونفوذ الكلمة وتأييد الرأى ووسوس بعضهم للبطريرك أنه يلزم أن يكون مستقلاً مطلق التصرف غير مغلول اليدين كما كان الذين قبله ووجود المجلس مانع له من كل هذه المزايا . وما زال به حتى إستماله إلى أوهامه وآرائه الفاسدة ولا حاجة لإطالة الشرح في

ذلك فإنه معلوم عند الجميع ولايزال باقيًا في ذاكرة الموجودين فنفر غبطته من المجلس وصار يتخلف عن الحضور في الجلسات وإستقل بالأعمال. وبعد مداولات ومخابرات طويلة جرت بينه وبين الأعضاء بواسطة بعضهم بدون فائدة ولا جدوى إلتمسوا من الحكومة النظر فيما بينه وبينهم من الخلاف فأصدرت أمرها له بتكليفه بالإستمرار على عقد جلسات المجلس في أوقاتها المعينة والعمل بالإتحاد معهم غير أن أصحاب الغايات كانوا لا يزالون يلحون عليه بعدم الإكتراث فسئمت نفوس الأعضاء وإستعفي البعض وإنقطع البعض فإنحل المجلس من طبعه وبقي منحلاً مدة سبع سنوات رغمًا عن كل المساعي التي بذلت لاسترجاعه. وأبطلت مدرسة البنات والمدرسة الإكليريكية وأهملت مقدمات التحسينات التي كانت أدخلت في غيرهما.

النهضة الثانية

بينما كان المجلس معطلاً كان الذين يهمهم الإصلاح لايفترون عن الإلحاح على أولياء الأمر ولاسيما الأعضاء بإعادة المجلس

أو على الأقل إظهار الإهتمام باصلاح شؤون الأمة فكان بعض هؤلاء الأعضاء تارة ينسبون التوقف للبطريرك والإكليروس وأخرى يتوجعون من وجود معاكسين بينهم والبعض يتعلل بأن ظروف الأحوال غير مساعدة وغير ذلك من التمويهات والتلفيقات . والحقيقة أن من أعظم أسباب تعطيل المجلس وإنحلاله كل هذه المدة عدم الإئتلاف ووجود ضغائن بين البعض منهم نحو أخيه وترفع البعض الآخر وتعظمهم على المطالبين بالأصلاح وإعتبار أنهم دونهم في المقام فلايجب التعويل على أقوالهم وزعم البعض أيضاً بأن الإصلاح لا يقوم إلا بالمال والمال لا يوجد إلا في خزائن البطريكخانة أو كما قال أحدهم في (حنك السبع) .

وفي أثناء ذلك قام بعض الغيورين وبرهنوا على فساد رأى من يقول أن الإصلاح متوقف على أموال البطريكخانة بأن أسسوا جمعية لمساعدة الفقراء المحتاجين وسموها جمعية المساعي الخيرية فقامت بخدمات خيرية تذكر فتشكر وأغاثت كثيرين من المعوزين المهملين الذين لم يكن يفكر فيهم أحد حتى ولا خدام الدين التي هذه الأعمال من أهم واجباتهم . ومع ما صرفته في

الأوجه الخيرية توفر في صندوقها مبلغ يذكر سدت به العجز الناتج من قلة الإيراد في المدد التالية مع أنه ليس لديها واسطة تستعين بها على هذا العمل الجليل غير الإشتراكات الشهرية والتبرعات التي يجود بها أهل الخير من فضلات ما عندهم. وهذا دليل قاطع على أن كثيراً من وسائط إصلاح شؤوننا بل معظمها وأهمها متوقف على إعتمادنا على أنفسنا وتقدمنا إلى العمل بالتدبير والحزم والمثابرة. وحسبنا شاهد على صحة هذا الرأى وسلامة هذا المبدأ جمعية طنطا ومدرستها وما تأتيه في كل يوم من جميل الأعمال ولو إعتمد إخواننا سكان هذه المدينة على ما نعتمد عليه نحن لأدركهم ما أدركنا وناموا نومتنا وفاتهم ما فاتنا. وكذلك تأسست جمعيات خيرية في جهات كثيرة في الوجهين القبلي والبحري مثل المنصورة وقليوب ودمنهور والسويس وبنى سويف والفيوم والمنيا وأسيوط وقنا وغيرها وكلها ترمي لغرض واحد وهو معاونة الفقير وتربية اليتيم المعدم. وإن كان بعض هذه الجمعيات سائرة على خطة لا تفي بالغرض تماماً يؤمل أنها تتحسن بتقدم التربية وتغيير الهيئة الحاضرة وعلى كل فكلها

قائمة بغير أموال الوقف ولا علاقة لها بالإكليروس.

ولنرجع إلى الكلام على العاصمة ورجالها فنقول. ولو أعار غبطة البطريرك المصلحة العمومية أثناء تعطيل المجلس في هذه المرة جانب الإلتفات وسلم تدبير الأمور المتعلقة بها في يد أُناس أمناء مستقيمين أكفاء ونفذ رغائب الأمة من جهة الإصلاحات التى كانت تشغل الأفكار وتلهج بها الألسنة في كل مجتمع وناد وعمل فيها بمقتضى مشورة أصحاب الآراء الصائبة والفكر الثاقب المنزهين عن الغرض والغاية وإستخدم لذلك عمالاً أكفاء لكان إكتسب ثقة الجمهور به وإعتمدوا عليه وإرتاح باله من تجديد مطالبته في كل يوم بما لم يكن يريده وهو إعادة المجلس.

ولما ساءت الحال وكثر شكوى أصحاب القضايا من تأخير قضاياهم ولاسيما المواريث وعدم الفصل فيها والعبث بالأوقاف وإيراداتها وإنحطاط حال المدارس خصوصاً المدرسة الكبرى التي بالأزبكية إلى درجة لايليق معها تسميتها بمدرسة عاود الناس المطالبة في سنة ١٨٨٣م بتشكيل مجلس على هيئة جديدة وإستحصلوا على أمرٍ عالٍ بذلك فعرض البطريرك للمعية

السنية بالمعارضة فأجابت على طلبه بوجوب تثبيت المجلس وإعادة تشكيله حيث قد سبق الأمر العالي بالموافقة عليه. وتعين من قبل الحكومة مندوب لحضور الإنتخاب تحت رئاسة البطريرك فتم بذلك الأمر وأصاب الإنتخاب أربعة وعشرين شخصاً وبعد أن صدقت الحكومة السنية على هذا الإنتخاب شرع المجلس في مباشرة العمل على مقتضى اللائحة الجديدة المزينة بالأمر الخديوي العالي غير أن غبطة البطريرك لم يستمر على الحضور في جلساته بالنسبة لما صرح به جنابه فيما بعد من إشتمال اللائحة على بعض مواد مجحفة به ولذا كانت أغلب الجلسات تعقد تحت رئاسة النائب وعلى كل فعدم رضاء غبطته عن المجلس كان من أعظم العوامل على عدم نجاحه بالنسبة لعدم تنفيذ قراراته.

ولعدم النجاح سبب آخر ينسب (مع الأسف) لبعض كبار الأعضاء وهو عين السبب الذي أدى إلى إنحلال المجلس الأول ودسائس أصحاب الغايات الذين لم يكن يهمهم غير رواج مصلحتهم الذاتية ومنفعتهم الشخصية.

وفي أثناء ذلك حصل ما أوجب نفور الناس من البطريكخانة ومن بها وأطلق لسانهم عليها وعليهم وعلى جميع طغمة الإكليروس

بأشنع الأقوال والتنديد وذلك أن الحكومة كانت وضعت قانونًا للقرعة العسكرية ومما في هذا القانون معافاة خدام وطلبة الأديان من الخدمة العسكرية فتقاطر الشبان على الدار البطريركية للإستحصال بواسطتها على تذاكر معافاة بناء على شهادات من قسوس وأساقفة أبروشياتهم ولما تلاحظ للحكومة أن بين هؤلاء الشبان من هو محترف بحرفة ومن هو مشتغل بصنعة ومنهم من لايعرف القراءة ولا الكتابة وبالبحث إتضح لها أنهم لم يحصلوا على الشهادات إلا بطريق الغش والرشوة قبضت على بعض القسوس وحاكمتهم وحكمت على بعضهم بالحبس وبعضهم بالأشغال الشاقة مؤقتًا ولو لم تحصل المساعي في تغيير هذه القاعدة وصرف النظر عما مضى لكان أصاب بعض الأساقفة ما أصاب القسوس.

أما المجلس فتعطلت جلساته وبقي معطلاً مدة.

النهضة الثالثة

وفي سنة ١٨٩١ نهض دعاة الإصلاح إلى تجديد الإنتخاب وإعادة المجلس مرة ثالثة فكلفوا خمسة من أعيان الأمة وأفاضلها

وهم المرحوم سعد بك ميخائيل ويوسف بك وهبه ويوسف بك سليمان وبطرس بك يوسف ومقار بك عبد الشهيد أن يطلبوا من البطريرك عقد جمعية للإنتخاب بالتطبيق للائحة.

فلماحضروا عنده وصرحوا له بمطالبهم أبي إجابة سؤالهم بالقول أنه ينوى إدخال بعض تعديل في اللائحة وهذا لا يتأتى إلا بوجود سعادة بطرس باشا ولكونه غائبًا في أوروبا فالأولى الإنتظار حتى يعود. وطال الكلام بينهم وبين جنابه وكثر الأخذ والرد حتى إنفصل الفريقان بدون نتيجة.

وكان المغفور له توفيق باشا الخديوي السابق بمدينة الإسكندرية فسافر إليها بعض من الأعيان وحظوا بمقابلته وعرضوا عليه الأمر وتوقف غبطة البطريرك فأشار عليهم بالإتفاق مع بطريركهم فإنه لايجب أن تكون بينهم وبينه نشوذ وأنه في كل وقت مستعد لتأدية ما يلزم لهم.

وإتفق أن المرحوم سعد بك ميخائيل بصفة كونه نائبًا عن

النائب حرر تذاكر للأعضاء بالحضور إلى البطريكخانة لعقد جلسة فأبلغ بعض المفسدين البطريرك أنه حرر تذاكر بطلب إنعقاد جمعية من رجال الملة لإعادة الإنتخاب وأغروه على كتابة طلب لمحافظ مصر بإجراء ما من شأنه منع دخولهم في البطريكخانة بالقول أنٍ إجتماعهم بها ينبنى عليه ما يخل بالنظام فبعث المحافظ بعضا من العساكر ليقفوا على باب الدار البطريركية. ولما شعر بذلك الأعضاء المدعوون والبك المذكور إمتنعوا عن الإقتراب من دار البطريركية وإجتمعوا بمنزل جرجس أفندي خليل وقرروا وجوب إعادة الإنتخاب كطلب الأمة. ولكن كان لهذا الأمر تأثير ردىء ولاسيما في نفس المرحوم سعد بك ميخائيل بالنسبة لإتهامه أمام الحكومة أنه يسعى في عمل ثورة فهجر البطريكخانة بالمرة ولم يعد يدخلها حتى مات. وقد تنبه غبطة البطريرك لذلك فيما بعد وتحقق سوء مقاصد هؤلاء المفسدين الذين كانوا يحومون حوله ويحسّنون له ما لا يحسن عمله لغاياتهم الشخصية فأبعد عنه البعض منهم وغض الطرف عن البعض.

وعلى أثر ذلك أرسل غبطة البطريرك وإستدعى المطارنة والأساقفة ورؤساء الأديرة ووكلاء الشرائع للنظر في مسألة

المجلس نظرًا نهائيًا وفض هذا الشكل الذي« تتهده به الطائفة في كل وقت .

ولدى وصولهم إنعقد منهم مجمع إكليروكى بالدار البطريركية تحت رئاسة جناب الأنبا يوأنس مطران الإسكندرية ووكيل الكرازة المرقسية ثم تلى عليهم قرار محصله أن تشكيل مجلس مخالف للنصوص الكتابية والقوانين الرسولية فوقع عليه جميع الحاضرين ماعدا إثنين وهما القمص فيلوثاوس خادم الكنيسة الكبري بالأزبكية والقمص بطرس خادم كنيسة دير الملاك البحري . ولولا طول عبارته وضيق المقام لأدرجناه هنا بحروفه فعلى من يريد الوقوف على ماتضمنه من البراهين الكتابية والنصوص القانونية أن يطالعه في كتاب «القول اليقين في مسألة الأقباط الأرثوذكسيين» لمؤلفه يوسف أفندي منقريوس ناظر المدرسة الإكليريكية فإنه مدرج فيه برمته مع غيره من القرارات والمكاتبات الرسمية التي أعطيت وجرت في هذه المسألة الخطيرة بالتفصيل .

وعلى أثر تحرير هذا القرار والتوقيع عليه قام غبطة البطريرك ونيافة الأنبا يوأنس المطران إلى الإسكندرية وتشرفا بالمثول بين

يدى المغفور له توفيق باشا الخديوي السابق وقدما لجنابه قرار المجمع الإكليريكى وعرضا عليه بعض ملحوظات منها أن عدداً عظيماً من إبناء الأمة غير راضين بالمجلس وأن جميع البطاركة الذين تقدموا كانوا مطلقى التصرف غير مقيدين بهذا القيد فأجابه الخديوي ناصحاً إليه أن يكون على وفاق تام مع إبنائه وليعلم أن الخديويين الذين قبله كانوا مستقلين في أعمالهم أما هو فرضى بأن يكون مقيداً بمجلس نظار لما رأى في ذلك من الخير والفائدة للرعية والبلاد . وإنصرفا من عنده على وعد أنه سينظر في المسألة ويحكم بما فيه راحة الفريقين .

وعلى أثر ذلك حضر سعادة بطرس باشا من أوروبا فأعطى له ساكن الجنان توفيق باشا جميع الأوراق المختصة بهذه المسألة التي تقدمت له من الطرفين وأمره بحسم النزاع وعمل الوسائل اللازمة لمنع الخلاف بين البطريرك وطالبي المجلس فبذل سعادته كل ما في وسعه لمصالحة أعضاء المجلس القديم مع غبطته فجمعهم وإياه في قاعة المجلس وطلب إليه أن يضرب صفحاً عن كل ما مضى ويكون راضياً عليهم متفقاً معهم قلباً وقالباً لتنجح المقاصد ثم إلتفت إلى الأعضاء وحضهم على وجوب الوفاق والوئام مع

رئيسهم وليعلموا أنهم بدونه لا يستطيعون عمل أى شيء . فقال غبطته أنه مسامح في كل ما مضى وأنهم أولاده وهو أبوهم أما عن العمل فإنه قد بلغ من العمر ثمانية وستين سنة فلا قدرة له عليه فعليهم أن يباشروه هم بأنفسهم وحيث أنه قد صار شيخاً يريد التفرغ للعبادة والصلاة تاركاً العمل لهم والله يساعدهم .

وبعد أخذ ورَد وكلام طويل إنصرف الفريقان على فكر حصول المصافحة والمصالحة وزوال النفور والنشوذ ولكن كان الأمر بخلاف والذي في القلب في القلب فلا المجلس كان يجتمع ولا الناس تكف عن المطالبة به والبطريرك مُصّر على عدم تشكيله فكثر القال والقيل ودام الحال على هذا المنوال مدة سنة . وكان غبطة البطريرك قد طلب إلى بعض كبار الأعضاء أن يحضروا إليه فأبوا إلا الحضور بقاعة المجلس بصفة رسمية لعقد جلسة وهذا غير ما كان يبغيه البطريركاً او بالحري المحرضون له على عدم قبول مجلس . ولو أجاب الأعضاء الطلب وواجهوا غبطته وتعاتبوا بلطيف الكلام لعاد ذلك ببعض الفائدة وإلا فيكونوا قد عملوا الواجب عليهم ولكنهم إعتزلوه بالمرة فتمكن

أصحاب الغايات من التغلب على فكره بالمين والبهتام والأكاذيب الملفقة. والبعض يقول أنهم إنما إمتنعوا عن الحضور إليه لأنه لم يدعهم إلا ليحضروا مجمعًا إكليريكيًا ولا شأن لهم في ذلك وهب أن هذا القول صحيح كان وجودهم واجبًا لأمرين أولهما إقامة الحجة بصفتهم نواب الأمة ومسؤولين عن مصالحها ضد من يجترىء على التشبث في إلغاء المجلس ولا يبرحوا من هنالك حتى يحرروا محضراً بذلك ويعلنوه لجميع إبناء الطائفة إذا إقتضى الحال بصفة كونهم أمناء على مصالحهم. وثانيهما المناقشة في الموضوع لتنوير أفكار الموجودين الذين لا تخفي عليه حالة معظمهم فيكسبون المجمع بهذه المناقشة صبغة يحق معها أن يسمى مجمعًا إنعقد لأمر خطير لا أن يتلى عليهم قرار مكتوب ويطلب منهم التوقيع عليه فلم يروا بُدًا من الأجابة إطاعة للأمر أطاعة عمياء كما حصل.

وفي خلال ذلك تأسست في العاصمة جمعية التوفيق وظهرت منذ نشأتها بمظهر يخالف جميع الجمعيات الإصلاحية التي قامت قبلها فإنها لم تلبث أن صار لها جمعيات فرعية عاملة على خطتها في جهات أخرى كثيرة مثل الإسكندرية

وطنطا والمنصورة وأسيوط والمنيا وبني سويف وملوي فتشددت عزائمها وقوى ظهرها . وإذ كان القاطع في أذهان مريدى الأصلاح أن لا إصلاح يرجى إلا بالمشورة والمشورة لا تكون إلا بالمجلس ولم يحولهم عن هذا الفكر ما رأوه من الخيبة أولاً وثانيًا بل كانوا ينسبون ذلك إلى المعاكسة وإلقاء العراقيل أخذت الجمعية تبث هذه الأفكار وتنادي بالإصلاح في نشرات شرحت فيها فساد الأحوال والإخلال وطبعتها ونشرتها ووزعتها في كل جهة فإنبرت لها جمعية أخرى تسمى الجمعية الأرثوذكسية أقيمت بنوع مخصوص للرد على جمعية التوفيق فيما كانت تكتبه وتنشره وليس لنا أن نبدي أية ملاحظة أو إنتقاداً على ما خطته أقلام أعضاء هاتين الجمعيتين وأصلوه وفصلوه وشرحوه في نشراتهم غير أن نشور على القراء أن يطالعوها بإمعان وتأمل أو على الأقل يطالعون ما أدرج منها في كتاب القول اليقين المتقدم ذكره فإنهم يجدون في ذلك لذة وفائدة .

وبينما كانت المناظرات بين الجمعيتين قائمة على ساق وقدم كان كثير من إبناء الطائفة يلحون على سعادة بطرس باشا بواسطة بعض الأعيان بحسم النزاع بإعادة تشكيل المجلس فكلف

سعادته نيافة مطران الإسكندرية أن يبلغ البطريرك هذا الطلب فعاد إليه نيافته وأبلغة أن البطريرك لا يعارض في إعادة تشكيل المجلس بشرط تحوير بعض مواد اللائحة المجحفة بسلطته بطريقة رسمية فأشار سعادته بعدم موافقة توسط الحكومة في التحوير الذي يريده بالحصول على مصادقة منها عليه ربما تأبي ذلك والأوفق أن غبطته يسمح بإعادة تشكيل المجلس وتجديد الإنتخاب وبإتحاده مع الأعضاء ينظر في المواد التي يرى أنها مجحفة بسلطته والإتفاق على تحويرها بينه وبينهم وتسير الأمور على مقتضى هذا التحوير فأبي غبطته إلا التحوير والتعديل بطريقة رسمية.

ولما رأى أعضاء جمعية التوفيق أن توسط الباشا المومأ إليه في إعادة تشكيل المجلس لم يجد نفعًا شرعوا في عمل محاضر للتوقيع عليها من الذين يريدون المجلس ويطلبون تجديد الإنتخاب فوقع عليها كثيرون وكذلك الجمعية الأرثوذكسية جاءت جمعية التوفيق وعملت محاضر للتوقيع عليها ممن لا يريدون مجلسًا فإنقسمت الأمة إلى قسمين وإنشطرت شطرين. وإنطلق لسان جمعية التوفيق بالقدح والذم في حق الإكليروس بدعوى

تصديهم للإصلاح فساء ذلك بعضهم فكتبوا عريضة للمعية السنية وكلفوا غبطة البطريرك بالختم عليها . ويظهر أن المحرر لها كتبها بغير تأمل أو ترو حتى أنه لم يراع فيها ما أبلغه غبطته للباشا من قبوله تشكيل المجلس على شرط تحوير بعض مواد اللائحة بل أشار بها إلى رفض قبول أي مجلس قطعًا وطلب صدور الأمر بذلك وبإبطال جمعيةٍ التوفيق منعًا للشقاق والخصام والقلاقل . والذي زاد الطين بللا وجعل المطالبين بالمجلس يشددون في إعادة تشكيله أن محاكم الحكومة رفضت الأحكام والإعلامات الشرعية الصادرة في أثناء التعطيل من البطريكخانة بتعيين أوصياء وقيام ولم تعول عليها لعدم المصادقة عليها من المجلس قبل تحريرها وإصدارها فنسب كاتب العريضة ذلك إلى تداخل جمعية التوفيق وجعله من جملة الأوجه التي بني عليها طلب إلغائها وكأنه توهم أو أوهم أن لهاته الجمعية نفوذًا وإقتدارًا على قلب الحال وما درى أن الذين قلبوا الحال وأقاموا هذه القيامات وجلبوا على الأمة كل هذه الشرور والفضائح التي يذكرها كل قبطيٍ ويتألم فؤاده منها هم أعوان السوء ومشورتهم الرديئة فضلا عما لحقنا من التأخر وما فاتنا من الفرص بالإشتغال بما لا طائل تحته سنينًا وأعوامًا .

أما المعية السنية فلم ترد على عريضة غبطة البطريرك بشيء غير أن خديوينا الحالي أيده الله أصدر أمره الكريم شفاهيًا لسعادة بطرس باشا بإعادة تشكيل المجلس وتجديد الإنتخاب حسمًا لهذه المنازعات. ولما أبلغ البطريرك بما صدر به النطق السامي أبي وعرض للمعية السنية فلم ترد عليه ببنت شفة.

ثم وزعت تذاكر الدعوة للإنتخاب بختم سعادة بطرس باشا بصفته نائب المجلس فإجتمع نحو خمسمائة نفس من رجال الأمة وحصل الإنتخاب على يد وبحضور سعادة محافظ مصر فأشار مشيرو السوء على غبطته بالعرض للمعية السنية بالإعتراض على هذا العمل فكانت نتيجة هذه المشورة السيئة أنه لما توجه غبطته ونيافة مطران الإسكندرية وبعض الرؤساء الروحيين عقب ذلك إلى سراي رأس التين لتأدية رسوم التهانى للحضرة الخديوية بقدوم عيد الأضحى أعلنوا بأن سمو الخديوي لا يرغب أن يقابلهم.

وبعد خروج غبطته ومن معه من سراي رأس التين عرض للمعية بالإستفهام عن سبب حرمانه من التشرف بمقابلة الحضرة الخديوية فلم ترد عليه جوابًا بل كتبت إلى سعادة بطرس باشا بأن ينبه على غبطته بعدم العودة إلى مخاطبة المعية مرة أخرى.

كل هذا ومشيرو السوء لا يرتدعوا ولا يرعووا بل ما إنفكوا يحرضونه على التوقف وعدم الإعتراف بالمجلس ونشر المنشورات والإعلانات بالجرائد بالحط على جمعية التوفيق ونسبتها إلى السعي في الشقاق والإنقسام أو أن المجلس مخالف للأوامر الإلهية والتعاليم الربانية وإظهار أن الطائفة غير راضية به وإتهام بعض الأفراد بما لو ثبت عليهم حقًا لعد جريمة يستحقون عليها أشد الجزاء والضغط على غبطته بتحرير عرائض للمعية السنية ورئيس مجلس النظار ممزوجة عباراتها بتورية عدم الإنصياع لأوامر الحكومة بتأييد المجلس مع الإسترحام من جناب الخديوي بالتصريح بتشريفه بالمقابلة للحصول على رضاه حتى جلبوا على جميع الأمة عارًا لا يمحى وإلى هنا كنت أود أن أمسك الكلام خجلاً من الإسترسال في ذكر الحوادث المعيبة التي أعقبت ذلك مما هو معلوم عند القراء لولا أني رأيت أن الخبر يكون أقطع أبتر فإضطررت أن أكره القلم على إيرادها بالرغم عني.

ومع كل هذه السياسة الوخيمة التي كان يدبرها له المشيرون ويسحنونها في عينيه ويخفون عنه المخاصمات

والإنقسامات التي كانت تتمزق بها أحشاء الأمة وهو يصدق تلفيقاتهم ويركن لأقوالهم لسلامة نيته صدر الأمر العالي بالمصادقة على إنتخاب المجلس فتواردت التلغرافات من الجهات إلى المعية السنية بالتشكر للجناب العالي على هذا الإلتفات. وكان يظن أن هذا يكون حاسمًا لكل نزاع قاطعًا لكل إشكال ولكن لما أرسلت لغبطته صورة الإرادة السنية أشاروا عليه بالرد على مجلس النظار بما يؤخذ منه إقامة الحجة على الحكومة وأنه لا يقر على تجديد الإنتخاب لسبوق الإستغناء عن المجلس ولم يكتفوا بذلك بل أفهموه (البطريرك) أن هؤلاء المتشكرين يعدوا بالعشرات وحرضوه على إبعاث منشور لجميع الأساقفة والشعب القبطي بعدم الإغترار بأقوال دعاة المجلس والتمسك بما كانوا عليه قبلاً وطلب إليهم أن يتلوا هذا المنشور في جميع الكنائس.

ولما زاد الإرتباك وإستفحل الخلاف بين أعضاء المجلس وغبطته وأعيتهم الحيل في إستجلاب رضائه ويأسوا من حمله على التساهل والملاينة إضطروا إلى أن يطلبوا من الحكومة رفع يده من جميع شؤون الطائفة الإدارية ومن رئاسة المجلس الملي فكتبوا قرارًا طويلاً ضمنوه تاريخ إنشاء المجلس وما حدث فيه

للآن يراه القارىء مدرجًا بالحرف الواحد في كتاب القول اليقين الذي أشرنا إليه قبلا ورفعوه للحكومة وطلبوا التفويض لهم أن ينتخبوا من يلزم ليكون وكيلا للبطريكخانة ورئيسًا للمجلس فأجابت طلبهم وصدر الأمر العالي بذلك.

فلما علم بذلك غبطة البطريرك كتب إلى رئاسة مجلس النظار يقول أن جميع أشغال البطريكخانة من أوقاف وكنائس ومدارس ومطبعة إنما هي دينية محضة وكلها مختصة به وبسائر رجال الإكليروس ولذا لا يمكنه قط الإقرار على أي مشروع ضد القاعدة المتبعة وما كان جاريًا من قديم الزمن ولا على تعيين وكيل عنه ولا قبول إجراآته وأنه موجود بالقطر طوائف مسيحية فإذا وافق يصير عمل مجلس من رؤسائها بحضور غبطته ومن يلزم للنظر في المسألة وفضها فضا نهائيًا فلم يجبه مجلس النظار بشيء ما.

ولما علم غبطته أن البعض يحاول إستمالة أحد الأساقفة لقبول رئاسة المجلس ووكالة البطريكخانة نشر بعض دعاة الفريق الآخر إنذارًا بإحدى الجرائد بعزم البطريرك على قطع من يقبل بذلك. فإزداد الخبال والإرتباك وكان غبطته مقيمًا كل هذه المدة بمدينة الإسكندرية والناس يرحون ويغدون إليها متوسلين إليه أن

يفض هذا المشكل بالإذعان لأوامر الحكومة وقبول المجلس فلم يشأ .

ثم إلتجأ غبطته إلى بعض قناصل الدول ودولتلو الغازي مختار باشا في إستجلاب رضى الحكومة والجناب العالي ومساعدته في الحصول على طلباته فجاوبه بعضهم بما معناه أن هذه المسألة داخلية محضة فلا يمنكهم التداخل فيها . أما قنصل الروسيا فطلب من غبطته مقابلته في دار القنصلية بالإسكندرية فتوجه إليه ومعه نيافة مطران الإسكندرية والقمص تادرس مينا .

وبعد أن سمع منهم تاريخ المجلس ومنشأة وإحتجاجاتهم طلب منهم بياناً بالتعديلات التي يرغبوا إدخالها على اللائحة . وختم كلامه بالنصيحة لغبطته بالمصالحة والمسالمة ورفع أسباب الشقاق قائلاً أن هذا غاية مايريده الجناب العالي وهو كاف لإستجلاب رضائه . وقبل إنصرافه من عنده وعدهم بأنه سيبذل كل ما في وسعه مع سعادة بطرس باشا وحصول الوفاق .

وعلى أثر ذلك وصل الباشا المومأ إليه إلى الإسكندرية وبعد مداولات ومخابرات تم الإتفاق بينه وبين غبطة البطريرك على مايأتى :

أولاً : أطيان أديرة الرهبان تقدم حساباتها للبطريرك وزائد نقودها يحفظ لمحلاتها .

ثانيًا : الأعمال المختصة بالإكليروس يكون نظرها بالإتحاد مع المجلس الروحي .

ثالثًا : المادة المختصة بالأحوال الشخصية تنظر منها المواد المختصة بالشريعة بالإتحاد مع المجلس الروحي أما الأحوال المتعلقة بالمجالس الحسبية فتنظر بالمجلس .

رابعًا : ديوان البطريكخانة يكون بمعرفة البطريرك ولا إختصاص للمجلس فيه .

خامسًا : حجج وسندات الأوقاف بعد تسجيلها تحفظ بمحلات أوقافها .

سادسًا : أمتعة وأواني الكنائس والأديرة تحرر بها كشوفات للتسجيل وتبقى بمحلاتها كما هى .

سابعًا : رئاسة المجلس تكون لغبطة البطريرك ومن يوكله بمعرفته من الإكليروس .

ثامنًا : أعضاء المجلس المنتخبون الآن يجرى تبديل غير الموافق منهم .

تاسعًا : بعد التعديل يكون ثلث المجلس من المنتخبين بالمجلس الروحي والثلثان من الشعب وإتفقا أيضًا على تعيين وكيل عالماني يعينه المجلس .

ولكن من الأسف أن هذا الإتفاق لم ينفذ مفعوله لأمرين أحدهما نشره في الجرائد ضد رغبة الباشا قبل المصادقة عليه . والثاني عدم قبول أعضاء المجلس به إلا بعد إعتراف غبطة البطريرك بالتأويل الذين أولوه له والتعهد منه كتابة بالإتحاد مع المجلس فحرروا بذلك قرارًا شديد اللهجة وإستحسنوا أن يرسل لجنابه عن يد مندوبين وهما الخواجا قلاده أنطون والخواجا فرنسيس جربوعه وهذا نصه :

بعد تقبيل أيديكم نعرض أنه لما لم يكن لأرباب المجلس غاية إلا المنفعة العمومية فمن وقت إنتخابهم للآن وهم ساعون في إسترضاء غبطتكم والوصول للإتفاق معكم حسمًا للنزاع ومنعًا للشقاق والإنقسام وهذا رغمًا عما أجريتموه وكتبتموه بالجرائد وغيرها ولأجل الحصول على ذلك قد قرر المجلس التكلم مع جنابكم بواسطة جملة من وجهاء الطائفة وأخيرًا كلف حضرة نخله بك الباراتي بذلك وبعد أن قبلتم بالمجلس عدلتم في الوقت ذاته ولمناسبة وجود سعادة بطرس باشا بالإسكندرية في الأسبوع الماضي تكلم مع حضرتكم بناء على تكليف المجلس بوجود حضرة إبراهيم بك نخلة وبعد أن أوريتم مزيد الأسف على ما حصل قبلتم بالصلح وإتفق سعادته مع جنابكم وصليتم على

الإقرار على ذلك وصار كتابة مشروع منشور لإرساله لجميع المطارنة والأساقفة وغيرهم مؤداه الإقرار على المجلس والحث على عدم الشقاق . وبرجوع سعادة الباشا المشار إليه ثاني يوم ليتحقق من إرسال ذلك المنشور رأى أنكم عدلتم عن ذلك الإتفاق وطلبتم جملة طلبات لم يرض بها وفي الغد الذي هو يوم الأربعاء أرسلتم له القمص تادرس مينا وإبراهيم بك مليكه ليخبراه بأنكم مصممون على بعض أشياء لا يمكنكم قبول الصلح بغيرها فحبًا في نهو المسألة وإزالة الإرتباك الحاصل قبل بها على ما فيها وكتبها القمص تادرس مينا بخطه وقام سعادته لمصر في الحال بعد أن إشترط إرسال المنشور للأساقفة وكفكم عن كل عمل يؤدي للخلاف وكنا جميعًا نظن أنه بعد حصول ما حصل وزيادة التساهل التي أجريناها معكم تتركون أبواب المخاصمة وتتحدون بسلامة الضمير مع إبناء الطائفة حتى يحصل الهدوء والراحة بين الطرفين لكننا مع غاية الأسف عند إطلاعنا على الكتابة التي أرسلت لسعادة الباشا المشار إليه مع إبراهيم بك مليكه رأينا أنكم تذكرون فيها أن ما حصل عليه الإتفاق هو بعض ما يلزم إجراؤه ومن ذلك يُعلم أن في نيتكم أشياء جديدة ولم تكتفوا بالإتفاق المذكور ومع ماذكر من الإخلال بالإتفاق وحرصًا على الصلح أخبركم سعادته أن هذا الإتفاق مشتمل على كافة التعديلات التي رؤى لزومها وأننا قابلون به دون سواه وسنجرى تنفيذه فبدلاً عن مجاوبته بالإقرار على ذلك بالتصريح أرسلتم له تلغرافًا بالدعاء ثم رأينا أيضًا بالأمس في جريدتي المؤيد والوطن مندرج بهما صورتا الإتفاق والكتابة الصادرة من جنابكم على أن الغرض من حفظهما بطرف إبراهيم بك مليكه هو عدم إذاعتهما وإعتبارهما

بمثابة إتفاق داخلي خصوصي كأنه بين أفراد عائلة واحدة لحين تنفيذه فإتحدتم مع البك الموماً إليه وحجزتموه بطرفكم بالمرقسية حتى أرسلتم لبعض الجرائد هاتين الصورتين على يد رجال من البطريكخانة وهذا دليل آخر على عدم إخلاص النية ثم وجدنا إعلانًا في جريدة الوطن للأساقفة والمطارنة وجميع الشعب (نظنه المنشور الذي إشترط إرساله) تذكرون به أنه من عهد تشكيل مجلس للملة وهو حاصل شقاق وخلاف ونفور بين الجميع ولم ترسلوا المنشور الذي حصل الإتفاق عليه بحضور حضرة إبراهيم بك نخلة فبهذا الإعلان بدلاً من إزالة تأثير كتاباتكم السابقة كما كان المقصود من إرسال المنشور أيدتم تلك الكتابات وجعلتم وجود المجلس هو السبب للنفور والشقاق وحرضتم على منع علة البغضاء وهذه العلة لا تصدق بحسب تعبيركم إلا على المجلس على أنه موجود من منذ عشرين سنة والكل قابل به ولم يحصل إلا ما أوجدتموه حضرتكم منذ سنة من إيجاد الشقاق بالقول أن وجود مجلس مخالف للدين هذا فضلاً عما أجراه بعض المتشيعين لحضرتكم بمصر بناءً على كتابات صادرة ممن معكم بالإسكندرية من الهياج والقول أنكم ستتشفون ممن كان مخالفًا لكم في الرأي وزيادة على ذلك تبالغ أنكم لا تزالوا للآن باثين الرسل في بعض الجهات وخصوصًا في المنيا لختم محاضر من البسطاء بعدم الإذعان للأوامر الصادرة من الحكومة السنية بخصوص المجلس أو بناءً على طلبه وحيث أن السعي في الصلح مع غبطتكم هو منع الهيجان الذي أوجدتموه بالطائفة وعشمًا في أنكم تسعون مع المجلس بنية خالصة كرجل واحد في رتق الفتق الذي حصل ومن جميع ما ذكر آنفًا يرى أن حضرتكم ما زلتم لم

تخلصوا الضمير وكأن الهياج والإنشقاق سيستمران بل يزيدان وحيث أن بعض المواد المندرجة بالإتفاق غامضة وربما تؤولونها بما يتسبب منه منازعات في المستقبل فلأجل أن نوضح لحضرتكم القصد منها أردنا تنوير غبطتكم وتعريفكم بالشروط التي قرر المجلس طلبها منكم بجلسته المنعقدة في يوم الإثنين ٢٢ أغسطس سنة ١٨٩٢ تلقاء ما أجريتموه بعد الإتفاق.

أما الإتفاق فموضوعه أولاً: أن المجلس العمومي ينقسم إلى قسمين قسم روحي وقسم علماني وبإنضمامهما ينظران في ما هو مدون بالإتفاق من جهة الأحوال الشخصية وكل ما يتعلق بالإكليروس ويكون الرئيس على ذلك المجلس حضرتكم أو من تنيبونه من الإكليروس وأن يكون عدد المجلس الروحي ثلث مجموع المجلس العمومي بمعنى أنه بدلاً من كون ذلك العدد يبلغ الآن زيادة عن ثمن المجموع فيصير تعديل العدد حتى يصير الثلث ويستمر إنتخاب أعضاء المجلس الروحي بمعرفة المجلس العمومي بمقتضى اللائحة. وقد تبين في اللائحة وفي الإتفاق إختصاص كل منهما على إنفراده فالمجلس العلماني يكون تحت رئاسة الرئيس بمقتضى اللائحة ومع ذلك إذا سلمنا أن القصد أن تكون الرئاسة على المجلس المذكور لحضرتكم أو لمن تستنيبونه عنكم من الإكليروس فهذا لا يمنع ما هو مقرر من إنتخاب وكيله من الأعضاء أو إنتخاب أحد أعضائه للترأس عليه في حالة غياب الرئيس أو الوكيل أو حالة إمتناعكم وإمتناع من تستنيبونه «ثانيًا» قيل أن بعضًا من أرباب المجلس غير متمذهب بالمذهب الأرثوذكسي والبعض غير حائز للسن المقرر باللائحة فمن يثبت عليه ذلك يستبدل لعدم موافقة بقائه «ثالثًا» ديوان البطريكخانة يكون بمعرفة البطريرك

ولا إختصاص للمجلس فيه . القصد من ذلك أن كافة المستخدمين الذين لا تعلق لهم بأشغال تختص بالمجلس ويكونون مختصين بقدسكم فبالطبع يكونون تابعين لحضرتكم دون غيركم «رابعًا» أطيان أديرة الرهبان تتقدم حساباتها لكم وفائض نقودها يحفظ بجهاتها . فهذا لا ينافي ما للمجلس من الحق في النظر وإجراء ما يؤول منه تحسين حالتها وما بقي في ما يختص بالحجج والواني وغيرها فمفهوم صراحة .

هذا من جهة الإتفاق والمجلس قابل به كما تقدم أما ما يطلبه من حضرتكم فمن حيث أنكم قبلتم مراراً وترأستم عليه ونفذتم أعماله مدة سنين ثم توقفتم أيضًا مرارًا في قبوله حتى ألجأ الأمر لتوسط الحكومة جملة مراراً وأخذ تعهدات عليكم بواسطتها وقد تحقق للمجلس مما أجريتموه من بعد الإتفاق أيضًا شبهة في العشم بالإتحاد مع حضرتكم في المستقبل فلأجل أن يكون واثقًا من إخلاص سيادتكم له يطلب تعهداً بالكتابة بأنه فضلاً عن قبولكم بالمجلس صراحة تنضمون معه قلبًا وقالبًا وأن تنفذوا لائحته الحالية لبينما تتم التعديلات الواردة في الإتفاق ويصدر الأمر العالي بإعتمادها وأن لا تأتوا بشيء ما يوجب توقيف أعماله ولا تعملوا بإنفرادكم عملاً بما يكون في دائرة حدوده وأن ما إندرج بالإتفاق كما تقدم هو كل ما ترغبونه وأنكم تنفذون بنية خالصة ما يصدره من القرارات وأنكم لا تأخذون شيئًا من جميع الإيرادات سواء كانت من الأوقاف أو من مرتبات الأساقفة أو تركاتهم أو رسوم البطريكخانة أو غير ذلك وبالجملة كل ما يرد من البطريكخانة من الإيرادات بخلاف ما يختص بذاتكم كالهدايا التي تقدم لسيادتكم من إبناء الطائفة على سبيل البركة إتباعًا للقرار السابق صدوره ومصدق عليه من جنابكم ومرسل

لكم صورته من طي هذا وأن تكتفوا بالماهية التي تقررت لحضرتكم وقبلتم بها في التعهد الذي سجل في محافظة مصر وهي ثلاثون فينتي شهريًا وأن تعيدوا المدرسة الإكليريكية تحت رئاسة القمص فيلوثاؤس إتباعًا لنص التعهد المذكور والقرارات المتعددة التي صدرت بشأنها فإنه طالما يطلب منكم إعادتها وتتوقفون في ذلك ما ينتج عنها من الفوائد ومرسل لغبطتكم صورة من ذلك التعهد أيضًا . وأنكم تسالمون جميع أفراد الطائفة وتسامحونهم كنص المنشور السابق تحضيره بحضور إبراهيم بك نخلة وبالخصوص تسامحون الإكليروس الذين هم على غير رأيكم ولأجل عدم مشغولية الحكومة بعد الآن فتقبلون وتتعهدون بأنكم إذا عملتم شيئًا مخالفًا لهذه الشروط تتنحون عن كل عمل بمجرد طلب المجلس ذلك منكم فإذا قبلتم جميع ما ذكر يرجوكم المجلس أن ترسلوا إلى الخواجات فرنسيس جربوعه وقلادة أنطون في ظرف أربعة وعشرين ساعة من وقت وصول هذا لحضرتكم من يد المومأ إليهما المندوبين لتوصيله إليكم كتابة صريحة بما ذكر حتى تسجل بمحل الإقتضاء ويحصل مباشرة تنفيذ الإتفاق وإن لم ترد في الميعاد المذكور أو وردت ولم تكن محتوية على جميع هذه الشروط فالمجلس يكون حرًا في إجراء ما يراه لخير الطائفة ويلقي على جنابكم تبعة عدم نفاذ الإتفاق لأن إجراآتكم الأخيرة بعد أن أعيتنا الحيل في الوصول لإستجلاب رضاكم هي السبب الوحيد لذلك اهـ .

فلما وصل غبطة البطريرك هذا القرار وإطلع عليه لم يشأ الرد عليه ولو فعل ذلك لإنفتح باب المخابرة بينه وبينهم وتوصلوا إلى نتيجة حسنة وزالت أسباب النشوز ولكنه أبي ذلك لشدة

لهجته وقساوة عبارته وحدة ألفاظه ولا سيما بالنسبة لما جاء به من عبارة التهديد من أنه «إذا عمل غبطته شيئًا مخالفًا لهذه الشروط يتنحى عن كل عمل بمجرد طلب المجلس ذلك منه» غير أن نيافة مطران الإسكندرية والقمص تادرس مينا أشارا عليه أن يبعث إلى سعادة بطرس باشا بمكتوب يشف عن قبوله الإتفاق كما هو بدون أقل تأويل ولا تحريف ولا تصحيف وأنه سبق أدرج منشوراً بجريدة الوطن وبمقتضاه قد زال الشقاق ووردت التلغرافات من كافة أنحاء القطر بالتهاني على حصول الإتفاق فأجاب طلبهما ولو أشار عليه أو لو ختم الكاتب هذا المكتوب بعبارة تشير صراحة إلى أن هذا كاف لتقرير الوفاق بينه وبين المجلس وزوال النفور الذي إستحكم بينهما لكان أوفق فإستنتج من ذلك أعضاء المجلس أنه غير راض بمقترحاتهم. وفي اليوم ذاته ظهر التأويل منشوراً بجريدة الأهرام وفي ذيله خطاب غبطة البطريرك مردفين بعبارة مقتضاها أن الإتفاق قد صار لاغيًا بناءً على توقف غبطته في المجاوبة على طلبات المجلس. وكذلك غبطة البطريرك نشر إعلانًا في إحدى الجرائد بين فيه أن مواد الإتفاق الذي عقد بينه وبين سعادة الباشا هي

عين الطلبات التي كان يرغب إجابة المجلس عنها وتحوير اللائحة بموجبها غير أن أرباب المجلس أخذوا يخترعون العراقيل لإلغاء الإتفاق وأن هذا يدل على أن ليس في نيتهم الصلح والسلام كما إدعوا بل قصدهم التحكم عليه وعلى الإكليروس وختم الإعلان بالتوسل إلى الحكومة السنية أن ترفع ظلامته ويجود عليه الجناب العالي بنظرة من مراحمه ليزول العناد والشقاق . ومن ذلك الحين كثر درج الإعلانات والمنشورات في الجرائد فكانت الفائدة لأصحابها وللمطابع .

ولئن كانت المعية السنية قد نهت غبطته عن مكاتبتها بأي شيء من هذا القبيل بالنسبة لعدم إذعانه لأوامر الحكومة كما تقدم القول إلا أنه لما رأى أن الخلاف قد إستحكم وكل من الفريقين لا يرد غير تأييد طلباته ومقترحاته ظن أنه إذا طرق بابها مرة أخرى ربما تنصت له وتصفح عن زلته فكتب إليها عريضة بما يأتي :

إنه بالنسبة لإنتخاب مجلس للملة على غير القاعدة الدينية وردت إلينا التقارير والمحاضر والتلغرافات من إبناء الطائفة بأنحاء القطر المصري بعدم الإقرار على المجلس المذكور فضلاً عما ورد من عموم الإكليروس والأساقفة

خصوصاً لما صدر قرار رفعنا من أشغال الطائفة ولما نظر ذلك سعادة بطرس باشا وعدم رضاء الشعب حضر لطرفنا وإستسمحنا فيما حصل وحرر إتفاقًا مقتضاه تعديل الإنتخاب واللائحة كما تعلمون صورته سعادتكم من الورقة طيه وعلى مقتضى ذلك أعلنا الطائفة بالهدوء وتقاطرت التلغرافات بالتهاني فضلاً عن الإفادات فإنحسم النزاع وأقررنا على الإتفاق المذكور حبًا في السلام وعدم مشغولية الحكومة في هذه المسألة وقد أقر المجلس جميعه على هذا الإتفاق وبعدها ما نشعر إلا أرسلوا لنا إفادة مبين بها مقترحات خارجة عن اللائحة والإتفاق وقواعد الكنيسة فأجبناهم عنها بما يفيد عدم الخروج عن حدود الإتفاق فلم يقبلوا وأعلنا بإلغائه الأمر الذي أوجب حزننا وعموم الطائفة وحيث كل هذه الأمور لاترضى عدل خديوينا المعظم ونظن أنه ربما لم يكن تبلغ صورة ذلك الإتفاق ولعدم إقرار عموم الطائفة على المجلس وإجراآته فنلتمس من سعادتكم عرض ذلك على مسامع الجناب الخديوى وإستعطاف مراحمه بتوجيه أنظاره نحونا وعموم الطائفة لأننا لم نخرج عن طاعته ومعترفون برعايته أدام الله عزه بالنصر والإقبال أفندم اهـ.

فلم ترد عليه المعية السنية جوابًا . وعلى أثر ذلك إنتخب المجلس جناب أسقف صنبو وكيلاً للبطريكخانة ورئيسًا للمجلس وصدرت الإرادة السنية بتعيينه فكان هذا سببًا لزيادة المشاكل وموجبًا لحصول ما هو أعظم من كل ما تقدم شرحه فإن غبطة

البطريرك تهدده ثم حرمه وأصدر أمراً لمن بالبطريكخانة بعدم قبوله بها فأغلقوا أبوابها وتحصنوا بداخلها . وفي صباح اليوم التالي إجتمع أعضاء المجلس ومعهم مندوب من الحكومة وتوجهوا إلى البطريكخانة ونادى المندوب على من بداخلها وطلب إليه بإسم الخديوى أن يفتحوا الباب فأبوا ورفضوا أن لا يفعلوا ذلك إلا بأمر من جناب البطريرك .

ثم إنصرف الأعضاء من أمام باب الدار البطريركية وإجتمعوا بمحل آخر وكتبوا إلتماسًا للحكومة بإبعاد البطريرك إلى دير البرموس في مديرية البحيرة ومطران الإسكندرية إلى دير أنبا بولا في بني سويف وبنوا هذا الطلب على مخالفة جناب البطريرك لأوامر الحكومة وعدم إتفاقه مع طائفته ورفضه قبول مجلس بالكلية وبثه أعوانًا في الجهات لتحريض العامة على الهياج وتلفيق التلغرافات للمعية السنية وزيادة على ذلك فإنه إشتكى بكتابة منه لبعض مأموري الدول الأجنبية وبإرساله أخيرًا منشورًا يطلب به قسوسًا وغيرهم للحضور لطرفه بالإسكندرية لزيادة الهياج وأمره لمن بالبطريكخانة بالإمتناع عن طاعة أمر الحكومة . أما نيافة المطران فلأنه مساعده ومعينه

على ذلك. فصدر الأمر العال بإبعادهما وفي يوم الخميس أول سبتمبر سنة ١٨٩٢ قام كل منهما إلى الدير المعين له. ولا يخفي على القارىء ما شمل جميع إبناء الأمة القبطية من الحزن والكدر عند بلوغهم هذا الخبر حتى أعضاء المجلس الذين قضت عليهم الضرورة بذلك الطلب.

ولم تمض أيام منذ وصول غبطة البطريرك ونيافة المطران إلى مقر كل منهما حتى بذلت المساعي والإلتماس من الجناب العالي بعودتهما ومازال إبناء الأمة يتواقعون على الجناب العالي ويتذللون إليه حتى أجاب ملتمسهم وأذن لهما بالعودة فأرسلت الحكومة مندوبًا من طرفها وهو حضرة إلياس بك إدوار ليعلم غبطة البطريرك بأن الجناب العالي صفح عما حصل ويدعوه للحضور إلى مصر. وفي يوم السبت ٤ فبراير سنة ١٨٩٣ وصل إلى القاهرة بعد أن قام بدير البرموس نحو ستة أشهر.

وكان يوم وصوله يومًا عظيمًا والإحتفال بقدومه يفوق الوصف فخرج لإستقباله عدد لايحصى وكان الزحام من شارع كلوت بك إلى المحطة شديدًا جدًا بالنسبة لكثرة الناس فضلا عن الذين في البيوت. وكان راكبًا معه في العربة حضرة إلياس

بك إدوار مندوب الحكومة وجنود السواري والمشاة تحيط بها وكان خلف عربته محافظ مصر وورد إليه نحو ألفي تلغراف من وجهاء المصريين وأعيانهم وذواتهم بتهنئته بالعود سالما وإستمر المهنئون يفدون عليه بالدار البطريركية أيامًا .

وبعد قليل وصل أيضًا نيافة مطران الإكسندرية فإحتفل الناس بقدومه إحتفالاً شائقًا أيضًا ولما وصل إلى بني سويف تصادف أن الجناب الخديوي كان بها فتشرف بمقابلته وتقديم التشكرات الواجبة له على تعطفاته فأظهر له الجناب العالي مزيد الرضى وطيب خاطره .

وهكذا إنتهت هذه المشكلة التى إشغلت أفكار الناس مدة وكان من ورائها تشتيت كلمة الأمة وتفريق وحدتها . أما جناب أسقف صنبو فإنه قبل قيام مندوب الحكومة إلى غبطة البطريرك بالدير قدم إستعفاءه من وكالة البطريكخانة ورئاسة المجلس وبعد وصول غبطة البطريرك ونيافة المطران إلى القاهرة بنحو عشرة أيام تصافح بواسطة سعادة بطرس باشا مع غبطة البطريرك ونيافة المطران وبعد قليل عائدًا إلى أبروشيته ثم رقاه غبطته إلى درجة مطران .

ويعجبنى ما قاله غبطته بعد عودته من الدير لمن كان يعاتب أحد أعضاء جمعية التوفيق بحضرته على ما كتب في نشراتها حيث قال غبطته «لا لزوم للعود إلى ما مضى إذا كان أعضاء جمعية التوفيق كتبوا فنحن أيضاً كتبنا» .

وكاد يحصل نشوزاً آخر بينه وبين المجلس عند عودته لولا أن سعادة بطرس باشا وصاحب العزة قليني بك والخواجا أندراوس بشارة تلافوا الأمر بحسن تدبيرهم وسياستهم فإستعفي الأعضاء وقامت اللجنة المالية الموجودة الآن مقام المجلس إلى أن يحصل الإتفاق على إنتخاب جديد .

ولاتزال هذه اللجنة تباشر الأعمال على مقتضى اللائحة منذ تعيينها للآن وليس من ينكر أنها عملت أعمالاً تمدح عليها مثل إعادة المدرسة الإكليريكية وإدارتها على طريقة جديدة ولولا ما هو حال بالبطريكخانة من عسر المالية وعدم إمكان أعضاء اللجنة الإهتداء إلى ما منه إزالة هذا العسر لأمكن المنوطون بإدارتها تحسين حالها وتقدمها أكثر وعلى كل فقد نبغ منها تلامذة نجباء وكذلك مدرسة الأزبكية إتسع نطاقها فكثر عدد الطلبة بها وتزاحموا على أبوابها وتأسس بها منذ سنتين

قسم تجهيزى ولكنى أرجو حضرات أعضاء اللجنة عفواً إذا
قلت أن ما آتوه من هذه الأعمال يعتبر في عيون نصراء الإصلاح
يسيراً جداً في جانب ما كان ينتظر منهم مع ما هو معهود في
همتهم وبالنسبة للإصلاحات الجملة المرغوبة التي لا تخفي
عليهم مع مضي مدة طويلة تقرب من سبع سنين منذ إنتخابهم
أعضاء للجنة خصوصاً وأن الأحوال في معظم إذا لم نقل كل
هذه المدة هادئة والفرصة مناسبة والوفاق بينهم وبين غبطة
البطريرك على ما نرى سائد فرجاؤنا فيهم وهم خير من يرجى
أن يعوضوا عما مضى بما هو آت وليس هذا بالأمر العسير
ماداموا متفقين وعاملين على تحقيق أماني إخوانهم خصوصاً
وأن زمانهم هذا لبعيد من أن يقاس بغيره لإستقلال وضعف نفوذ
أصحاب الغايات والمعاكسات وإظهار غبطة البطريرك الإرتياح
والميل لتنفيذ رغائب الأمة من جهة الإصلاحات بقدر ما يستطيع
وكفانا دليلاً على ذلك القرار الذي قرره ونشره في هذه الأيام
الأخيرة عن بعض الإصلاحات المقتضية بناءً على إقتراح بعض
المطارنة والأساقفة وغيرهم الذين حضروا إلى مصر لعقد مجمع
إكليريكى للنظر في أمر طلبات غبطة بطريرك السريان ومسألة

أسقف دير البراموس وهو القس إفرآم السرياني ولاسيما لأن هذا الإقتراح جاء مطابقاً لما أشار به صاحب العزة جرجس بك حنين في تقريره الذي رفعه له حينما أوعز إليه غبطته وكلفه أن يبحث في مشروع تادرس أفندي شنوده صاحب جريدة مصر الذي نشره تحت إسم الهدية التوتية ويرفع له تقريراً عن حالة الأمة الحاضرة والإصلاحات التي يرى أنها في حاجة لها والوسائط الموصلة إليها . ولما أتمه وقدمه لغبطته لم يكتف بقبوله منه فقط بل جعله كإستمارة يرجع إليها في العمل كلما سمحت الفرصة . وكله غرر ودرر يحق لدعاة الإصلاح أن يعجبوا له ويفتخروا به لما حواه من الحقائق الدقيقة والإشارات الصحيحة الصريحة كما أن غبطة البطريرك آثر أن يجعله قاعدة لأعماله الإصلاحية ولذا طبعته جمعية التوفيق على نفقتها ونشرته ووزعته .

ومما جاء في هذا القرار (البطريركى) فتح مدارس إكليريكية بالإسكندرية وعزبة بوش ودير المحرق وقد علمنا والكتاب تحت الطبع أن نيافة مطران الإسكندرية أول من شرع في تنفيذ القرار بفتح المدرسة التي تحت نظارته بالثغر وإستعدادها لقبول الطلبة . وعلى ذكر القس إفرام السرياني

نقول.

كان القس إفرام هذا يسمى ناعوم أتى إلى مصر وهو حدث السن وترهب بدير البرموس وسمى إفرام وسيم قسيسًا على يد غبطة البطريرك الحالي. وإذ كان كلفًا بالمطالعة والبحث سلم إليه غبطته الكتب الموجودة بمكتبة البطريكخانة فإنعكف على المطالعة وألف كتبًا قيل فيما بعد أن بها أغلاطًا ومخالفة للعقيدة القبطية الأرثوذكسية وأمده غبطته بالمال للمساعدة على طبعها ونشرها ومن ثم جعله خصيصًا به وإبنًا له ولما كان الشقاق بينه وبين المجلس كان القس المذكور من أعظم نصرائه. ولما عاد من الدير بعد الإبعاد شاع أنه يقصد رسمه أسقفًا أو وكيلاً بإحدى الأسقفيات فتصدت له جمعية التوفيق وحذرت غبطة البطريرك في مجلتها من الإقدام على ذلك. وأخيرًا لما رسم أساقفة على الأديرة رسمه أسقفًا على دير البرموس وسماه إيسوذورس ولكن لم يمض على رسمه بضع أشهر حتى أشهر توقيفه وتجريده بناءً على قرار من مجمع إكليريكى وسببه أنه رقّى بعض قسوس الدير إلى قمامصة ورسم قسوسًا لا معرفة لهم بالقراءة والكتابة وقيل ليس هذا كل السبب بل أنه تداخل في إدارة الدير والأوقاف التابعة له وغير ذلك مما هو خاص بنيابة مطران الإسكندرية لأنه

هو الناظر عليه وشكا منه أيضاً رئيس الدير لترفعه وتعاظمه عليه وكذلك إشتكى عليه بأنه هيج الرهبان وحثهم على المجاهرة بعدم الإذعان لأوامر البطريرك حتى تجمهروا وهجروا الدير وأغلقوه ونزلوا منه بدون إذن وبعضهم إنضم إلى طائفة مسيحية أخرى ولما دُعي للحضور أمام المجمع ليجاوب عن هذه الشكايات التي أقيمت عليه أبي فحكم المجمع برفعه وتجريده وتوقيع الجزاء على الرهبان بعضهم بالإبعاد من ديرهم زمناً وبعضهم بغير ذلك .

وتوسط رئيس جمعية التوفيق لدى غبطة البطريرك في مسامحته فقبل توسطه على شرط أن يقيم بأحد الأديرة البعيدة مدة سنتين جزاءً له فأبي وبقي على هذه الحالة نحو سنة وهو يتوسل إلى غبطته ويتوسط ببعض الأعيان ليعفو عنه وهو مُصّر على تنفيذ ما حكم به من الإبعاد سنتين والأسقف لايقبل هذا الحكم بحجة أنه لم يفعل ما يستحق عليه هذا القصاص الصارم .

وأخيراً إلتجأ إلى بطريرك السريان فعينه أسقفاً ووكيلاً على طائفته بمصر وسماه كيرلس إيسوذورس أسقف السريان الأرثوذكس بمصر وعرض إلى الحكومة السنية أن تعرفه بهذه الصفة وكتب إلى بطريرك الأقباط يخبره ويعاتبه على إصراره

على عدم العفو عنه وطلب إليه أن يصرح له بالأقامة في إحدى كنيستي السريان بمصر ويسلم إليه جميع الأوقاف الخاصة بطائفته الواضعة اليد عليها الطائفة القبطية مع ماجد عليها من الأملاك من ريعها الذي تحصل منها مدة بقائها تحت يده.

ونشر هذا الخبر في بعض الجرائد المحلية فإندهش الناس لهذا الطلب وصاروا يتحدثون بغرابته ويتساءلون عن كنائس السريان وأوقافهم وبعضهم يقول أن إحدى هاتين الكنيستين هي المحل المعروف «بالعزباوية» بمصر ومايتبعه من الأوقاف والبعض يقول بل هو الدير الشهير بدير السريان ببرية شيهات [الأصل شهيت]والبعض يقول أن كنيسة مار بهنام القائل عنها غبطة بطريرك السريان في كتابه هي عبارة عن محل صغير حقير بدير مار مينا والأوقاف هي بعض محلات متخربة بجهة فم الخليج والبعض يقول غير ذلك فلغط الناس بهذه المسألة وصارت موضوع حديثهم في كل جهة ومكان.

أما غبطة البطريرك فإنه طلب من الأسقف إيسوذورس أن يقبل بما حكم عليه ليسامحه ويرده إلى وظيفته فأبي قائلاً أن أمره صار يختص بغبطة بطريرك السريان وعليه إنعقد المجمع

المذكور وأيد الحكم الأول بتجريده من كل الرتب الكنائسية حتى إسم إفرام وإيسوذورس وعودته إلى إسمه الأول الذي كان يسمى به قبلاً وهو ناعوم. ورد غبطة البطريرك على كتاب بطريرك السريان بذلك وفي آخر كتابه له قال أما عن الأوقاف القائل عنها فلا محل لهذا القول ولا صحة له. ولا ندرى ماذا يكون وراء ذلك وكيف تنتهى هذه المسألة الغامضة عن أفهام الناس أو ماهي مستندات غبطة بطريرك السريان التى يعتمد عليها في طلباته إلا إذا كانت مبنية على أقوال القس افرآم ليس إلا. وقد أبلغ غبطة البطريرك ما قرره المجمع الإكليريكى للحكومة السنية فصدر أمر رئيس مجلس النظار لمحافظة مصر وبعض جهات الإدارة بعدم معرفة الشخص المذكور إلا بصفة فرد بسيط من سائر أفراد الأهالي بإسم ناعوم السرياني تنفيذاً للحكم الصادر عليه من المجمع الإكليريكى.

ونشر سيادة البطريرك قرار التجريد هذا في الجرائد المحلية وعلى أثره أصدر منشوراً عموميًا يحذر الناس فيه من مطالعة الكتب التي كان طبعها ونشرها أيام كان غبطته راضيًا عليه بقول أنها تحتوى على مايمس العقيدة القبطية الصحيحة

الأرثوذكسية وكذلك منع من قبول ومطالعة جريدة مظلة داود التى يدافع فيها الأسقف عن نفسه .

الخاتمة

هذا ما إستطعت جمعه من متفرقات المؤلفات المطولة وما سمعته بأذني وما رأيته بعيني من تاريخ هذه الأمة القديمة وحوادثها الغريبة منذ نشأتها إلى يومنا هذا أثبته في هذا الكتيب الذي أتطفل به على موائد المؤلفين خدمة مني لأبناء جنسى المحبوبين وأظنه كافيًا للغرض المقصود حاويًا كل ما تهم معرفته خصوصًا إبناء الأمة القبطية ليعرفوا ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم في قديم الزمان وغابر الأيام وما هم عليه الآن فيكفيهم ما حواه من شرح الحوادث الغريبة والتقلبات المطولة فضلاً عن عدم إمكان وصول يد كل إنسان إليها وتعذر الحصول عليها .

أما عن حالتنا الحاضرة وإن يكن سيرنا في طريق الإصلاح بطيئًا نوعًا إلا أنها تبشر بالخير وتنذر بالنجاح وعلى الخصوص

لأن الحوادث الأخيرة قد نبهت أفكار فضلاء إبناء الأمة ودعاة الإصلاح وعلمتهم أن يسلموا لأحكام الضرورة ويتحولوا عما كانوا يعتمدون عليه وأن يعولوا في أحوال ترقية أمتهم ورفعة منزلتها على الإعتماد على أنفسهم وتحققوا أن هذا أساس النجاح فقامت لذلك الجمعيات الخيرية وغيرها في مصر وجهات كثيرة وفتحت مدارس لتعميم التربية وترقية العقول بالعلوم والمعارف وإن كانت بعض هذه المدارس في حالة البساطة لكن يرجى أنها ستصل يومًا إلى درجة أرقى مما هي عليه الآن لو دامت هذه الغيرة وسلمت إدارتها إلى من هم أدرى بالتعليم ونظام المدارس ولو كانوا أصغر سنًا أو أقل درجة ومقامًا من غيرهم وليس هذا بعار بل هو عين العقل والصواب عند ذوى الفطنة وأولي الألباب وهذه جمعية طنطا الخيرية أعظم شاهد على ذلك فتنقطع حينئذ العبارات التي يتردد صداها في المحافل مثل قول بعضهم «من هو فلان وإبن من هو» فلا يظن الشيخ منهم أنه أعلم من الشاب ولا الشاب أنه أحكم من الشيخ.

وكذلك قامت جمعية التوفيق وبنت أعمالها على أساس ثابت متين يضمن دوامها وبقائها وكأنها قامت بما كان يتمناه

سعيد الذكر الأنبا كيرلس الرابع مؤسس الإصلاح فأنشأت مطبعة واسعة أنفقت عليها أكثر من ألف جنيه وبها معمل لتجليد الكتب ومكتبة جمعت فيها إلى الآن أكثر من ستمائة كتاب وهي باذلة الجهد في الحصول على الكتب القديمة التى بخط اليد إستنساخ ما لا نستطيع إقتناءه منها وأنشأت أيضًا مدرستين عظيمتين إحداهما للصبيان والأخرى للبنات وبهما كثير من الطلبة وكل هذه في عمارة فسيحة تبلغ مساحتها أكثر من ستة آلاف متر إشترته لنفسها من مالها الخاص بألفي جنيه وبه بستان واسع وفي نيتها أن تبني به مستشفي خاص لمعالجة وتمريض فقراء الأقباط مجانًا . وقد عملت كل هذه الأعمال الجسيمة التي لم يتسن لغيرها عملها وهي لا تمتلك فدانًا ولا عقارًا مبنيًا بل من الإشتراكات الزهيدة والتبرعات التي يجود بها أهل المروءة في سبيل عمل الخير .

وكذلك تأسست لها جمعيات فرعية بجهات كثيرة في الوجهين القبلي والبحري ولم يكن الغرض من تأسيسها الإسم بل العمل الحقيقي الذي يعود بالفائدة . وعرفت جميع جمعيات التوفيق أهمية تربية البنات وعظيم إحتياج الأمة إليها فأنشأت

لها مدارس معدودة وقلما تجد جمعية في أية جهة لا يكون لها مدرسة بنات ولبعضها مدرستان واحدة للبنات وأخرى للصبيان وكلها سائرة على نظام تام فإذا دامت هذه الهمة المشكورة لاشك في أن هيئة الأمة ستتغير في مدة ثلاث أو أربع سنين تغييرًا تامًا . هذا فضلاً عما تعمله هذه الجمعيات من الأعمال الخيرية التى تثاب عليها وأعظم من هذا كله إرتباطها ببعضها وإتحادها قلبًا وقالبًا مع تفرقها وبعد مراكزها عن بعضها كأنها في وسط واحد ومسالمتها الجمعيات الأخر ومساعدتها لها بالفكر والعمل بقدر ما في وسعها وطاقتها .

وقد عرف أخيرًا غبطة بطريركنا أو بالحري (بابا أفريقية كما شاع تقريره أخيرًا) حسن نوايا ومقاصد جمعية التوفيق وتحقق إخلاص نية أعضائها بعد أن كان يوسوس له الموسوسون أنها من ألد أعدائه فرضى عنها وزارها وشرف محافلها وإحتفالاتها وأمدها يوم أول زيارته محلها بما تستعين به على تأدية لوازم آمالها وكذلك عمل سائر المطارنة والأساقفة وفي مقدمتهم نيافة مطران الإسكندرية . ولا يسعني في هذا المقام إلا

أن أقول لاشك في «أن الليالى حبالى تلدن كل عجيب» وأني لأحسب نفسي سعيداً إذ تسنى لى أن أختم كتابي بذكر هذه المآثر الحميدة والمشروعات الجليلة والأعمال النافعة المفيدة.

ولم أقصد بما شرحته مدح جمعيات التوفيق أو أعضائها بل لأبين لبعض الذين لا يزالون يعتقدون ويوهمون أن كل الإصلاح في جوف البطريكخانة أنهم في غلط مبين كان سبباً في تأخرنا أكثر من ربع جيل. وقد دلت الأحوال الأخيرة على أن طغمة الإكليروس التي كنا نرميها أمس بالتصدي والعمل على معاكسة الإصلاح والمصلحين قد تغيرت أشباحها فتنبهت اليوم وعكفت هي أيضا على إصلاح داخليتها وشاهدنا على ذلك القرار البطريركي الأخير المتقدم ذكره الذي نتعشم أن تكون له نتيجة حسنة خصوصاً وأنه صادر من رجال الإكليروس من تلقاء أنفسهم ولم يحملهم أحد عليه إلا بطريقة الإشارة فقط ولو لم يكن عندهم شعور بأنهم في حاجة للإصلاح مارفعوا هذا المشروع لغبطة البطريرك.

ويا حبذا لو إنتهز بعض فضلائنا هذه الفرصة الثمينة ووجهوا إلتفاتهم إلى ما بقي عندنا من الآثار القديمة العديمة المثال

وكتب خط اليد المتشتتة الموجودة تحت يد من لا يعرف لها قيمة ويرفعون لغبطة البطريرك مشروعًا بجمع شتاتها في محل واحد مع المحافظة عليها كما أشرنا إلى ذلك في ما تقدم.

هذا وإني أعطر ختام المقال بتقديم واجب الشكر لجميع إخوانى الأفاضل الذين ساعدونى بأفكارهم الصائبة وأمدونى بمعلوماتهم الصحيحة المفيدة حتى جاء الكتاب كما هو وأخص بالذكر منهم الخطيب البليغ والواعظ الفصيح الإيغومانوس فيلوثاؤس خادم الكنيسة القبطية الكاتدرائية بمحروسة مصر القاهرة فإنه سلم إليّ ما لديه من كتب خط اليد القديمة العديمة النظير التي إستعنت بها كثيرًا على المهمة التي كنت أقصدها وأسعى وراءها والفاضل الأديب جرجس أفندى فيلوثاؤس فإنه أخذ بيدي كثيرًا في جمع الحوادث المتفرقة والبحث عن الأحوال المجهولة الغامضة فضلًا عن مساعدته لي في تصليح الطبع والتصحيح فشكرًا له على هذه العناية والأتعاب وإن يكن في الحقيقة قد عمل الواجب عليه في هذه الخدمة الوطنية الشريفة.

وكذلك جميع الذين شجعوني حينما كنت أقدم رجلًا وأوخر أخرى خصوصًا نيافة مطران الإسكندرية فإنه فضلًا

عن تشجيعه لي أشار على بإستيفاء أهم حوادث الأعصر الماضية إتمامًا للفائدة ولولاه لإقتصرت كثيرًا في ما جمعت وإختصرت في ما كتبت وسطرت.

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في يوم الخميس المبارك الموافق ٣ من أيام النسىء سنة ١٦١٥ قبطية للشهداء (غرة شهر جمادى الأولى سنة ١٣١٧هـ . ٧ شهر سبتمبر ١٨٩٩م) بمطبعة التوفيق القبطية الأرثوذكسية العامرة. والمرجو من حضرات القراء الكرام أن يغضوا الطرف عن كل عيب يرونه أو تقصير يجدونه إذ الكمال لله وحده سبحانه وتعالى وله الحمد على كل حال.

تقاريظ الكتاب

ولما تم طبعه قرظه بعض الفضلاء وهذا صورة ما كتبه الكاتب الأديب واللوذعى حضرة بطرس أفندي حنا عبود أستاذ اللغة الإنكليزية بمدرسة الفيوم الأميرية .

القول المستطاب في تقريظ الكتاب

التاريخ مرآة الغابر . وعظة الحاضر . فلكل دولة . عزة وصولة . ولكل أمة . سطوة وهمة . لاتبدو نارها . ولا تظهر آثارها . إلا بما يودع في الطرس . من القصص التي هي أعظم درس . فالأمم كالأجسام لها حياة . ويعقبها ذبول وممات . تارة تزدهي وتعلو . وأخرى نارها تخبو . وآونة مطيتها تكبو . وفي هذه الأحوال . التي تطرأ على الأمم والأقيال . من ذكر بواعث إمتطاء صهوة الجد . وإرتقاء معالي السعد . وما إنتابها من دواعي الإنحطاط والذبول . وما أعتور نجمها من الأفول . عبرة لمن إعتبر . وآية لمن إذ دجر . هذه منزلة التاريخ السامية . ومكانته العالية . إذ هو أصدق دليل . إلى أسد سبيل . وأهدى مشكاة . إلى أقوم المحجات . وألذه للنفوس وأعذب . وأشهاه للسماع وأطرب . ما كان من قبل مجهولاً . وعليه حجاب النسيان مسدولاً . على حد قول القائل .

أحب شيء إلى الإنسان ما منع والشيء يرغب فيه حين يمتنع

ولا أحد ينكر ما كانت عليه الأمة المصرية من التقدم والإرتقاء وما بلغته

في معالم الحضارة والعلاء . حتى قيل أنها أول من وضع دعائم العمران وإستنبط أصول العلوم المتداولة بين بني الإنسان . ثم ما عتم الدين المسيحى أن نشر لواءه على البلاد المصرية حتى قام من بنيها من قام بتوطيد أركانه . وبذل النفس والنفيس في تشييد بنيانه . ومن ثم بدأ تاريخ الطائفة القبطية . يختط خطة داخلية . عدى تاريخ الأمة المصرية . في الأحوال والوقائع الخصوصية . وعلى توالي الغبر . وتمادي الحوادث والغير إشتبه وإلتبس . وفي معاقل الظلمات إحتبس . رائده ضل وغوى . وطالبه زل وهوى . حتى لم تصل إلينا في هذه الأيام عن تاريخ الطائفة الحقيقي إلا بعض معلومات بتراء . التي لم يتسن لنا بها الهداية أو الإستهداء . والباعث في ذلك أن جله . إن لم نقل كله . منفصم عن الحوادث السياسية . منفصل عن الوقائع المدنية . وقد تاقت النفوس كثيراً وإشرأبت الأعناق إلى ما يروى هذه الغلة . ويزيل هذه العلة . حتى أتاح لها القدر . من بالعرفان والفضل إشتهر . صاحب الهمة العلية . والمكانة السنية . العلامة المفضال يعقوب بك نخلة رفيله . المعترف له بالفضل والفضيلة . الغيور على إصلاح قومه . الباذل كل مرتخص وغال في سبيل الإصلاح في أمسه ويومه . إذ رأى الطائفة ينقصها هذا الأمرٌ المهمٌ . ألا وهو تدوين تاريخها على وجه أكمل أعم . ورأى الحاجة إليه شديدة . والعازة إلى الوقوف عليه لازمة أكيدة . كيف لا والسواد الأعظم من متعلمي الأمة . ليس واقفًا على شيء من حوادثها المهمة . أو كوارثها المدلهمة . لا بل إن الناشئين والناشئات لا تذكر أمامهم الطائفة إلا عرضاً . ولا يبحثون عما كانت عليه . أو ما آلت إليه . لا قصداً ولا غرضاً . وما ذلك إلا لما نسج الدهر عليها من عناكب الجهالة شباكًا . ولم تتح لها الحوادث من هذا القيد فكاكًا .

ووجود هذه الموانع إزاء هذه الغاية العظمى ووقوف هذه الحواجز تلقاء هذا الغرض الأسمى. لم تكن لتثبط همة المؤلف الفاضل لدرك هذا الشأو. وبلوغ هذا الشأن. لاسيما أن المنهل نضب. والمركب خشن والمسلك وعر عطب. فصرف همته الشماء وبذل عزيمته العلياء للحصول على المعلومات المبعثرة، وتدوين الوقائع المنتشرة. والوقوف على ما كتبه الغربيون في هذا الصدد مع الإسناد الصحيح والعناية بإختيار القول الرجيح. والإعتناء بتدوين الحوادث النقلية عن الخلف الصالح مع صحة المعتمد. وما إنتاب الأمة من أحوال الدهر في ذاك الأمد. ولم يقصد في عبارته رعاة الله تنميقًا. ولم يختط بها إبداعًا أو تزويقًا. بل وجه العناية. أن تكون العبارة. مع صدق الرواية. سهلة الإشارة. ولم يغفل إن سمح القولِ أن يشير إلى العلاج الواقي. والوصف الوافي، والإيضاح الشافي. إلى طرق طُرق الإصلاح الكافي. وتبيان أفضل الوسائل إلى لم الشعث. ورم الرث. ورفع الخرق. ورتق الفتق. وجمع الشتات. لإصلاح ما هو آت. فجاء بحمد الله كما يرى المطلع فريدًا في بابه. كعبه لطلابه. إذ لم يأل حضرة المؤلف الفاضل جهدًا أن يجمع مواد الكتاب من كل شاردة عز نوالها. وكل واردة طلب ذكرها. ولم يدخر وسعًا للسعي وراء الأدلة التي تؤيد الحقيقة. ولم ينتهج غير سبيل الصدق في الرواية بدون تحيز التي هي بالمؤرخ خليقة. كما أنه لم يهمل أن يأتي على ذكر طرف من الطرف الأنيقة. والقصص والنكت الرشيقة. التي تأخذ بالألباب. وتستأثر بمجامع القلب. والغاية أن هذا المؤلف مع غزارة المادة وحسن العبارة في تدوين فصوله. والإعتماد على أوثق المصادر في الوقوف على أصوله. هو الوحيد في هذا الحذو. الفريد في هذا النحو. ولم أقصد بهذا تقريظًا أو إطراء أو

حمداً أو ثناء . فإن فضل سعادة مؤلفه الفاضل أشهر من أن يشهر . وغني عن أن يذكر . ومؤلفاته الكثيرة التي أفادت بني الوطن هي لسان الحال . في مثل هذا المقال . أما هذا المؤلف فلما إطلعت عليه . ورأيت غزارة مادته وفضل ما يحويه . أملاني وكتبت . وأوحى إليّ فدونت . فيحق للطائفة أن تذكر همة صاحب السعادة المؤلف بما يطيب نشره . ولا تقصر عن أن تحل كتابه هذا محله وقدره . والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

(صورة ما كتبه الكاتب الكامل والفاضل العامل)

حضرة جرجس أفندي فيلوثاؤس

قد مضت السنون وأنا أتشوق لأن أرى تاريخًا سياسيًا يذكرنا بتلك الأيام الماضية التي فيها قاوم إبناء أمتنا القبطية المحبوبة الكوارث والبلايا ولم تخر قواهم أمام المنايا التى كانت تنصب على هاماتهم كإنصباب السيول ليغيروا معتقدهم الأول الذين تسلموه عن أبطال الأرثوذكسية الأفاضل الذين حاموا حول الدين القديم ولم ترهبهم العذابات ولم يحببهم في تغيير معتقدهم ما كان يبذل لهم من المال ويوعدون به من الكرامات لو مالوا عن الحق وإتبعوا هوى النفس وإعتقدوا بما يعتقد به غيرهم إلا أنني لسوء الحظ لم أقف إلاّ على شذرات صغيرة في كتب القوم لم تشف الغليل ولم يستفد منها راغب الإطلاع على ما نال الأمة القبطية من الشقاء ولا سيما تناقص عددها بعد أن كانت تزيد عن الثلاثون ألف نفس إلى أن كادت تنقرض بعوامل الظلم ودوام

الإستبداد آنذاك إذ فريق يموت في السجون والآخر بالسيف وغيره ينفصل عن أمته بأسباب تثقيل كاهله بأنواع الخراج بينما يرى غيره يتمتع بحرية تامة ولا ذنب له إلا كونه على غير دين الأمة المالكة ويلتزم أن يتدين بالدين الذي يرفع عن كاهله تلك الأثقال فضلاً عن أن حرية الدين لم تكن مباحة والإزدراء كان من نصيب ذلك المتدين بالدين المسيحى وخصوصاً لمن كان تابعًا للأمة القبطية الأرثوذكسية التي هضمت كل حق في حريتها الدينية التى بذلت النفس والنفيس في سبيل الحصول عليها ولم تنلها إلا من عهد غير بعيد مذ قد نشرت راية الحرية تخفق على كل مصر فأبيح لهذه الأمة الحزينة التى ثابرت هذا الزمن جميعه وهي تنتظر خلاصها من هذا الذل وتلقى نير العبودية بعيداً عنها ولقد خلت بادىء الأمر أنني لا أعثر على كتاب بهذا الصدد يمثل حالنا ويرينا تلك الأيام التي قضت على وحدتنا وأماتت أمانينا وكادت تكون سببًا لفشلنا جميعًا غير أن صاحب العزة الهمام (يعقوب بك نخلة رفيله) الأفخم لم يفته أمر تشوق الأمة إلى هذا التاريخ المفيد فصاغه بعد البحث الشديد جامعًا بين صدق الرواية وعذوبة الألفاظ ليكون نموذجًا يقتدي به الكتاب عند تدوينهم حوادث الأمم ولا سيما الذين يريدون أن يكتبوا عن حوادث الأمة التي ظلت تنتظر بفروغ صبر هذا والوقت الذي تمتعت فيه بالحرية لتجمع شتات أفرادها تحت راية الأخوة وتنضم جميعها يداً واحدة عاملة على إصلاح أحوالها المعتلة المختلة عندما يرون ما لحق بأسلافهم من الإنحطاط عقب تفريق كلمتهم وعدم إرتباطهم برباط المحبة ويليق بي تلقاء ما رأيته أن أشكر صاحب العزة مؤلف هذا الكتاب النفيس على الإهتمام بهذا الأمر كثيراً والإنشغال به وقتًا طويلاً متعشمًا أننا لا نعدم رجالاً بين أفراد الأمة

يحذون حذو هذا الرجل العظيم في البحث والتنقيب عن تاريخ أمتهم ليخدموها بذلك خدمة تخلد لهم ذكرًا على ممر الدهور وكرور الأيام.

إسكندرية في ٣ مسري سنة ١٦١٥.



(فهرست مرتب على الحروف الأبجدية)

(حرف الألف)

صفحة

(حرف التاء)

صفحة

(تمت)









هذا الكتاب

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب منذ مائة عام، فهو:

- أول كتاب باللغة العربية يتناول تاريخ الأقباط معتمدا في مادته على المخطوطات المحفوظة بالأديرة والكنائس القديمة.
- أول كتاب يتناول تاريخ الأقباط في شمولية وإيجاز وبنهج علمي في تقييم المادة التاريخية.
- أول كتاب يكشف النقاب عن وضع الأقباط السياسي والإجتماعي والإقتصادي في المجتمع المصرى وعلاقتهم بالحكام على مر العصور.
- أول كتاب يلفت النظر إلى أهمية العناية بالتحف الأثرية وبالمخطوطات القبطية ووجوب تخصيص متحف لها.
- من المراجع الأساسية التى إستعان بها المؤرخ الكبير الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية في كتاباته العديدة عن تاريخ الأقباط وحضارتهم، وفي موسوعة القبطيات.

